دراسات إسلامية منهجية هادفة
٢

بحوث منهجية
في
علوم القرآن الكريم

تأليف
موسى إبراهيم الإبراهيم
رئيس قسم الدراسات القرآنية
كلية المعلمين - أبها

دار عمّار


بحوث منهجية
في
علوم القرآن الكريم

الطَّبعَة الثَّانِيَة

١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(١٩٩٦/٢/٢٤٧)

رقم التصنيف	: ٢٢٠
المؤلف ومن هو في حكمه	: موسى إبراهيم الإبراهيم
عنوان المصنف	: بحوث منهجية في علوم القرآن الكريم
رؤوس الموضوعات	: ١- القرآن الكريم
	٢-
رقم الإيداع	: (١٩٩٦/٢/٢٤٧)
الملاحظات	: عمان : دار عمار

* تم اعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية



الأردن - عمان - سوق البتراء - قرب الجامع الحسيني
ص.ب ٩٢١٦٩١ - هاتف ٦٥٢٤٣٧


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة بين يدي البحث

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رَبِّ العالمين، والصلاةُ والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

يا رب لكَ الحمدُ كما ينبغي لجلالِ وجهك وعظيم سلطانك أحمدك حمد الشاكرين لنعمائك لا أُحصي ثناءً عليك أنتَ كما أثنيت على نفسك.

اللهم ارزقنا الإخلاص في القول والعمل، وارزقنا الثبات على الإيمان وقت الفتن والمحن، يا أرحم الراحمين.

أما بعد:

فإن المكتبة الإسلامية غنية والحمد لله بكل فَنٍّ، ومليئة بكتب التراث الإسلامي العظيم. والناس جميعاً عالَةٌ على ما خَلّفه لنا سلفنا الصالح رحمهم الله من ذخائر العلم والحكم في شتى المجالات. وكذلك الكتّاب الإسلاميون المعاصرون جزاهم الله خيراً لم يُقَصِّروا أيضاً في تغذية الجيل بما يحتاج إليه من المفاهيم الإسلامية وبلغةِ العصر التي يفهمها رجالُ اليوم.

فجزى الله الجميع سلفاً وخلفاً خير الجزاء على ما بذلوا وقدموا لهذا الدين من تضحيات وجهود طيبة مباركة.

أما هذه التأملات.

فهي مساهمةٌ متواضعة في خدمة كتاب الله تعالى وعلومه وما أظنني أتيتُ فيها بجديد على الساحة العلمية غير أني راعيت فيها البحث المتوسط المقتصد بين الإيجاز والإطناب.

كما حاولتُ أنْ تكونَ بلهجةٍ منهجية مدرسية ليستفيد منها أكثر ما يستفيد الشباب المسلم في طور الدراسة والتحصيل العلمي ولتكون له بمثابة مقدمات ضرورية لأبحاث علوم القرآن الكريم التي تمس الحاجة إلى استيعابها والإحاطة بها.

وقد أعرضتُ فيها عن ذِكْرِ الجزئيات والتفاصيل المكرورة ما أمكنني ذلك. كما حاولت أنْ أعزو الأقوالَ إلى مصادرها المعتمدة على قلة المتوفر منها لدي أثناء كتابتي للبحث.

وأخيراً لا بد أن أذكر أنَّ أصل هذه التأملات كانت محاضرات ألقيتها على طلاب مدرسة تحفيظ القرآن الكريم بأبها ما بين عامي ١٤٠٠- و١٤٠٣هـ ثم قمت بتنسيقها وتنقيحها والزيادة عليها حتى تَمَّتْ بهذا الشكل فإنْ أَكُنْ قد وُفِّقْتُ بها فالفضلُ لله وحده، وإن أكن قد أخطأت وجانبني الصواب، فمن نفسي وتقصيري، والخير والإصلاحَ أردتُ، والله من وراء القصد وهو يهدي إلى سواء السبيل.

موسى إبراهيم الإبراهيم

التمهيد

أولاً - لمحة موجزة عن علوم القرآن الكريم:

١- علوم القرآن في عصر الرسول ﷺ وصحابته:

لم يكن هذا العلم معروفاً عند الصحابة رضي الله عنهم بهذا الاصطلاحْ وإنما كانوا يتذوَّقون معاني القرآن الكريم بسليقتهم الأصيلةِ وعَرَبيتهم العريقة، فإذا أشكل عليهم شيءٌ سألوا رسولَ الله ﷺ فيجيبهم ويرشدهم إلى المعنى المطلوب.

وقد كان أكثرُ الصحابة رضي الله عنهم أُمِّيين، زِدْ على ذلك أنَّ النبي ﷺ قد نهاهم أن يكتبوا عنه شيئاً غير القرآن الكريم، وقال لهم أول العهد بنزول القرآن الكريم: «لا تكتبوا عني ومَنْ كتب عني غير القرآن فَلْيَمْحُه، وحَدِّثُوا عني ولا حرج، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»[١].

وقد كان هذا النهي عن الكتابة مخافةَ أنْ يختلط القرآنُ الكريم بما ليس منه وقد أذن النبيُّ ﷺ لهم بالكتابة بعد ذلك لما أَمِنَ عليهم من الالتباس. وهكذا ظلت علوم القرآن الكريم من قراءات وتفسير ونحو ذلك تُروى بالتلقينِ والمشافهة طوال عهد الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

وفي خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه اتسعت الدولةُ الإسلامية

---

(١) رواه الإمام مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

واختلط العربُ بالعجم وفَشَا اللَّحْنُ بين الناس فأمر عثمان رضي الله عنه أن يجتمع المسلمون على مصحفٍ واحد وأنْ تُنسخَ منه مصاحفُ للأمصار، وأن يُحرقَ ما عداه على ما سيأتي تفصيلُه إنْ شاء الله، فكان عثمان رضي الله عنه بذلك قد وضع الأساس لما سُمِّيَ فيما بعد بعلم الرسم العثماني، أحد أبحاث علوم القرآن، كما سيأتي.

وفي عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه أمر أبا الأسود الدؤلي بوضع بعض القواعد[1] للمحافظةِ على أصالةِ اللغة العربية، فكان ذلك أساساً لعلم إعراب القرآن الكريم فيما بعد.

٢- علوم القرآن في عصر التدوين:

ولما جاء عصر التدوين كان تفسير القرآن الكريم أول ما دُوِّنَ وكُتب لأنه أمُّ العلوم القرآنية.

ثم تتابعت الكتابة والتأليف بعد ذلك وكل عالم يكشف من أسرارِ القرآن الكريم ما يتناسب مع اختصاصه ووجهته العلمية، فمن كاتبٍ في التفسير، وآخر في الإعجاز، وثالث في المُحْكَمِ والمُتشابه وغريب القرآن الكريم وإعرابه، وآخر في بدائع القرآن الكريم وحججه أو القراءات والأحرف السبعة، إلى غير ذلك من أبحاث متعددة حول كتاب الله تعالى.

٣- فضل القرآن الكريم على جميع العلوم إسلامية وعربية وكونية:

إن فضل القرآن الكريم على غيره من العلوم لا ينكره إلاّ جاحد أو مكابر، والأمر في الحقيقة كما يقول الإمام الزركشي رحمه الله: كل علمٍ من القرآن وإلاّ فليس عليه برهان.

---

(١) انظر كتاب معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار للإمام الذهبي ج١ص٦٠.

وتوضيحُ ذلك أنه لولا القرآن الكريم لما وُجدت تلك المكتبةُ العربية الرحبةُ التي تضم آلافَ المجلّدات بمختلف الاختصاصات العلمية التي تَتَّصِلُ كلها بالقرآن الكريم بوجهٍ أو بآخر.

أما العلوم الإسلامية والعربية فلا مجال للتردد في أنها متفرعةٌ عن القرآن الكريم ونابعة منه.

وأما العلوم الكونية الأخرى على اختلاف أنواعها من الطب والهندسة والفلك والرياضيات وعلوم الأرض والاجتماع وغير ذلك فلولا أن القرآن الكريم قَدَّرَ الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم على العلم وعَرَّفَهم فَضْلَهُ وفتحَ لهم أبوابَ التفكر في الأرض والسماء والأنفس وحَثَّهم على السير في الأرض والتنقيب عن القوانين والسنن الكونية. لولا ذلك لما ظهر أولئك العمالقةُ من العلماء المسلمين الذين سبقوا غيرهم وكانوا أساتذةَ الدنيا ووزعوا العلمَ والمعرفةَ على الشرقِ والغرب ومنهم على سبيل المثال:

١- أبو بكر الرازي (٢٤٠-٣٢٠هـ) الذي كان طبيبَ المسلمين بغير منازع، وهو حجةُ الطب في أوروبا حتى القرن السابع عشر للميلاد.

٢- الرئيس ابن سينا أبو علي بن الحسين (٣٧١-٤٢٨هـ) الذي ألف الكتب المتعددة في الطب وأشهرها «القانون». وقد قال عنه سارطون: إنه من أشهر مشاهير العلماء العالميين. ونقل الإمام الذهبي رحمه الله في «سير أعلام النبلاء» عن ابن سينا قوله: كنتُ كلما أَتحيَّرُ في مسألةٍ أو لم أظفر بالحد الأوسط في قياس ترددتُ إلى الجامع فصليتُ وابتهلتُ إلى مُبْدِعِ الكُلِّ حتى فتح لي المنغلق منه[1] وقال عنه ابن خلكان في «وفيات الأعيان»

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي ج١٧ ص٥٣١.

يَصِفُ حالَهُ عندما حَضَرَتْهُ الوفاة: ثم اغتسل وردَّ المظالم وأعتقَ مماليكه وجعلَ يختمُ القرآن في كل ثلاثٍ، ثم مات يوم الجمعة في رمضان سنة ٤٢٨هـ[١].

٣- ومنهم أبي الريحان البيروني الذي كان أول مَنْ قَدَّرَ الثِّقَلَ النوعيَّ للمعادن تقديراً دقيقاً وبرع في مختلف العلوم حتى قال عنه المستشرق سخاو: إنه أكبر عقلية عرفها التاريخ[٢].

٤- ومنهم جابر بن حيان الذي كان أول من أدخل المنهج التجريبي في العلوم، وهذا المنهج هو الذي قامت عليه الحضارة الحديثة اليوم.

٥- ومنهم ابن النفيس الطبيب المصري الذي اكتشف الدورة الدموية، والذي كان أول مَنْ قام بتشريح الجثثِ في عالم الطب.

٦- والحسن بن الهيثم عالم الرياضيات والبصريات الشهير.

٧- والخوارزمي محمد بن موسى مؤسس علم الجبر والحساب، والذي أخذ عنه نظرياته العلمية العرب والغرب على حد سواء.

٨- والعلامة ابن خلدون رحمه الله مؤسس علم الاجتماع وصاحب المقدمة المشهورة.

وغيرهم كثير رحمهم الله جميعاً، أولئك الرجال الذين يَشهدُ لهم الأعداءُ قبل الأصدقاء بالسَّبْقِ والأصالة العلمية، ويرجع إليهم الفضلُ في النهضة العلمية التي قامت عليها الحضارة الحديثة كما يعترف لهم بذلك المنصفون من علماء الغرب اليوم.

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ج٢ ص١٦٠.

(٢) تراث العرب العلمي. وقدري حافظ طوقان.

ألا إنه الإسلام ألا إنها ثمرات لقوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ [العلق]، وقوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝٢١﴾ [الذاريات]، وقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ۝٥٣﴾ [فصلت].

٤- علوم القرآن اصطلاح خاص:

هذا وبعد ازدهار التدوين العلمي ووضع الاصطلاحات والأسماء للفنون العلمية صار اسم (علوم القرآن) اصطلاحاً خاصاً لمباحثَ تتعلقُ بالقرآنِ الكريم مباشرة كجمعِ القرآنِ وترتيبهِ وتدوينه، وكيفية نزوله وأسباب النزول - والمكيّ والمدنيِّ، والناسخِ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه، ومذاهب التفسير وشروطه، والإعجاز ووجوهه، والقصة وأهدافها، ونحو ذلك من الأبحاث الوثيقةِ الصِّلَةِ بكتابِ الله تبارك وتعالى.

تلك نبذة موجزة عن علوم القرآن الكريم، وننتقلُ بعدها إلى صُلْبِ تلك العلوم فنمرُّ عليها بالإشارة والتوضيح حسبما ييسر الله عز وجل وحده المستعان وعليه التوكل، وهو من وراء القصد، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

ثانياً - فضل القرآن الكريم على اللغة العربية:

إنَّ للقرآن الكريم فضلاً كبيراً على اللغة العربية فهو روحها التي تحيا بها ولولاهُ لذابت وانمحت كما ذاب غيرها من اللغات الكثيرة، ويتجلَّى فضلُ القرآن الكريم على اللغة العربية بأمور أهمها ما يلي:

١- وحدة اللغة وتقارب اللهجات:

كانت اللغة العربية قبل نزول القرآن الكريم لهجات مختلفة متباينة ولكلِّ

قبيلةٍ لهجتها الخاصة؛ بل حتى لا تكاد تفهم بعضُ القبائل على بعضها الآخر، فلما جاء القرآن الكريم وبهر الناسَ ببيانه وإشراقه ذابت تلك الفوارقُ وتأثر الجميع بأسلوبِ القرآن واستقامت لهم لغة واضحة هي اللغة العربية الواحدة لغة القرآن الكريم.

٢- القرآن الكريم هو المثل الأعلى للغة العربية:

لقد كانت البلاغة العربية تفقد المثل الأعلى الذي يُتَطَلَّعُ إليه كنموذجٍ يحتذى، فكل قبيلة ترى أن لهجتها هي أفضل وأبلغ من غيرها وهذا مما يساعد على ضمور اللغة وذوبانها، فلما جاء القرآن استقام هذا الأمر واتفق الجميع على أنَّ القرآنَ هو المثل الأعلى لكل بيان، وبمقدارِ القُرْبِ من أسلوبه ولهجته بمقدار ما يكون الكلام بليغاً ومشرقاً.

٣- القرآن الكريم هذّب اللغة وجمّلها:

لقد كانت اللهجات العربية قبل القرآن الكريم مليئة بالكلمات الحوشية الجافية التي ينفرُ منها الطبعُ والذوق السليم، وقد لا يُفْهَمُ بعضُها إلاّ بقاموس خاص، فلما نزل القرآن الكريم بنصاعته ووضوحه ذابت تلك الكلمات ولم يبقَ لها مكانٌ ولا قبولٌ عند الناس. وتتجلى هذه الحقيقة بوضوح عندما نرجع إلى الأدب الجاهلي ونقارنه بالأدب العربي بعد الإسلام، فإنك ستجدُ فرقاً واضحاً بين الفترتين على قرب العهد والزمن بينهما.

٤- العلماء الذين قَعَّدوا اللغة وضبطوها هم أهل القرآن والتفسير والفقه الإسلامي:

إذا لاحظت ما كتب في اللغة العربية وأدبها وقواعدها يظهرُ لكَ أنَّ

معظم الكتاب كانوا من الفقهاء والمُفَسِّرين والقرّاء المتأثرين بالقرآن الكريم ومؤلفاتهم تلك هي التي ضبطت اللغة العربية وحفظتها من الضياع.

إذن: فاللغةُ العربية إنما استقام أمرها واستمر وجودها بفضل القرآن الكريم وتأثيره على العرب، ومن هنا نفهم أنه لا يمكن فَهْمُ هذه اللغة فهماً جيداً إلّا بفهمِ القرآن الكريم واستيعاب معانيه وأساليبه وأسراره البلاغية المعجزة. ونفهم أيضاً: أنَّ الذين يحاولون محاربةَ اللغة العربية الفصحى ويدعون إلى العامية أن هؤلاء يحاربونَ القرآنَ الكريم أصلاً ويريدون أنْ يخرج جيلٌ من المسلمين لا يفقه عن القرآن شيئاً ويسهل عليهم بالتالي تضليله وتشويه تَصَوُّرِه وعقيدته وسلوكه ومَسْخِه بعيداً عن هدي كتاب الله تعالى.

ولكن العلماء المسلمين بالمرصاد لكلِّ مَنْ يُحاول تضليلَ الجيل وإفساده وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر][1].

---

(١) يراجع هذا البحث بتوسع في كتاب «من روائع القرآن» للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي. فهو كتاب قيّم، وقد استفدتُ منه كثيراً أثناء تدريسي له في سورية الحبيبة، ولم يكن بين يدي أثناء كتابة هذا البحث.

المبحث الأول

تعريف القرآن الكريم وكيفية إنزاله

ويتضمن هذا المبحث المسائل التالية:

١- تعريف القرآن الكريم.

٢- ظاهرة الوحي - معناه - أنواعه - كيفياته.

٣- الفرق بين القرآن الكريم والحديث القدسي.

٤- الفرق بين القرآن الكريم والحديث النبوي.

٥- الفرق بين الحديث القدسي والحديث النبوي.

٦- كيفية تنزل القرآن الكريم على رسول الله ﷺ.

٧- الحكمة من نزول القرآن الكريم مفرقاً.

٨- أسئلة ومناقشات حول البحث.

أولاً - تعريف القرآن الكريم:

القرآنُ الكريم هو كلامُ الله عز وجل المُوحَى به إلى محمد ﷺ باللفظ العربيِّ المُتَعَبَّدِ بتلاوتهِ المنقول إلينا بالتواترِ المُعْجز بلفظهِ ومعناه. لعل هذا التعريف هو أجمع ما قاله العلماء في هذا الباب وبملاحظته نرى أنه يتضمن عدة معانٍ أهمها ما يلي:

١- إن القرآن الكريم مُوحىً به من الله تعالى إلى الرسولِ محمد ﷺ وليس لرسولِ الله فيه أي دورٍ إلاّ البيان والتبليغ، وسيأتي تفصيل ذلك.

٢- إن القرآن الكريم كلامٌ عربي فليس فيه إلاّ اللغة العربية وإنْ وُجِدَ فيه كلماتٌ ظاهرها غير عربيٍّ، فقد قال العلماء إنها معربة أي منقولة إلى العربية أو أنها مما تتوافق فيه اللغتان وذلك مثل اسْتبرق - سُنْدُس ونحو ذلك.

٣- إن القرآن الكريم متعبدٌ بتلاوته بمعنى أنَّ مجرد تلاوته فيها ثوابٌ كبير من الله تعالى فقد قال ﷺ: «مَنْ قرأ حرفاً من كتاب الله كان له حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقولُ: ألم حرف، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف»[١].

وهذا الثوابُ بهذه الكيفية خاص بالقرآن الكريم.

٤- التواتر: ومعناه أنَّ القرآنَ الكريم نُقِلَ إلينا من رسول الله ﷺ بالتواتر أي: نقلته الجُموعُ الغفيرة عن مِثْلِها من رسولِ الله إلى يومنا هذا بحيث لا يمكن أن تتفق هذه الجموعُ على الكذب، ولذلك فمَنْ أنكر شيئاً من القرآن الكريم فقد كفرَ وخرج عن الملة الإسلامية.

٥- الإعجاز: فقد تحدى القرآن الكريم العرب أن يأتوا بمثله أو بمثل سورة منه وعجزوا عن ذلك رغم شهرتهم بالبلاغة والفصاحة والبيان بل هو أعز ما يملكون من المفاخر والتراث. هذا وما زال تحدي القرآن الكريم للبشر جميعاً قائماً، وقد عجزَ الجميعُ عن الإتيانِ بمثل شيء من القرآن الكريم سواء في بلاغته وفصاحته وتشريعه ونظمه أو أخباره الغيبية أو إشاراته العلمية. وهذا كله يدلُّ بوضوح على أنَّ هذا الكتاب تنزيلٌ من رَبِّ العالمين وما ينبغي له أنْ يكونَ كلامَ بشر.

---

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

وسيأتي توضيحٌ واسع للإعجاز ووجوهه إن شاء الله.

ثانياً - ظاهرة الوحي:

١- معنى الوحي:

الوحي لغة: الخفاء والسرعة. واصطلاحاً: هو استقبالٌ من الرسولِ لحقيقةٍ غيبية خارجةٍ عن فكره وشعوره النفسي ممثَّلة بجبريل عليه السلام[1].

٢- أنواع الوحي:

للوحي بمعناه اللغوي معانٍ متعددة، وله بمعناه الاصطلاحي الشرعي نوعان أساسيان، وإليك بعض التفصيل لجميع ذلك.

أولاً - الوحي بمعناه اللغوي:

لقد ورد استعمال كلمة الوحي في القرآن الكريم بمعانٍ كثيرة منها:

١- الإلهام الفطري للإنسان:

وذلك كالوحي إلى أم موسى عليها السلام. قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ ﴿٧﴾﴾ [القصص].

٢- الإلهام الغريزي للحيوان:

كالوحي إلى النحل المشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [النحل].

---

(١) انظر كتاب «من روائع القرآن» للدكتور محمد سعيد البوطي - بتصرف.

٣- الإشارة السريعة:

كما حكى الله تعالى عن زكريا عليه السلام في مخاطبته لقومه. قال الله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾ [مريم].

٤- وسوسة الشيطان وتزيينه الشرَّ بنفس الإنسان قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام].

٥- وَحْيُ الله إلى ملائكته بالأمر يفعلوه. قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴿١٢﴾﴾ [الأنفال].

٦- وحي الله إلى أنبيائه ورُسُلِه من البشر. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف][1].

ثانياً - الوحي بمعناه الاصطلاحي الشرعي:

ينقسم الوحي بمعناه الاصطلاحي إلى قسمين أساسيين:

١- وحي الله إلى ملائكته.

٢- وحي الله إلى رسله من البشر. وإليك بيان ذلك.

١- وحي الله إلى ملائكته:

والذي يهمنا بحثُه هنا هو أنْ نعرفَ كيف أوحى اللهُ تعالى بالقرآن الكريم إلى جبريلَ عليه السلام ليبلِّغَهُ بالتالي إلى رسولِ الله ﷺ. وللعلماء في هذا

---

(١) انظر «مباحث في علوم القرآن» لشيخ مناع القطان ص٢٠.

الموضوع مذهبان:

الأول: ذهب جمهورُ أهل السنة والجماعة إلى أنَّ جبريلَ عليه السلام قد سمع القرآنَ الكريم من الله تعالى بكلامه المخصوص وبالكيفية التي يعلمها الله تعالى وحده.

الثاني: وقال بعضهم: إن جبريل عليه السلام قد حفظ القرآنَ الكريم من اللوحِ المحفوظ ثم نقله إلى الرسولِ ﷺ بأمر الله تعالى.

والصوابُ هو المذهبُ الأول ويؤيده ما جاء في الحديث الشريف عن النوَّاس بن سمعان رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «إذا أراد الله أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي أخذت السموات منه رجفة، أو قال رعدة شديدة، خوفاً من الله عز وجل، فإذا سمع ذلك أهلُ السموات صعقوا وخرُّوا لله سُجَّداً، فيكون أول مَنْ يرفع رأسه جبريل عليه السلام فيكلمه اللهُ من وحيه بما أراد، ثم يمر جبريل على الملائكة كلما مَرَّ بسماء سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول جبريل: قال الحق وهو العليُّ الكبير، فيقولون كلهم مثلما قال جبريل فينتهي جبريل بالوحي إلى حيثُ أمرَهُ الله عز وجل»[1].

٢- وحي الله تعالى إلى رسله من البشر:

أما وحي الله تعالى إلى رسله من البشر فهو على نوعين:

النوع الأول: الوحي بغير واسطة وهو قسمان:

أولهما: الرؤيا الصالحة في النوم. فعن عائشةَ رضيَ الله عنها قالت: «أولُ ما بُدِىءَ به رسولُ الله من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا

---

(١) رواه الطبراني.

يرى رؤيا إلاّ جاءت مثل فلق الصبح»[١].

ثانيهما: الكلام الإلهي من وراء حجاب يقظة لا في المنام وهو ثابت لسيدنا موسى عليه السلام قال الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ [النساء] كما ثبتَ تكليمُ الله تعالى لسيدنا محمد ﷺ ليلةَ الإسراء والمعراج بدون واسطةٍ على الأصحِّ من أقوالِ أهل العلم[٢].

النوع الثاني: الوحي إلى الرسل بواسطة الملك ولا يخلو هذا النوع عن إحدى حالتين:

الأولى: أنْ يأتيَ الملَكُ إلى الرسولِ ﷺ مثل صلصلة الجرس والصوت القوي فيثير فيه عواملَ الانتباه فتتهيأ النفس بكل قواها لتلقي أثره.

الثانية: أنْ يتمثَّلَ الملَكُ بصورةِ رجلٍ ويكلم النبي ﷺ، وهذه الحالةُ أخَفُّ على النبيِّ من سابقتها.

قال رسول الله ﷺ: «يأتيني الوحي مثل صلصلة الجرس وهو أشدُّ عليَّ، فيفصم عني وقد وَعَيْتُ ما قالَ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول»[٣].

ويلاحظ في هذا الحديث الشريف أنَّ النبي ﷺ في الحالتين يقول: «وقد وعيت ما يقول» مما يدلُّ على مدى ضَبْطِه للقرآن الكريم من الوحي وعدم خلطه بكلامه العادي حتى إنه عليه الصلاة والسلام كان يكرر القرآن بعد تنزله عليه كثيراً خشية نسيانه حتى نزل عليه قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ

---

(١) متفق عليه.

(٢) انظر كتاب «السفير في علم التفسير» للشيخ عبدالحكيم محمد سرور ص١٤.

(٣) رواه البخاري عن الحارث بن هشام.

﴿لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة].

هذا وقد نزل القرآن الكريم على الرسول ﷺ بواسطة الوحي جبريل عليه السلام، ولم ينزل عليه شيء من القرآن في الرؤيا، ولم يسمع شيئاً منه من الله تعالى بدون واسطة، والله أعلم.

ثالثاً - الفرق بين القرآن الكريم والحديث القدسي:

لقد تقدم معنا تعريف القرآن الكريم أما الحديث القدسي فهو: ما يُضيفه النبيُّ ﷺ إلى الله تعالى على أنه من كلامه تعالى وطريقة رواية الحديث القدسي أن يقال: قال رسول الله فيما يرويه عن الله تعالى. أو يقال: قال الله تعالى فيما يرويه عن الرسول ﷺ. ومن تعريف الحديث القدسي يظهر أنه كلامُ الله تعالى، وبناءً على ذلك فما الفرقُ بينه وبين القرآن الكريم؟

وللإجابة على هذا السؤال أقول: لقد فرق العلماء بين القرآن الكريم والحديث القدسي بفروقٍ عدة أهمها ما يلي:

١- إعجاز القرآن الكريم دون الحديث القدسي.

٢- القرآنُ الكريم لا يُضافُ إلّا إلى الله تعالى، أما الحديث القدسي فقد يُضافُ إلى النبيِّ كما تقدم إذ يقال فيه: قال رسول الله فيما يرويه عن الله، ومِثلُ هذا لا يجوزُ في القرآن الكريم.

٣- التواتر. فالقرآن كله متواتر فهو قَطْعِيُّ الثُّبوتِ، أما الأحاديثُ القدسية فأكثرها آحاد ومنها الصحيح والحسن والضعيف.

٤- القرآن من عند الله لفظاً ومعنىً، أما الحديث القدسي فمعناه من عند الله، ولفظهُ من عند الرسولِ ﷺ على الصحيحِ من أقوالِ العلماء، ولذلك

تجوز روايته بالمعنى بخلاف القرآن الكريم.

٥- القرآن الكريم لا تَصحُّ الصلاةُ إلا به، وهي لا تصح بالحديث القدسي بل تبطل لو قرأ به فيها دون القرآن الكريم.

٦- القطعة من القرآن الكريم تسمى آية بخلاف الحديث القدسي.

٧- القرآن الكريم لا يمسه إلاّ طاهرٌ ولا يتلوه الجُنُبُ بخلافِ الحديث القدسي.

ومن أمثلة الحديث القدسي:

قال ﷺ فيما يرويه عن رَبِّه عز وجل أنه قال: «مَنْ عادى لي ولياً فقد آذنتهُ بالحرب، وما تقَربَّ إليّ عبدي بشيءٍ أحب إليّ مما افترضتُه عليه، ولا يزالُ عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعه الذي يسمعُ به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذ بي لأعيذنه»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: يقول الله تعالى: «أنا عندَ ظَنِّ عبدي بي وأنا معه إذا ذَكَرني فإنْ ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي، وإنْ ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خير منه»(٢).

رابعاً - الفرق بين القرآن الكريم والحديث النبوي:

الحديث لغة ضد القديم. واصطلاحاً: هو ما أضيف إلى النبيِّ ﷺ من قولٍ أو فعلٍ أو وصف أو تقرير.

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه.

أما القول فمثاله قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات»[1]. وأما الفعل: فكتعليمه عليه الصلاة والسلام الصلاة والحج لأصحابه الكرام. وأما الوصف: فكما رُوي أن النبيَّ كان دائم البِشْرِ سهلَ الخلق لين الجانب[2]. والتقرير: هو أن يفعلَ أحدُ الصحابة شيئاً بحضرة النبيِّ ويقره النبيُّ عليه كأكلِ الضَبِّ ونحوه. هذا وإن أدنى تأمل في تعريف القرآن الكريم وتعريف الحديث النبوي ليظهر منه الفرق بينهما كما هو واضح.

خامساً - الفرق بين الحديث القدسي والحديث النبوي:

إنه بالنظر إلى معنى كُلٍّ من الحديثين القدسي والنبوي ليظهر أن بينهما فروقاً كثيرة أهمها ما يلي:

١- الحديث النبوي لا يضاف إلاّ إلى النبي ﷺ لفظاً ومعنىً وإن كان مَرَدُّه للوحي كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم] أما الحديث القدسي فمعناه من عند الله ولفظه من عند الرسول ﷺ على الصحيحِ من أقوالِ أهل العلم، وقد قيل إن لفظه أيضاً من عند الله تعالى.

٢- الأحاديث النبوية يغلب عليها أنها سهلة الألفاظ والمعاني وتتعلق غالباً بالتوجيه والتشريع وبيان مُجْمَلِ القرآن الكريم والحَثّ على الأخلاق الفاضلة الكريمة.

أما الأحاديث القدسية فهي تُوضِّحُ غالباً جلالَ الربوبية وعظمة الألوهية وبأسلوب قوي يحملُ على الخوفِ والإجلال كما يغلب عليها أسلوب

---

(١) متفق عليه.

(٢) انظر «الشفاء» للقاضي عياض ج١ ص١٦٠.

الترغيب والترهيب.

تلك أهم الفروق بين هذين النوعين من الحديث، وقد استطردت فيها بعض الشيء لما لها من صِلةٍ بظاهرةِ الوحي من جهة وللتمييزِ بين مجموعِ ما بَلَغنا عن النبيِّ ﷺ عن ربه تعالى والله أعلم.

سادساً - كيفية تَنَزُّل القرآن الكريم على رسول الله ﷺ:

لقد أنزل الله عز وجل القرآن الكريم لهداية البشر وتعريفهم على طريق السعادة في الدنيا والآخرة. وليكون هذا الكتاب العظيم هو المعجزة الخالدة لرسول الله ﷺ ناطقاً بصدقه متحدياً البشرَ على مَرِّ الدهور أنْ يأتوا بمثله. لذلك فقد كان تَنَزُّلُه على كيفية خاصة تختلفُ عن تنزلاتِ الكتب السماوية الأخرى. فتلك الكتب نزلت جملةً واحدة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، أما القرآنُ الكريم فقد أنزل على مرحلتين:

التنزيل الأول:

أُنزلَ القرآنُ الكريم جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيتِ العِزّة في السماء الدنيا وذلك تعظيماً لشأنه عند الملائكة الكرام.

التنزيل الثاني:

ثم أُنزلَ من بيت العزة إلى رسول الله ﷺ مُنَجَّماً - مُفَرَّقاً - على مَرِّ ثلاثة وعشرين عاماً حسب الوقائع والأحداث.

وقد جاءت بهذا الأخبارُ الصحيحة. فعن عبدالله بن عباس رضي الله عنه قال: أُنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا ليلة القدر ثم أنزل بعد ذلك في عشرين سنة ثم قرأ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان] ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ

تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الإسراء][1]. ولعل قوله: «في عشرين سنة» يشير إلى فترة انقطاع الوحي. وعن ابن عباس رضي الله عنه أيضاً قال: أُنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا وكان بمواقع النجوم، وكان الله ينزله على الرسول ﷺ بعضه في إثرِ بعض[2]. هذا هو المذهبُ الراجح عند العلماء في كيفية نزول القرآن الكريم.

سابعاً - الحكمة من نزول القرآن الكريم مفرقاً:

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الفرقان].

لقد عرفنا فيما سبق أنَّ القرآن الكريم أُنزل على رسول الله ﷺ مفرقاً خلال فترة النبوة كلها ثلاثة وعشرين سنة، ولا شك أن لذلك حِكَماً بالغة كثيرة لها شأنها في ترسيخِ معاني القرآن الكريم في قلوبِ الناس وتأثرهم بها وتغيير مجرى حياتهم وأخلاقهم على ضوء ذلك النور المشرق الجديد.

ونعرض فيما يلي لأهم تلك الحكم والفوائد بإيجاز إن شاء الله.

الحكمة الأولى: تثبيت فؤاد الرسول ﷺ:

لما شرع رسول الله ﷺ بدعوة الناس إلى الإسلام وإلى نبذ الشرك والتخلي عن أخلاق الجاهلية. لما فعل ذلك لاقى من طواغيتِ الشرك جَفوةً وغِلظة وإيذاءً ما بعده إيذاء مع رغبته الصادقة وجهده الأكيد في إبلاغهم الخير الذي يَسْعدونَ به.

وفي هذا الحال كان الوحي ينزل عليه ﷺ بين الفترة والأخرى يُسَلِّيه

---

(١) رواه الحاكم والنسائي والبيهقي.

(٢) رواه الطبراني.

ويثبته ويحمله على الصبر وينقل إليه أخبارَ وقِصصَ إخوانِه من النبيين السابقين عليهم الصلاةُ والسلام ليعرفه أن هذا هو الطريق طريق الرسل والأنبياء من قبله، أذىً واضطهاد، وصبر وعزيمة، قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴿٣٥﴾﴾ [الأحقاف] وقال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود].

ولو نزل القرآنُ الكريم على النبيِّ جملةً واحدة لما وجد هذا الأنس ولا هذا التثبيتَ الدائم.

الحكمة الثانية: تيسير حفظه وفهمه:

لقد أنزل القرآن الكريم على أمةٍ أمية لا عهدَ لها بالكتابة والقراءة، فنزولُه مُفَرَّقاً خيرُ عونٍ لها على حِفْظِه وفهمه وتدبر معانيه، ولو أُنزل جملة واحدة لكان من العسير عليهم حفظه وفهمه.

الحكمة الثالثة: مسايرة الحوادث والتدرج في التشريع:

كان الناس قبل الإسلام يعيشون حياة الفوضى - وخصوصاً الجزيرة العربية - فلا ضوابطَ ولا معايير سليمة يسيرون عليها في تعاملهم مع بعضهم بل هي العادات والتقاليد المتأصِّلة ومحاكاة الآباء والأجداد بلا رشد ولا بصيرة. وأراد الله عز وجل أنْ يبني هذه الأمة بناءً صالحاً وفق السنن الإلهية لعمارة هذا الكون، وليس من السهل على الناس أن يُسْلِمُوا قِيادهم طفرة لهذا الدين ويتخلوا عن كل ما ورثوه من تقاليد الآباء والأجداد.

لذلك فقد أخذهم القرآنُ الكريم بالحِكمة والتدرج في الأحكام فكان أول ما عالجه القرآن الكريم موضوع العقيدة الصحيحة عن الله واليوم الآخر وعن الحياة والكون والإنسان ودوره ومهمته، وبذلك استأصل القرآن

الكريم الشركَ من النفوس وغرس فيها الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والمرسلين. ثم تدرَّج التشريعُ بالأمة وعند كل حادثة ينزل حكمها ليكون أوقع في النفوس وأبقى في الأذهان وليلمس الناس صلاحية هذا التشريع وعدالته بشكلٍ عملي واقعي.

ويوضح هذه الحكمة ما روته أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: «إنما نزل أول ما نزل من القرآن سورة من المفصل فيها ذِكْرُ الجنة والنار حتى إذا ثاب الناسُ إلى الإسلام نزلَ الحلالُ والحرام ولو نزل أول شيء «لا تشربوا الخمر» لقالوا: لا نَدَعُ الخمر أبداً ولو نزل «لا تزنوا» لقالوا: لا ندع الزنا أبداً»[1].

الحكمة الرابعة: الإعجاز وإقامة الحجة على الناس:

لقد استمر نزول القرآن الكريم على رسول الله ﷺ ثلاثة وعشرين عاماً تتنزل الآيات عقب الآيات، ومع ذلك يتلوه الناسُ من يوم نزولهِ إلى الآن فيجدونه على غايةِ الإحكام والإتقان وترابطِ المعاني ورصانة الأسلوب مما لا يستطيعُ بشرٌ أن يأتي بمثله أو بمثل سورة منه، وقد تحدى القرآن الكريم العربَ بذلك فعجزوا وما زالوا عاجزين.

ولو أن هذا القرآن كلام بشر واستغرق جمعه كل هذا الزمن وبالشكل الذي نزل فيه وجمع لكان فيه من الركاكة والتفكك وعدم التنسيق الشيء الكثير وصدق الله العظيم القائل: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء].

---

(١) رواه البخاري.

ثامناً - أسئلة ومناقشات حول المبحث الأول:

١- هاتِ لمحةً موجزة عن علوم القرآن الكريم في عهد الصحابة رضي الله عنهم.

٢- تكلم عن علوم القرآن الكريم في عصر التدوين، وماذا جَدَّ على هذا الفن.

٣- تكلم عن فضل القرآن الكريم على العلوم الإسلامية والكونية.

٤- ما هي العلوم التي تدخل تحت مصطلح علوم القرآن بعد عصر التدوين.

٥- وَضِّح أوجه فضل القرآن الكريم على اللغة العربية باختصار.

٦- عرف القرآن الكريم واشرح أَهَمِّ الأُسس التي يتضمنها التعريف باختصار.

٧- عَرِّف الوحيَ لغةً واصطلاحاً.

٨- اذكر خمسة معان لكلمة الوحي بمعناها اللغوي مع التمثيل لكلٍّ منها.

٩- تكلم عن كيفية تلقي جبريل عليه السلام للقرآن الكريم من الله تعالى مع الأدلة.

١٠- ما هي أنواع وحي الله إلى رسله من البشر؟ وبأيٍّ منها نزل القرآن الكريم.

١١- عرف الحديث القدسي واذكر طرق روايته.

١٢- اذكر خمسة فروق أساسية بين الحديث القدسي والقرآن الكريم.

١٣- هل تحفظ شيئاً من الأحاديث القدسية؟ اكتب واحداً منها.

١٤- عَرِّف الحديث لغة واصطلاحاً، واذكر أنواع الحديث النبوي.

١٥- ما هي أهم الفروق بين الحديث القدسي والحديث النبوي؟

١٦- تكلم عن كيفية نزول القرآن الكريم على رسول الله ﷺ مع الأدلة.

١٧- عَدِّد الحِكَم الواردة لنزول القرآن الكريم مُفَرَّقاً واشرح اثنتين منها بالتفصيل.

المبحث الثاني

أسباب النزول

ونتكلم في هذا المبحث على المسائل التالية:

١- معنى أسباب النزول.
٢- بيان الآيات التي لها سبب نزول من غيرها.
٣- فوائد معرفة أسباب النزول.
٤- طريقة معرفة أسباب النزول.
٥- العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.
٦- أول ما نزل وآخر ما نزل من القرآن الكريم.
٧- أسئلة ومناقشات حول المبحث.

أولاً - معنى أسباب النزول:

لقد أنزل اللهُ تعالى القرآنَ الكريم لهدايةِ الناس إلى الغاية التي خُلقوا من أجلها وليشرح لهم أُسسَ الحياة الفاضلة الكريمة التي تقومُ على أساس الإيمان بالله ورسالاته واليوم الآخر. وقد تعرض القرآن الكريم لكثير من أنباء الماضي ووقائع الحاضر وأخبار المستقبل بما يبعث على العبرة والعظة لكل من يتأمل آياته وكلماته.

وكثير من آيات القرآن الكريم ما كانت تنزل لسبب يقتضي نزولها فما معنى أسباب النزول؟

إنه بملاحظة الأسباب التي نزلت الآياتُ بشأنها كما نقل ذلك عن رسول الله ﷺ وصحابته الكرام يتبين لنا معنى سبب النزول وأنه «ما نزل قرآن بشأنٍ وقت وقوعه كحادثة أو سؤال» وسيتوضح ذلك بمتابعة الفقرات التالية إن شاء الله.

ثانياً - بيان الآيات التي لها سببُ نزول من غيرها:

إن المتتبع لآيات القرآن الكريم والمتأمل فيها يجد أن أكثرها كان ينزل ابتداء ودون سببٍ مباشر خصوصاً ما يتعلق بقضايا الإيمان بالله واليوم الآخر، وقضايا التوحيد، وصفات الجنة والنار، وأخبار الأمم السابقة، وما جرى لهم مع أنبيائهم عليهم الصلاة والسلام، ومثل هذه الآيات إنما تُركِّزُ على المقصد الأساسي من نزول القرآن الكريم، وهو موضوع الهداية، هدايةِ الخَلْقِ إلى الخالق وتصحيح تصورهم عنه سبحانه وتعالى ورسم الطَّريق الموصل إلى رضوانه عز وجل.

وهناك جانبٌ آخر من كتاب الله تعالى هو جانب التشريع والحلال والحرام. جانب النظم والمبادىء التي تحكم سير المجتمع الإسلامي. هذا الجانب كثير من آياته نزلت بسببٍ مباشر كحادثة وقعت أو سؤال ورد من أصحاب النبيّ ﷺ. قال الإمام الجعبري رحمه الله: نزل القرآن الكريم على قسمين قسم نزل ابتداء وقسم نزل عقب حادثة أو سؤال[1].

ثالثاً - فوائد معرفة أسباب النزول:

لمعرفة أسباب النزول فوائد نذكر أهمها فيما يلي:

١- بيان الحكمة التي دعت إلى تشريعِ حكمٍ من الأحكام الشرعية.

---

(١) انظر «الإتقان في علوم القرآن» للإمام السيوطي ج١ ص٢٨.

٢- من خلال سبب النزول ندركُ مراعاةَ التشريعِ الإسلامي لمصالحِ العباد العامة عند معالجة الحوادث وذلك رحمة بالأمة.

٣- معرفة أسباب النزول خيرُ معينٍ على فهم معاني القرآن الكريم. قال الإمام الواحدي رحمه الله: لا يمكن معرفةُ تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: معرفةُ سبب النزول يُعينُ على فهم الآية فإنَّ العلمَ بالسبب يورثُ العلمَ بالمسبب[١]. وإليك نماذج من الأمثلة التي تتضح منها هذه الفوائد المذكورة.

١- قال الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾ [البقرة].

نزلت هذه الآيةُ الكريمة في نَفَرٍ من أصحاب رسول الله ﷺ صلوا مع النبي في ليلة مظلمة ولم يدروا كيف القبلة وصلى كُلٌّ منهم على حاله فلم يضيع الله لأحدٍ منهم عمله، ونزلت الآية تبينُ رِضى الله عن صلاتهم في هذه الليلة[٢].

ولولا معرفة هذا السبب لأباح الناسُ لأنفسهم أنْ يَتَّجِهُوا إلى أيِّ جهةٍ في الصلاة عملاً بظاهر الآية.

٢- قال الله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴿٩٣﴾ ﴾ [المائدة].

---

(١) «الإتقان» للسيوطي ج١ ص٢٨ و«مباحث في علوم القرآن» للدكتور مناع القطان ص٨٠.

(٢) أخرجه الترمذي، وانظر «جامع الأصول» لابن الأثير الجزري ج٢ ص٨.

سبب نزول هذه الآية ما قاله الحسنُ وغيره: لَمَّا نزل تحريمُ الخمر قالوا: كيف بإخواننا الذين ماتوا وهي في بطونهم وقد أخبرنا الله بأنها رِجْسٌ، فنزلت الآية[1].

لقد أجابت الآية الكريمة على تساؤل الصحابة رضي الله عنهم عن حال إخوانهم الذين ماتوا قبل تحريم الخمر وظنوا أن الله سيحاسبهم على شربها، فبيَّنَ اللهُ لهم أن أولئك الذين آمنوا وعملوا الصالحات لا جناحَ عليهم إذ فعلوا ما فعلوه قبل النهي عن شربِ الخمر. ولولا معرفة هذا السبب لأمكن لبعض الناس أن يفهموا حِلَّ الخمر وغيرها من المحرمات من هذه الآية.

رابعاً - العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب:

ذهب جمهور العلماء إلى أنَّ العبرةَ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. ومعنى ذلك أن تلك الآيات التي نزلت لأسبابٍ معينة ووقائع خاصة ومحددة، هذه الآيات ليست مقتصرةً على سببِ نزولها، بل العبرةُ بعموم لفظها لا بخصوص سببها.

ولحكمةٍ عظيمة نجد الآيات التي لها سبب تعبر بالألفاظ العامة من غير تحديد لجزئيات ومسميات السبب الذي نزلت فيه وذلك لتبقى مناراً للعلماء والمجتهدين فيطبقوها على كُلِّ واقعةٍ مُماثلة. وهذا الذي سار عليه الصحابةُ والأئمة المجتهدون رحمهم الله فعَدَّوا حكم الآيات إلى غير سببها كالظهار واللعان والمواريث وغيرها من آيات الأحكام الشرعية.

---

(١) «جامع الأصول» لابن الأثير ج٢ ص١٢٠.

خامساً - طرق معرفة أسباب النزول:

يعتمد العلماء في معرفة أسباب النزول على الرواية الصحيحة عن النبيِّ ﷺ أو عن أحد الصحابة رضي الله عنهم.

وقد قرر العلماءُ رحمهم الله أنَّ كلامَ الأصحاب رضي الله عنهم بهذا الخصوص ليس من قبيل الرأي والاجتهاد بل من قبيل الرواية وبالتالي فله حكمُ الحديثِ المرفوع إلى النبيِّ ﷺ قال الواحدي: لا يحل القولُ في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع عمن شاهدوا التنزيلَ ووقفوا على الأسباب. وذهب الإمام السيوطي إلى أنَّ قولَ التابعين إذا كان صريحاً في سبب النزول فإنه يُقبَلُ ويكون مرسلاً إذا صَحَّ سَنَدُه وكان من أئمة التفسير الذين أخذوا عن الصحابة كمجاهد وسعيد بن جبير واعتضد بمرسل آخر(١).

سادساً - أول ما نزل وآخر ما نزل من القرآن الكريم:

١- أول ما نزل من القرآن الكريم:

أَصحُّ الأقوال عند العلماء أن أول ما نزل من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق].

وورد أن أول ما نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ [المدثر] إلى آخر السورة.

ولكل من هذين القولين سندٌ صحيح من السنة النبوية وقد جمع العلماء

---

(١) انظر «الإتقان» للسيوطي ج١ ص٣١.

بينهما بأن أول ما نزل على الإطلاق ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ وأول سورة نزلت كاملةً سورة المُدَّثر فإنها نزلتْ قبل تمام سورة العلَق، وهذا جمعٌ حَسَنٌ بين الأقوال.

٢- آخر ما نزل من القرآن الكريم:

اختلفت أقوال العلماء ومذاهبهم في تحديد آخر ما نزل من القرآن الكريم وذلك لأنه لم يثبت عن النبيِّ ﷺ شيء في هذا الأمر، وكلُّ قولٍ بهذا الخصوص إنما هو اجتهاد من قائله، أو إنه آخر ما سمعه من النبي ﷺ من القرآن الكريم.

ومما ورد في ذلك:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: آخر آية نزلت آية الربا. والمراد بها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾ [البقرة][1].

وعن ابن عباس أيضاً وسعيد بن جبير رضي الله عنهما: آخر شيء نزل من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة][2] ولعل هذا هو الأرجح عند أهل العلم، والله أعلم.

وهناك أقوال أخرى لا تعدو أنْ تكونَ اجتهاداتٍ من قائليها ولكلٍّ وجهة هو موليها.

---

(١) والحديث رواه البخاري.

(٢) والحديث رواه النسائي وغيره.

سابعاً - أسئلة ومناقشات حول سبب النزول:

١- ما هو تعريف سبب النزول؟

٢- هل كلُّ آياتِ القرآن الكريم لها أسبابُ نزول أم لا؟

٣- اذكر أهم فوائد معرفة أسباب النزول مع التمثيل لما تقول.

٤- هل العبرة بعموم اللفظ أم بخصوص السبب؟ وَضِّحْ ذلك.

٥- ما هو طريق معرفة أسباب النزول؟ وهل تُعرف بالرأي والاجتهاد.

٦- ما هو أول ما نزل من القرآن الكريم؟ وضح ذلك.

٧- لماذا اختلف العلماء في آخر ما نزل من القرآن الكريم؟ وما هي أشهرُ الأقوال في هذا الباب؟

المبحث الثالث

المكي والمدني

ويتضمن هذا المبحث المسائل التالية:

١- صفات المجتمع المكي والمدني عند نزول القرآن الكريم.

٢- تعريف المكي والمدني.

٣- خصائص القرآن المكي.

٤- خصائص القرآن المدني.

٥- منهج العلماء في معرفة المكي والمدني من القرآن الكريم.

٦- فوائد العلم بالمكي والمدني من القرآن الكريم.

٧- أسئلة ومناقشات حول البحث.

أولاً - صفات المجتمع المكي والمدني عند نزول القرآن الكريم:

١- صفات المجتمع المكي:

إن أهم ما يتميز به مجتمع مكةَ المكرمة عندما نزل القرآنُ الكريم على الرسولِ ﷺ أنه **كان مجتمعاً جاهلياً عنيداً**.

لقد قضى هذا المجتمع حقبةً من الزمن في عبادة الأوثان والتقرب إليها كآلهةٍ يعتقدون فيها الضرر والنفع. وقد استمرأت قلوبهم جهالات من

الأخلاق تسود مجتمعهم القبلي الجاهلي بعيداً عن العلم والتقدم الحضاري الإنساني.

وقد كان عندهم بقيةٌ من أخلاق الحنيفية مِلَّة إبراهيمَ الخليل عليه الصلاة والسلام كاحترامِ البيتِ الحرام والأشهر الحُرُمِ والوفاء والنجدة والكرم إلا أنهم في طريقهم للتخلي عنها ونبذها شيئاً فشيئاً. هذا وغيره جعلهم يقفون في وجه الرسول ﷺ وقفة شديدة منكرة عنيدة. وحاولوا جهدهم ألا ينتشر هذا الدين الجديد وخصوصاً أهل الوجاهة والزعامة منهم الذين يحرصون على مناصبهم وبقائها غير منازعين عليها.

هذا هو لونُ الكثرةِ الكاثرةِ من مجتمع مكة المكرمة عند نزول القرآن الكريم. وهناك قِلَّةٌ مُستضعَفة - غالباً - ممن آمن بالله ورسوله.

وقد كان القرآنُ الكريم يواجه الكثرةَ الجاهلة العنيدة المشركة ويوجّه القلة المؤمنة المستضعفة ويحملهم على الصبرِ والثباتِ ويقص عليهم قصص الأنبياء السابقين وأممهم ليأنسوا بها ويستمدوا منها الصبر والتحمل والاستمرار على هذا الدين.

٢- صفات المجتمع المدني:

أما مجتمع المدينة المنورة فقد كان قائماً على أساس الإيمان بالله تعالى والانقياد لتعاليمه وتوجيهاته، وقد نذر نفسه لنصرةِ الحقِّ والذود عنه والجهاد في سبيله. كان مجتمعاً تشربت شرايينه حُبَّ الله ورسوله ﷺ، وكل همهم أن يأتيهم أمرٌ من الله ورسوله ﷺ في قضية أياً كانت ليتسابقوا في تنفيذه والتقرب إلى مرضاة الله تعالى بذلك.

وإلى جانب هذه الكثرة المؤمنة كان بعض المنافقين مِمَّنْ حالَ الإسلامُ

بينهم وبين رغباتهم وشهواتهم ووجاهاتهم التي عاشوا عليها ولكنهم رأوا هذا الإسلامَ قوياً فخضعوا له ظاهراً وتستروا بلباسه وأضمروا له الكيد وتربصوا به الدوائر في الخفاء.

وصنف ثالث في المدينة وحولها وهم طوائف اليهود الذين كانوا يسرحون ويمرحون قبل الإسلام ويثيرون الفتن والحروب بين طوائف العرب وقبائلهم المتعددة على المبدأ اليهودي القديم: فَرِّقْ تَسُدْ.

فلما جاء الإسلام واجتمع الناس عليه وظهرت كلمته وارتفعت رايته وخاض معارك ضد الجاهلية رجع منها ظافراً منتصراً. لما رأى اليهود ذلك خنسوا وقبعوا مذهولين وتظاهروا بعقد تحالفات مع رسول الله ﷺ وعهود وذمم على حُسْنِ الجوار وأضمروا الكيد والشر وتحركوا في الخفاء للقضاء على هذا النور الجديد. تلك هي أبرز سمات المجتمع المدني الذي عاصر نزول القرآن الكريم على رسول الله ﷺ.

٣- أثر هذا الاختلاف بين صفات المجتمعَيْن على أسلوب القرآن الكريم وموضوعاته:

بعد أنْ عرفنا السمات العامة لكلٍّ من المجتمع المكي والمدني، فمن بدهيات الأمور أن يكون هناك اختلافٌ بين الموضوعات القرآنية التي تواجه كلاًّ منهما وبين خصائص الأسلوب القرآني الذي يخاطب هذه النوعيات المختلفة من الناس، وهذا ما سنوضحه في الفقرات اللاحقة إن شاء الله.

هذا وقد اعتنى العلماء عنايةً فائقة بهذا الكتاب العظيم فعرفوا وسجلوا دقائق غريبة عنه، فقد أرّخوا للمكيِّ والمدنيِّ والليليِّ والنهاري والصيفي والشتوي والحضري والسفريِّ من آياتِ القرآن الكريم وذلك ما لم يحظ به أي كتاب سماوي آخر، بل ولا أي فكرٍ إنسانيّ قديم أو حديث، ولا شكَّ

أنَّ هذا نوع من مظاهر إعجاز هذا الكتاب العظيم.

ثانياً - تعريف المكي والمدني:

للعلماء ثلاثة أقوال في تعريف المكي والمدني:

الأول: أنَّ المكيَّ ما نزل قبلَ الهجرة، والمدني ما نزل بعدها ولو في مكة أو غيرها، فالاعتبارُ في هذا القول للزمن وحده. وهو الراجح عند العلماء.

الثاني: أن ما خُوطِبَ به أهلُ مكة فهو مكيٌّ، وما خوطب به أهل المدينة فهو مدني، والاعتبار هنا للموضوع وحده.

الثالث: أن المكي ما نزل بمكة قبل الهجرة أو بعدها، والمدني ما نزل بالمدينة، والاعتبار هنا للمكان وحده[١].

ثالثاً - خصائص القرآن المكي:

تمتاز السور والآيات المكية بخصائص تتفق مع سمات المرحلة التي أشرت إليها آنفاً، ومن أهم هذه الخصائص ما يلي:

١- القرآن المكي يعالجُ موضوعَ العقيدة ويركز على قضية التوحيد لله سبحانه وتعالى وكذلك الإيمان باليوم الآخر ومصير العباد فيه وأوصاف الجنة والنار. وذلك لأن صلاحَ العقيدةِ وصفاءها هو الأساسُ في التربية والبناء للمجتمع المسلم الصادق.

٢- الحث على التمسك بالأخلاق الفاضلة والاستقامة على الخير. وهذا

---

(١) انظر كتاب «من روائع القرآن» للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي.

ثمرة من ثمار العقيدة الصحيحة.

٣- مجادلة المشركين وتسفيه أحلامهم وعقائدهم الفاسدة.

٤- يغلب على الآيات المكية القِصَرُ وقوةُ العبارة.

٥- تكثر في الآيات المكية كلمة كلا التي للردع والزجر.

٦- تفتتح السور المكية كثيراً بالأحرف المقطعة، بل كل السور المفتتحة بها مكية إلا البقرة وآل عمران.

٧- يكثرُ في الآيات المكية الخطاب بيا أيها الناس، وليس فيها يا أيها الذين آمنوا غالباً.

٨- تكثر في الآيات المكية سجدات التلاوة.

٩- وفي السور المكية أكثر قصص النبيين والأمم السابقة سوى ما يتعلق بتصحيح التصور عن بعض الأنبياء مما كان يُشَوِّههُ اليهودُ، فقد نزل ذلك بالمدينة كحياة عيسى عليه السلام وأطرافاً من حياة إبراهيم عليه الصلاة والسلام وموسى عليه السلام كذلك.

١٠- يكثر في الآيات المكية القَسَم، وهو من عادات وأساليب العرب عند تأكيد أمر هام، والقرآن الكريم يخاطبهم بما أَلِفُوا من أساليب الخطاب ليؤكد لهم حقائق وأسس الدين الذي يدعوهم إليه رسولُ الله ﷺ.

رابعاً - خصائص القرآن المدني:

وكذلك للمرحلة المدنية صفاتها التي رُوعيت بنزولِ القرآن الكريم ملائماً لها، ومن أهم خصائص الآيات والسور المدنية ما يلي:

١- آيات الجهاد:

لقد صبر المسلمون على الأذى في الله كثيراً واليوم بعد هجرتهم قد هيأ الله لهم الأرض الصُّلبةَ والنُّصْرةَ الصادقة وقد آنَ لهم أنْ يدفعوا عنهم الأذى الذي يريد فتنتهم عن دينهم، وهنا نزلت آياتُ الإذن بالجهاد والقتال في سبيل الله ثم نزل الأمر به وإيجابه على الناس، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة] ومن هذا نعلم أنَّ أيَّ آياتٍ يُذْكَرُ فيها القتالُ والجهاد فهي مدنية.

٢- ذكر النفاق والمنافقين:

وكذلك السور المدنية تذكر المنافقين وأحوالهم وصفاتهم وتخاذلهم في المواقف الحرجة والشديدة. وقد تقدم أنَّ النفاق بدأ في المدينة يوم ظهر الإسلام وقوي عُودُه ولم يكن بمكة قَبْلُ نفاق ولا منافقون وكان الناس إما مؤمن مبتلى أو كافر معتدي.

٣- التشريع والنظم العامة:

فكل سورةٍ فيها تفاصيل الأحكام الشرعية من الحدود والفرائض والحقوق المدنية والاقتصادية والنظم السياسية والإدارية والدولية وغير ذلك فهي سورةٌ مدنية لأنَّ العهد المدني هو بدايةُ تشكيلِ الدولة الإسلامية من الناحية الواقعية ويومها بدأت حاجة المجتمع إلى النظم والتشريعات فكان ذلك.

٤- مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن:

وبالمدينة عايش المسلمون أهلَ الكتاب عن قُرْبٍ ورأوا غُلُوَّهم وتحريفَهم لكتبهم السماوية وافتئاتهم على أنبيائهم عليهم الصلاة والسلام

فكان القرآن الكريم حينئذ يتنزل بدعوةِ أهلِ الكتاب إلى ترك الغلو وإلى تصحيح الانحراف العقدي والسلوكي الذي كانوا عليه ويأمر المسلمينَ أنْ يجادلوهم بالتي هي أحسن.

٥- آيات طويلة هادئة:

كما يغلبُ على الآيات المدنية والسور المدنية أنها طويلة وأسلوبها هادىء، ولعل ذلك لأنها تُخاطب المؤمنين الصادقين، ولذا نجد في الآيات المدنية صيغة الخطاب بيا أيها الذين آمنوا..[١].

وأخيراً أقول: إن أسلوب القرآن الكريم بنوعيه المكي والمدني يبقى هو الأسلوب المعجز الذي تميَّزَ عن أساليبِ العرب، بل البشر جميعاً، وبلغ الذروة في الجمال والروعة والإشراق.

خامساً - منهج العلماء لمعرفة المكي والمدني من القرآن الكريم:

يعتمد العلماء في معرفة المكي والمدني من القرآن الكريم منهجين اثنين:

الأول: منهج اجتهادي استنباطي.

وهو بالاعتماد على كُلٍّ من خصائص المرحلتين الآنفتي الذكر.

الثاني: منهج سماعي نقلي.

---

(١) انظر «مباحث في علوم القرآن» للقطان ص٦٣ و«مباحث في علوم القرآن» للدكتور صبحي الصالح ص١٨٢. و«السفير في أصول التفسير» للشيخ عبدالحكيم محمد سرور ص١٨.

ويرجع هذا المنهج إلى النقلِ عن الصحابة رضي الله عنهم، أولئك الذين عاصروا الوحيَ وشهدوا التنزيل والحوادث والأسباب والأماكن التي نزل فيها القرآن الكريم.

قال القاضي الباقلاني: إنما يرجع في معرفة المكيِّ والمدني لحفظ الصحابةِ والتابعين، ولم يرد عن رسولِ الله ﷺ في ذلك قولٌ لأنه لم يؤمر به، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: والله الذي لا إله غيره ما نزلت سورةٌ من كتابِ الله إلا وأنا أعلمُ فيما أنزلت، ولو أعلمُ أحداً أعلم بكتاب الله مني تَبْلُغه الإبلُ لركبتُ إليه[١].

هذا وقد حفلت كتب التفسير بالآثار الصحيحة في هذا الشأن وقد أورد الإمام السيوطي رحمه الله في كتابه «الإتقان في علوم القرآن» السور المدنية والمكية والسور التي اختلف فيها العلماءُ وفَصَّلَ ذلك تفصيلاً متقناً فليرجع إليه من أراد التوسع في هذا الموضوع.

سادساً - فوائد العلم بالمكي والمدني من القرآن الكريم:

إن للعلم بالمكي والمدني من القرآن الكريم فوائد هامة منها:

١- معرفة طريقة القرآن الكريم التي سلكها في تنشئة الأمة الإسلامية والخطوات التي خطاها في إقامة الدولة الإسلامية ليكون في ذلك عبرة للدعاة وقادة الأمة الإسلامية الذين يتطلعون إلى استئناف الحياة الإسلامية من جديد.

٢- الاستعانة بذلك على تفسير القرآن الكريم على الوجه الأكمل والأفضل لأن مواقع النزول مع أسبابه تُوضِّحُ المُرادَ من الآيات.

---

(١) رواه البخاري.

٣- تذوق أساليب القرآن الكريم والاستفادة منها في أساليب الدعوة إلى الله، فإن مراعاة مقتضى الحال من أخص معاني البلاغة ولكل مرحلة من مراحل الدعوة الإسلامية موضوعاتها الخاصة وأساليب الخطاب المتميزة فلكل مقامٍ مقال، ويبدو هذا واضحاً جلياً في أساليب القرآن الكريم المختلفة بين مرحلتي مكة والمدينة.

٤- التعرف على مدى الخدمة الفائقة التي حظي بها القرآنُ الكريم من قبل المسلمين منذ عصر الصحابة رضي الله عنهم إلى يومنا هذا لنقتديَ بهم في ذلك ونقوم بما للقرآن علينا من حق تعلمه وتعليمه والكشف عن أسراره وحكمه وأحكامه(١).

سابعاً - أسئلة ومناقشات حول المكي والمدني:

١- تكلم بإيجاز عن صفات المجتمع المكي عند نزول القرآن الكريم.

٢- تكلم بإيجاز عن صفات المجتمع المدني عند نزول القرآن الكريم.

٣- ما هو تعريف المكي والمدني؟ واذكر مذاهب العلماء في ذلك مع بيان القول الراجح.

٤- تكلم عن خصائص القرآن المكي واذكر ستة منها.

٥- ما هي خصائص القرآن المدني؟ اذكرها بوضوح وإيجاز.

٦- تكلم عن مناهج العلماء لمعرفة المكي والمدني من القرآن الكريم.

٧- ما هي الفائدة من معرفة المكي والمدني؟ وضح ذلك.

---

(١) انظر «مباحث في علوم القرآن» للقطان ص٥٩.

المبحث الرابع

جمع القرآن الكريم وترتيبه

ويتضمن هذا المبحث الكلام على المسائل التالية:

١- جمع القرآن الكريم حفظاً في الصدور في عصر الرسول ﷺ.

٢- جمع القرآن الكريم كتابة في عصر الرسول ﷺ.

٣- جمع القرآن الكريم كتابة في عهد الصدِّيق رضي الله عنه.

٤- منهج زيد بن ثابت رضي الله عنه في جمع القرآن الكريم وكتابته.

٥- خصائص المصحف الذي جمعه الصديق رضي الله عنه.

٦- جمع القرآن الكريم في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه ومنهجه في ذلك.

٧- الفرق بين جمع الصِّديق وعثمان رضي الله عنهما للقرآن الكريم.

٨- لمحة عن المراحل التحسينية التي مرت على المصاحف العثمانية.

٩- ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره.

١٠- تقسيم العلماء لسور القرآن الكريم.

١١- كلمات القرآن الكريم وحروفه.

١٢- أسئلة ومناقشات حول المبحث.

أولاً - جمع القرآن الكريم حفظاً في الصدور في عصر الرسول ﷺ:

لقد نزل القرآن الكريم على الرسول ﷺ وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب فكان عليه الصلاة والسلام يسارع في حفظه واستظهاره خشية التفلت والنسيان فيحفظه ويبلِّغُه لأصحابه رضي الله عنهم.

فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان رسولُ الله ﷺ يعالج من التنزيل شِدَّةً فكان يحرك به لسانه وشفتيه مخافة أن ينفلت منه يريد أن يحفظه فأنزل الله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ [القيامة] قال: يقول: إن علينا أن نجمعه في صدرك ثم نقرؤه، فإذا قرأناه يقول: إذا أنزلناه عليك فاتَّبع قرآنه فاستمعْ له وأنصتْ ثم إنَّ علينا بيانه أن نُبيِّنهُ بلسانك، وفي لفظٍ: علينا أن نقرأه. فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل أطرق. وفي لفظ: استمع فإذا ذهب قرأه كما وعد الله[1]. ونعلم من هذا أن رسول الله ﷺ كان أول الحفاظ للقرآن الكريم.

وكان الصحابة رضي الله عنهم يأخذونه عنه ويتسابقون في حفظه، بل كانوا يتفاضلون فيما بينهم بالأكثر حفظاً للقرآن الكريم حتى بلغ بهم الشَّغَفُ به أنْ جعلوه مهوراً لنسائهم، فكانت المرأةُ تتزوج الرجل على أن يعلمها ما معه من القرآن أو على آيات أو سورة منه.

واستمر بهم الحال على هذا حتى كثر الحُفَّاظُ فيهم، وكان النبي ﷺ يُشَجِّعهم على ذلك ويختارُ لهم مَنْ يعلمهم القرآن الكريم؛ فعن عبادة بن

---

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

الصامت رضي الله عنه قال: كان الرجل إذا هاجر دفعه النبيُّ ﷺ إلى رجل منا يعلمه القرآن وكان يُسْمَعُ لمسجد رسول الله ضجةٌ بتلاوةِ القرآن حتى أمرهم النبي أن يخفضوا أصواتهم لئلا يتغالطوا[١].

أشهر الحفاظ من الصحابة الكرام:

كان أشهر الحفاظ من الصحابة رضي الله عنهم عبدالله بن مسعود - وعثمان بن عفان - وعلي بن أبي طالب، وأبيّ بن كعب - وزيد بن ثابت - وأبو موسى الأشعري - وأبو الدرداء، رضي الله عنهم جميعاً. وقد كثر الحفاظ حتى إن الذين قتلوا في بئر معونة كان يقال لهم القرّاء وكان عددهم سبعين صحابياً. وقد قال الإمام القرطبي رحمه الله: قتل يوم اليمامة سبعون من القُرَّاء وقتل في عهد النبي ﷺ ببئر معونة مثل هذا العدد[٢]. وأما ما ورد من روايات تحدد عدد الحَفَظة في عهد النبي ﷺ بأربعة أو سبعة فقط فقد فسره الإمام الذهبي رحمه الله تعالى حيث ذكر أن هذا العدد من القراء هم الذين عَرَضُوه على النبيِّ واتصلت بنا أسانيدهم، وأما مَنْ جمعه منهم ولم يتصل بنا سنده فكثير[٣].

ثانياً - جمع القرآن الكريم كتابةً في عهد الرسول ﷺ:

لقد اتخذ رسول الله ﷺ كتّاباً للوحي وكان كلما أنزلت آية من كتاب الله أو آيات يأمرهم بكتابتها ويشير لهم عن موضعها من آية كذا وسورة كذا، ومن كتّاب الوحي المشهورين علي بن أبي طالب ومعاوية وأبي بن كعب

---

(١) انظر «مناهل العرفان» للزرقاني ج١ ص٣٣٤.

(٢) «مباحث في علوم القرآن» للقطان ص١٢١.

(٣) انظر كتاب «معرفة القراء الكبار على الطبقات والاعصار» للإمام الذهبي رحمه الله ج١ ص٤٢.

وزيد بن ثابت رضي الله عنهم، فعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: كنّا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع[1].

ومعنى نؤلف القرآن في كلام زيد أي: نَجْمَعُه ونرتبه.

هذا ولم يجمع القرآن الكريم ويرتب بين دفتين في عصر النبي ﷺ كما جمع بعد ذلك لأسبابٍ أجملها الزرقاني رحمه الله بما يلي:

١- لم توجد في حياة النبي ﷺ الدواعي التي وجدت في عهد الصديق وعثمان رضي الله عنهما كما سيأتي إيضاحه.

٢- كان النبي ﷺ بصدد أن يأتي الوحي بنسخ بعض الآيات.

٣- إن القرآن الكريم نزل مفرقاً على ثلاثة وعشرين عاماً.

٤- ترتيب آيات وسور القرآن الكريم ليست على ترتيب نزوله كما سيأتي ولو جمع القرآن الكريم مع كل هذا لكان عرضةً للتغييرِ والتبديل، وفي هذا من العسر الشيء الكثير خصوصاً وأدوات الكتابة ليست متيسرة[2].

ثالثاً - جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر رضي الله عنه:

بعد وفاة رسول الله ﷺ انتشر الصحابةُ رضي الله عنهم مجاهدين وفاتحين وحدث في معركة اليمامة أن استشهد سبعون صحابياً من حَفَظَةِ القرآن الكريم كما تقدم، وهنا فزع عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه مس أن يستحر القتلُ في القرّاء ويضيع القرآن الكريم فأسرع إلى أبي بكر رضي الله عنه وطلب منه أنْ يأمرَ بجمع القرآن الكريم بين دفتين، ورواية الإمام

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» على شرط الشيخين.

(٢) انظر «مناهل العرفان» للزرقاني ج١ ص٢٤١-٢٤٢.

البخاري رحمه الله توضح لنا حقيقة ما حصل.

فعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: أرسل إليّ أبو بكر مقْتَل أهل اليمامة فإذا عمر بن الخطاب عنده فقال أبو بكر: إنّ عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحر يومَ اليمامة بقراء القرآن وإني أخشى أن يستحر القتلُ بالمواطن فيذهب كثيرٌ من القراء، وإني أرى أنْ تأمرَ بجمعِ القرآن الكريم. قلت لعمر: كيف نفعل شيئاً ولم يفعله رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: والله إن هذا خير، فلم يَزَلْ عمرُ يراجعني حتى شرحَ اللهُ صدري لذلك، وقد رأيتُ في ذلك الذي رأى عمر. قال زيد: وقال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا أَتَّهمكَ وقد كنت تكتب الوحي لرسولِ الله ﷺ فتتبع القرآن فاجمعه. قال زيد: فوالله لو كَلَّفني نقلَ جبلٍ من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن الكريم. قلت: كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ فقال: هو والله خير، فلم يزل أبو بكرٍ يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر؛ فتتبعتُ القرآن أجمعه من العسب واللِّخاف[1] وصدور الرجال حتى وجدتُ آخر سورة التوبة ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة] مع أبي خزيمة الأنصاري الذي جعل رسول الله ﷺ شهادتَهُ بشهادةِ رجلين لم أجدها مع أحد غيره فألحقتها في سورتها فكانت الصحف عند أبي بكر حتى تَوفَّاهُ الله، ثم عند عمر حتى قبض، ثم عند حفصة بنت عمر[2].

رابعاً - منهج زيد بن ثابت في جمع القرآن الكريم:

لقد كان زيد بن ثابت رضي الله عنه من أشهر حُفَّاظِ القرآن الكريم

---

(١) العسب جريد النخل - واللخاف حجارة بيض رقاق.

(٢) رواه البخاري في باب فضائل القرآن.

ولقد عرضه على رسول الله ﷺ قبل وفاته عليه الصلاة والسلام غير أنَّ زيد لم يعتمد على حفظه في كتابة المصحف الشريف، بل كان لا يكتبُ آيةَ حتى يتوفر لها أمران:

١- أن يجدها مكتوبةً عند أحد الصحابة مما كتب زمن النبي ﷺ.

٢- أن يجدها محفوظة عند غيره من الصحابة الكرام رضي الله عنهم.

إن هذا المنهج هو الذي يفسر قول زيد رضي الله عنه أنه ما وجد آخر سورة التوبة إلا مع أبي خزيمة أي لم يجدها مكتوبةً إلا عنده مع أن زيداً نفسه كان يحفظها ويحفظها الكثيرُ من الصحابة الكرام.

ومما يدل على دقة زيد رضي الله عنه ما رواه أبو داود قال: قدم عمر فقال: مَنْ تلقَّى من رسول الله ﷺ شيئاً من القرآن فليأتِ به، وكانوا يكتبون ذلك في الصحف والألواح والعسب، وكان لا يقبلُ من أحد شيئاً حتى يشهدَ عليه شهيدان. أهـ.

وروى أبو داود أيضاً عن طريق هشام بن عمْروٍ عن أبيه أنَّ أبا بكرٍ رضي الله عنه قال لعمر وزيد: اقعدا على باب المسجد فمن جاءكما بشاهدين على شيءٍ من كتابِ الله فاكتباه. وهو حديث رجاله ثقات.

قال ابن حجر: المراد بالشاهدين الحفظ والكتابة. وقال السخاوي في «جمال القرّاء» ما يفيد أن المراد بهما رجلان عَدْلان. قال: المراد منهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كُتِبَ بين يدي النبي ﷺ[1].

وإنْ دلَّ هذا على شيءٍ فإنما يدل على مدى التوثق والتثبت والعناية

---

(١) «مناهل العرفان» للزرقاني ج١ ص٢٤٥ و«مباحث في علوم القرآن» للقطان ص١٢٧.

والاحتياط الذي كان عليه الصحابةُ رضي الله عنهم عند كتابة القرآن الكريم وجمعه حتى وصل إلينا صورة طبق الأصل وكما نزل به جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ، وهذا ما لم يَحْظَ به أيُّ كتابٍ سماوي آخر، بل ولا أي فكرٍ بشري على الإطلاق.

خامساً - خصائص المصحف الذي جمعه الصِّدِّيقُ رضي الله عنه:

لقد امتاز هذا المصحف الشريف الذي جمعه الصديق رضي الله عنه بالخصائص التالية:

١- أنه جُمعَ على أدق أصولِ البحث والتحري وأسلمِ أصولِ التثبت العلمي الرصين.

٢- اقتصر فيه على ما لم تنسخ تلاوته.

٣- أجمعت الأمة عليه.

٤- كان مشتملاً على الأحرف السبعة التي نزل القرآن الكريم بها تسهيلاً على الأمة كما سيأتي معنا لاحقاً إن شاء الله[١].

سادساً - جمع القرآن الكريم في عهد عثمان بن عفان ومنهجه في ذلك رضي الله عنه:

بقيت الصحف التي جمعها الصديق رضي الله عنه عنده حتى توفي ثم كانت عند عمر رضي الله عنه زمن خلافته ولم يطرأ عليها أي جديد حيث كان الصحابةُ رضي الله عنهم مشتغلين بالجهاد والفتوحات ولم يحدث ما

---

(١) «مناهل العرفان» للزرقاني ج١ ص٢٤٦.

يقتضي أي زيادة على ما فعل الصديق رضي الله عنه بالنسبة لكتابة المصحف الشريف. وبعد وفاة عمر رضي الله عنه كانت الصحف عند حفصة بنت عمر أم المؤمنين رضي الله عنها.

ولما جاءت خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه كانت الدولة الإسلامية تمتاز بصفات وأحوال جديدة، وأهم ما يذكر منها في مجالنا هذا الأمور التالية:

١- اتساع الدولة الإسلامية حيث وصلت الفتوحات إلى فارس والروم ومصر.

٢- دخول كثير من الأعاجم في الإسلام واختلاطهم بالعرب المسلمين.

٣- شيوعُ اللَّحْن وانتشاره في المجتمع المسلم العربي الذي فُطِرَ على اللغة الفصحى. وكان من نتيجة هذه الأمور أن وجد الخطأ في قراءة القرآن الكريم والاختلاف فيها. وعندها فزع أحدُ قادة الفتوحات الإسلامية إلى الخليفةِ الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه مشيراً عليه بتدارك الأمة وحفظ كتاب الله تعالى لئلا يختلف فيه كما اختلفتِ اليهودُ والنصارى في كتبهم.

ولما علم عثمان رضي الله عنه بذلك جمع مَنْ حوله من شيوخ المهاجرين والأنصار واستشارهم في الأمر واتفقوا على أنْ ينسخ المصحف الذي جمع في عهد أبي بكرٍ الصديق رضي الله عنه ويوزع إلى الأمصار الإسلامية ويحرق ما عداه مما كتبه الناسُ لأنفسهم خشية وجود الخطأ فيه.

فعن سعيد بن غفلة قال: قال علي: لا تقولوا في عثمان إلا خيراً فوالله ما فعلَ الذي فعلَ في المصاحفِ إلا على ملأٍ منا قال: ما تقولون في هذه

القراءة فقد بلغني أنَّ بعضَهم يقول: أن قراءتي خيرٌ من قراءتكَ، وهذا يكاد يكون كفراً؟ قلنا: فماذا ترى؟ قال: أرى أنْ يُجمعَ الناسُ على مصحفٍ واحد فلا تكون فرقة ولا اختلاف. قلنا: فنعم ما رأيت[1]. وأرسل عثمان إلى حفصة رضي الله عنها أنْ أرسلي إلينا الصُّحفَ ننسخها ثم نردها إليك فأرسلت بها حفصة إلى عثمان رضي الله عنه فأمر زيد بن ثابت وعبدالله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبدالرحمن بن هشام فنسخوها في المصاحف[2].

طريقة كتابة المصاحف العثمانية:

بعد أن شكل عثمان رضي الله عنه تلك اللجنة لكتابة المصحف الشريف لاحظ أنَّ ثلاثةً منها قرشيون والرابع زيد بن ثابت الأنصاري فخشي أن يختلفوا في رسم بعض الكلمات فرسم لها منهجاً يرجعون إليه عند اختلافهم فقال للرهط القرشيين: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنه إنما نزلَ بلسانهم فقام هؤلاء الأصحاب رضي الله عنهم بما كُلِّفُوا به حتى إذا نسخوا المصاحف - وكان عددها ستة وقيل ثمانية - ردَّ عثمان الصحف الأولى إلى حفصة وأرسل إلى كل أفق إسلامي بمصحفٍ وقارىء يعلم الناسَ القرآن الكريم، ثم أمر بما سوى هذه المصاحف من كل صحيفة أو مصحف أن يحرق. وبالتأمُّلِ بمنهجِ عثمان رضي الله عنه الذي رسمه لكتّاب المصحف يتضح لنا أن المصحف كتب في هذه المرة على حرفٍ واحدٍ من الأحرفِ السبعة هو حرف قريش وقد وافق على ذلك الصحابةُ رضي الله عنهم، وقد تلقت الأمة كلها ذلك بالقبول الحسن، فلا مجال بعد ذلك للقراءة بغير هذا الحرف وما يحتمله من أوجهٍ في الأداء أو القراءة إذا صَحَّ سندها وتواترت إلى رسول الله ﷺ،

(١) أخرجه أبو داود بسند صحيح.
(٢) وقد كان هذا في عام ٢٥ للهجرة.

وبهذا يكون عثمان رضي الله عنه قد قضى على الفرقة والخلاف، وجمعَ الناسَ على جادة سواء في أعظمِ أمرٍ من أمور المسلمين وهو القرآن الكريم منهاج حياتهم وضمان سلامتهم في الدنيا والآخرة، فجزاه الله عنا وعن المسلمين خير الجزاء ورضي الله عنه وعن جميع الأصحاب الذين نقلوا لنا هذا الدين نقياً صافياً كما أخذوه عن رسول الله ﷺ.

سابعاً - الفرق بين جمع الصدِّيق وعثمان رضي الله عنهما:

من خلال ما تقدم معنا من جهود الخليفتين الراشدين في خدمة كتاب الله تعالى يتضح لنا بعض الفروق في عمل كل منهما، ونُجْمِل أهمهما فيما يلي:

١- الباعث على جمع القرآن الكريم:

لقد كان الباعث على جمع الصدِّيق للقرآن الكريم هو كثرة الشهداء من حُفَّاظ القرآن الكريم، أما عند عثمان فشيوع اللحن والاختلاف في القراءة تبعاً لذلك.

٢- عدد المصاحف المنسوخة:

إن أبا بكر الصديق أمر بكتابة نسخة واحدة لتبقى في دار الخلافة مرجعاً للمسلمين جميعاً. أما عثمان رضي الله عنه فقد أمر بكتابة ست أو ثمان من النسخ ووزعها على الأمصار الإسلامية المختلفة مكة - المدينة - دمشق - البصرة - الكوفة - اليمن - البحرين وأبقى مصحفاً لنفسه.

٣- الأحرف السبعة وحرف قريش:

لقد كان جمع الصِّدِّيق رضي الله عنه مشتملاً على الأحرف السبعة ولم يأمر زيداً بالاقتصار على حرفٍ معين أثناء كتابته للمصحف الأول.

أما عثمان رضي الله عنه فقد اقتصر في جمعه على حرف قريش وحده كما مَرَّ.

يقول الحارث المحاسبيُّ رحمه الله: المشهورُ عند الناس أن عثمان جامع القرآن، وليس كذلك إنما حمل عثمان الناس على القراءة بوجه واحدٍ على اختيار وقع بينه وبين مَنْ شهده من المهاجرين والأنصار لما خشي الفتنةَ عند اختلاف أهل الشام والعراق في حروفِ القراءات، فأما ما قبل ذلك فقد كانت المصاحفُ بوجوه من القراءات المطلقات على الأحرف السبعة التي أنزل بها القرآن، فأما السابقُ إلى جمع الجملة فهو الصدّيق[1]. وسيأتي معنا كلام مفصل على الأحرف السبعة إن شاء الله.

ثامناً - لمحة عن المراحل التحسينية التي مرت على المصاحف العثمانية:

مما لا شك فيه أنَّ المصاحفَ التي كتبت في عهد الصدِّيق وعثمان رضي الله عنهما كانت خالية من النقط والشكل وقد كان المسلمون يهتدون إلى النُّطْقِ الصحيح مع ذلك بوسيلتين اثنتين.

١- السماع حيث كان القُرَّاء يعلمون الناس قراءة القرآن الكريم مشافهة وتلقيناً.

٢- السليقة العربية الأصيلة التي كانوا يميزون بها الحروف المتشابهة مع بعضها.

ونحن اليوم نرى المصاحفَ منقطةً مشكلة مطبوعةً بأجمل الخطوط فكيف تم ذلك؟ هذا ما سنجيب عنه باختصار وإيجاز في هذه التأملات

---

(١) «الإتقان في علوم القرآن» للسيوطي ج١ ص٥٩-٦٠.

إن شاء الله.

أقول: إن الحرف الإملائي وكيفية رسمه ما زال على ما كان عليه منذ زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه، وسيأتي معنا في بحث الأحرف السبعة مذاهب العلماء في ضرورة الالتزام به أو جواز تغييره. وأما التحسينات الكتابية التي طرأت على المصاحف فهي مقتصرةٌ على الشكل والنقط فقط. ولم يتم ذلك دفعة واحدة وإنما مرّ بمراحلَ متعددة حتى بلغ رَسْمُ المصحف ذروةَ الجمال في نهاية القرن الثالث الهجري.

وقد اختلف العلماء قديماً في أول مَنْ نقط القرآن الكريم وشكله وتردَّدت في هذا الموضوع أسماء ثلاثة من العلماء هم:

أبو الأسود الدؤلي - ويحيى بن يعمر - ونصر بن عاصم - وكل من يحيى ونصر تلميذ لأبي الأسود. وأكثر العلماء على أن أبا الأسود الدؤلي هو الذي وضع الشكل للقرآن الكريم بأمرٍ من زياد بن أبيه، وكان الشكل يومها على هيئة النقط بين يدي الحرف وفوقه وتحته.

ثم قام نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر بتنقيط القرآن الكريم بأمرٍ من الحجاج بن يوسف الثقفي في خلافة عبدالملك بن مروان. هذا ملخص روايات كثيرة في هذا الباب والله أعلم[1].

ثم تتابعت عناية المسلمين برسم المصحف وتجميل كتابته وخطه إلى أن جاءت المطابع الحديثة وصدرت أول طبعة للمصحف الشريف سنة ١٥٣٠ للميلاد في البندقية ولكن الكنيسة أصدرت حكماً بإعدامه حالَ ظهوره وجمعته وأحرقته خشيةَ أنْ يكون عقبةً في طريق المبشرين الذين يضللون

(١) انظر «مناهل العرفان» للزرقاني ج١ ص٣٩٩-٤٠١.

عقول الناس ويلبسون عليهم. وكانت أول طبعة إسلامية للمصحف في سانت بترسبورغ بروسيا عام ١٧٨٧ للميلاد. وفي عام ١٣٤٢هـ ١٩٢٣م طبع المصحف الشريف في القاهرة تحت إشراف مشيخة الأزهر، وتلقى العالم كله هذه الطبعة بالقبول الحسن، ثم أصبحت ملايين النسخ تطبع سنوياً والحمد لله[(١)].

تاسعاً - ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره:

١- ترتيب الآيات القرآنية:

إن ترتيب الآيات القرآنية على ما هي عليه الآن أمر توقيفيٌّ من رسول الله ﷺ، وحكى بعضهم الإجماع على ذلك وجزم السيوطي رحمه الله بذلك إذ قال: الإجماعُ والنصوص المترادفة على أنَّ ترتيب الآيات توقيفي لا شبهةَ في ذلك[(٢)].

وعن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه قال: كنت جالساً عند النبي ﷺ إذ شخص ببصره ثم صَوَّبه ثم قال: أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴿٩٠﴾ ﴾ [النحل][(٣)].

وقد ثبت في الصحيح أن جبريلَ عليه السلام كان يعارضُ الرسولَ ﷺ القرآنَ كُلَّ عامٍ مرة في رمضان وكان ذلك على الترتيب المعروف الآن. كما ثبتت قراءته ﷺ لسور معروفة بترتيب آياتها كالبقرة وآل عمران والنساء وغيرها. فعن عبدالله بن الزبير قال: قلت لعثمان بن عفان: ﴿ وَٱلَّذِينَ

---

(١) انظر «مباحث في علوم القرآن الكريم» للدكتور صبحي الصالح ص٩٩-١٠٠.

(٢) انظر «مباحث في علوم القرآن» للقطان ص١٣٩.

(٣) والحديث أخرجه أحمد بإسناد جيد.

﴿يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا ﴾ [البقرة] نسختها الآية الأخرى فلِمَ تكتبها أو تدعها؟ قال: يا ابن أخي لا أغير شيئاً من مكانه[1].

وقال الإمام السيوطي رحمه الله بعد أن ذكر أحاديث السور المخصوصة: «تدل قراءته ﷺ لها بمشهدٍ من الصحابة على أن ترتيب آياتها توقيفيٌّ وما كان الصحابةُ ليرتبوا ترتيباً سمعوا النبيَّ ﷺ يقرأ على خلافه فبلغ ذلك مبلغ التواتر[2].

٢- ترتيب السور القرآنية:

لقد اختلف العلماء في ترتيب سور القرآن الكريم على ثلاثة أقوال معروفة:

الأول: أن ترتيبها كان توقيفياً عن رسول الله ﷺ كما أخبر به جبريل عليه السلام عن رَبِّه عز وجل.

الثاني: أن ترتيب السور باجتهادٍ من الصحابة رضي الله عنهم.

الثالث: أن بعض السور ترتيبها توقيفي وبعضها باجتهاد من الصحابة.

والقول الأول هو الراجح لأن هذا الترتيب هو الذي رتبه عثمان رضي الله عنه ووافقه عليه الصحابةُ رضي الله عنهم.

قال ابن الحصار: ترتيب السور ووضع الآيات مواضعها إنما كان بالوحي، كان رسول الله ﷺ يقول: ضَعُوا آية كذا في موضع كذا وقد حصل اليقين من النقل المتواتر بهذا الترتيب من تلاوة رسول الله ﷺ ومما

---

(١) «مناهل العرفان» ج١ ص٣٤١.

(٢) «مباحث في علوم القرآن» للقطان ص١٤١.

أجمع الصحابة على وضعه هكذا في المصحف[1].

عاشراً - تقسيم العلماء لسور القرآن الكريم:

لقد قسم العلماء سور القرآن الكريم أربعة أقسام هي الطوال - المئون - المثاني - المفصل.

فالطوال: سبع سور هي: البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنعام، الأعراف، والسابعة الأنفال مع التوبة وقيل يونس.

والمئون: ما تزيد آياتها على مئة آية أو تقاربها.

والمثاني: تلي المئين في عدد آياتها وسميت مثاني لأنها تثنى - أي تكرر - في التلاوة أكثر من غيرها.

والمفصل: أقسامه ثلاثة، وفي تحديد كُلٍّ منها أقوالٌ لعلَّ أصوبها أن يقال:

١- طوال المفصل. من الحجرات إلى البروج.

٢- أواسط المفصل. من الطارق إلى البينة.

٣- قصار المفصل. من الزلزلة إلى الناس[2] والله أعلم.

حادي عشر - كلمات القرآن الكريم وحروفه:

لقد بلغت عناية العلماء بكتاب الله عز وجل أنْ حققوا وبحثوا في عدد آياته وكلماته وحروفه؛ بل وأحصوا كُلَّ حرفٍ من حروف الهجاء العربية كم

---

(١) «الإتقان» للسيوطي ج١ ص٩٢.

(٢) «مناهل العرفان» للزرقاني ج١ ص٣٣٦-٣٤٥.

مرة تكرر في القرآن الكريم وفي كل سورة من سوره، وهذا من فضل الله على هذه الأمة، ومن حفظهِ لكتابه العظيم الذي هو معجزة الإسلام الخالدة إلى أنْ يرث اللهُ الأرضَ ومن عليها.

وسأورد في ختام هذا البحث ملخصاً لكلمات القرآن الكريم وحروفه على ما ذكره العلماء جزاهم الله خيراً تتميماً للفائدة واستنهاضاً للهمم لعلَّها تتجدد وتتطلع إلى تراثنا العظيم فتحاول الإحاطة به والتمسك بسلّم النهوض إلى حيث كانت مكانة أمة القرآن الكريم.

١- عدد آيات القرآن الكريم:

اتفق العلماء على أن آيات القرآن الكريم بلغت «٦٢٠٠» مائتين وستة آلاف آية، وزاد بعضهم في عددها لاعتبار البسملة آية من كل سورة، أو لاختلافٍ في طرق العد، والله أعلم.

٢- عدد كلمات القرآن:

ذكر بعض العلماء أن كلمات القرآن الكريم بلغت «٧٧٩٣٤» أربعاً وثلاثين وتسعمائة وسبعة وسبعين ألفاً من الكلمات، وقيل غير ذلك، والله أعلم[(١)].

٣- حروف القرآن الكريم:

جاء في كتاب «نهايات البيان في علوم القرآن» للشيخ ظفر علي أن حروف القرآن الكريم وعدد تكرارها كالآتي:

---

(١) «مناهل العرفان» للزرقاني ج١ ص٣٣٦ وما بعدها.

الحرف الهجائي	عدد تكراره في القرآن الكريم
١- الألف	٣٨٢٨٥ مرة.
٢- الهمزة	٢٨٧١٨ مرة.
٣- الباء	١١٤٩٠ مرة.
٤- التاء	١٢٨٦٤ مرة.
٥- الثاء	١٤١٤ مرة.
٦- الجيم	٣٣١٧ مرة.
٧- الحاء	٤١٣٨ مرة.
٨- الخاء	٢٤٩٢ مرة.
٩- الدال	٥٩٩١ مرة.
١٠- الذال	٤٩٣٢ مرة.
١١- الراء	١٢٤٠١ مرة.
١٢- الزاي	١٥٩٩ مرة.
١٣- السين	٦٠١٠ مرة.
١٤- الشين	٢٤٢١ مرة.
١٥- الصاد	٢٠٧٢ مرة.
١٦- الضاد	١٦٨٧ مرة.
١٧- الطاء	١٢٧٦ مرة.
١٨- الظاء	٨٥٠ مرة.
١٩- العين	٩٤٠٥ مرة.
٢٠- الغين	١٢٢١ مرة.
٢١- الفاء	٨٧٤٦ مرة.
٢٢- القاف	٧٠٣٤ مرة.

٢٣- الكاف ١٠٤٩٧ مرة.

٢٤- اللام ٣٨٠٩٨ مرة واللام ألف «لا» ١٤٧٠٧ مرة.

٢٥- الميم ٢٦٧٣٢ مرة.

٢٦- النون ٢٧٢٦٩ مرة.

٢٧- الهاء ١٤٨٤٩ مرة.

٢٨- الواو ٢٤٨١٦ مرة.

٢٩- الياء ٢١٩٦٤ مرة والله أعلم[١].

ثاني عشر - أسئلة ومناقشات حول المبحث:

١- تكلم عن اهتمام رسول الله ﷺ بحفظ القرآن الكريم.

٢- تكلم عن اهتمام الصحابة بحفظ القرآن الكريم وشغفهم به.

٣- كم كان عدد الحُفَّاظ من الصحابة؟ وهل صحيح أنهم سبعة فقط؟ وَضِّح ذلك.

٤- تكلم عن كتابة القرآن الكريم في عهد الرسول ﷺ.

٥- هل جمع القرآن بين دفتين في عهد النبي؟ وضح ذلك مع ذكر الأسباب.

٦- ما الذي حمل الصِّدِّيق على جمع القرآن الكريم؟ ومن أشار بذلك؟ وضح جوابك بالدليل.

٧- تكلم عن منهج زيد بن ثابت في جمعه للقرآن الكريم مع الأدلة.

---

(١) «الجديد في أحكام التجويد» للشيخ إبراهيم عبدالرزاق والشيخ عبدالباسط عبد الماجد ج٦ ص٨٥ وما بعدها.

٨- ما هي خصائص المصحف الذي جمعه الصِّديق رضي الله عنه.

٩- اذكر أسباب جمع عثمان للقرآن الكريم وهل تَفَرَّدَ بهذا الأمر أم استشار الصحابة؟ وضح ذلك مع الدليل.

١٠- ما هو المنهج الذي رسمه عثمان رضي الله عنه لكتابة المصاحف؟

١١- هل كتب المصحف العثماني على الأحرف السبعة أم على حرف قريش؟ وضح ذلك.

١٢- اذكر أهم الفوارق بين جمع الصديق وجمع عثمان رضي الله عنهما للقرآن الكريم.

١٣- هل كان المصحف العثماني مشكلاً أم منقطاً؟ وكيف كان المسلمون يهتدون للقراءة الصحيحة فيه؟ وضح ذلك.

١٤- كيف شُكل القرآن الكريم؟ وكيف نُقط؟ ومن قام بذلك.

١٥- تكلم عن تاريخ طباعة المصحف الشريف والمراحل التي مرت على ذلك.

١٦- هل كان ترتيب آيات القرآن اجتهاداً أم توقيفاً؟ وضح ذلك مع الأدلة.

١٧- اذكر مذاهب العلماء في ترتيب سور القرآن الكريم مع الترجيح والأدلة.

١٨- تكلم عن تقسيم العلماء لسور القرآن الكريم مع تحديد هذه الأقسام.

١٩- اذكر أنواع المُفَصَّل من سور القرآن الكريم وسور كُلِّ نوع من إلى.

٢٠- كم عدد كلمات القرآن الكريم؟ وكم آياته؟ وكم تكررت الحروف التالية في القرآن الكريم؟ ب- د - ق - ل - م - ض - ي.

المبحث الخامس
الأحرف السبعة في القرآن الكريم

ويشمل هذا المبحث المسائل التالية:

١- أدلة الأحرف السبعة.
٢- المراد بالأحرف السبعة.
٣- الحكمة من وجود الأحرف السبعة.
٤- الفرق بين القراءات وبين الأحرف السبعة.
٥- مصير الأحرف السبعة بعد وفاة رسول الله ﷺ.
٦- أسئلة ومناقشات حول المبحث.

أولاً - أدلة الأحرف السبعة:

لقد وردت الأحرف السبعة في كثير من الأحاديث النبوية الصحيحة. روى الإمام البخاري رحمه الله عن النبي ﷺ أنه قال: أقرأني جبريل على حرف فراجعته فلم أزل أستعيده حتى انتهى إلى سبعة أحرف. وروى الإمام مسلم بسنده عن أبي بن كعب أن النبي ﷺ كان عند أضاة بني غفار قال: فأتاه جبريل عليه السلام فقال: إن الله يأمرك أن تقرىء أمتك القرآن على حرف فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك. ثم أتاه الثانية فقال: إن الله يأمرك أن تُقرىء أمتك القرآن على حرفين فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك. ثم جاءه الثالثة فقال: إن الله

يأمرك أن تقرىء أمتك القرآن على ثلاثة أحرف فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك ثم جاءه الرابعة فقال: إن الله يأمرك أن تقرىء أمتك القرآن على سبعة أحرف فأيما حرف قرؤوا عليه فقد أصابوا.

ثانياً - المراد بالأحرف السبعة:

لقد تعددت أقوال العلماء ومذاهبهم في المعنى المراد بالأحرف السبعة حتى زادت على الأربعين وجهاً وذلك لأنه لم يرد نَصٌّ يحدد الأحرف السبعة والمراد بها وقد كان الرسول الله ﷺ يعلم أصحابه كيفية القراءة والأداء هذا على وجه وذاك على وجه آخر. وبعد وفاة رسول الله ﷺ تتابع الناس على ما عرفوه من القراءات، ولما جاء عصر التدوين كثرت الاجتهادات في معنى الأحرف السبعة وتحديدها، ولعلَّ أجمع الأقوال وأقومها في ذلك أن يقال: الأحرف السبعة هي الأوجه السبعة التي وسع بها على الأمة فبأيِّ وجهٍ منها قرؤوا فقد أصابوا. واللفظ القرآني مهما تنوعت طرق أدائه وقراءته لا يخرج التغاير فيه عن سبعة أوجه هي:

١- الاختلاف في وجوه الإعراب تغير المعنى أم لا.

وذلك مثل قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة] قرئت هذه الآية بوجهين برفع آدم ونصب كلمات. وبنصب آدم ورفع كلمات[1] وهنا تغير الإعراب والمعنى كما هو واضح.

٢- الاختلاف في الحروف مثل يعلمون وتعلمون - بالياء والتاء.

٣- الاختلاف في الأسماء من حيث إفرادها وتثنيتها وجمعها وتذكيرها

(١) والقراءة بنصب آدم ورفع كلمات لابن كثير انظر «حجة القراءات» ص٩٤.

وتأنيثها. وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨﴾ [المؤمنون] قرئت الآية بجمع أماناتهم وإفرادها لأمانتهم[1].

٤- الاختلاف بإبدال كلمة بكلمة ويغلب أن تكون إحداهما مرادفة للأخرى كقوله تعالى: ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝٢٩﴾ [الواقعة] قرئت وطلع منضود.

٥- الاختلاف في التقديم والتأخير مما يعرف له وجه في كلام العرب كقوله تعالى: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۝١١١﴾ [التوبة] بفتح الياء في الأولى وضمها في الثانية وقرئت بضم الأولى وفتح الثانية[2].

٦- الاختلاف في الزيادة والنقصان.

وذلك كقوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۝١٠٠﴾ [التوبة] قرئت من تحتها[3].

٧- اختلاف اللهجات في الفتح والإمالة والترقيق والتفخيم والهمز والتسهيل وقلب بعض الحروف كقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ [المؤمنون] قرئت بترك الهمزة ونقل حركتها إلى آخر الكلمة الأولى. وكذلك كلمة الصلاة والطلاق في مواضعها قرئت بتفخيم اللام فيها.

وهذا الوجه الأخير هو أهم الأوجه إذ به يتحقق التيسير والتسهيل على الأمة[4].

---

(١) الإفراد لابن كثير وحده انظر «حجة القراءات» ص٤٨٢.

(٢) القراءة بضم الياء الأولى وفتح الثانية لحمزة والكسائي. انظر «حجة القراءات» ص٣٢٥.

(٣) زيادة من لابن كثير وحده انظر «حجة القراءات» ص٣٢٢.

(٤) «مناهل العرفان» للزرقاني ج١ ص١٥٥.

ثالثاً - الحكمة من وجود الأحرف السبعة:

الحكمة التشريعية للأحرف السبعة هي التيسير والتسهيل على الأمة الإسلامية حيث كانت وقت نزول القرآن الكريم متباينة في لهجاتها وما زالت كذلك بعض الشيء - ومن العسير اجتماعها على لهجة واحدة واستيعابها لها، وتتجلى هذه الحكمة بوضوح من قول رسول الله ﷺ فيما يرويه أبي بن كعب رضي الله عنه قال: لقيَ رسولُ الله ﷺ جبريل عند أحجار المروة قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: إني بعثت إلى أمة أميين فيهم الشيخ الفاني والعجوز الكبيرة والغلام قال: فمرهم فليقرؤوا القرآن على سبعة أحرف[١].

رابعاً - الفرق بين الأحرف السبعة والقراءات:

بعد أن عرفنا الأحرف السبعة والمراد بها لا بد من التنويه إلى الفرق بينها وبين القراءات السبع المتواترة المشهورة.

فالأحرف السبعة التي نزل القرآن الكريم بها غير القراءات. قال أبو شامة: ظنَّ قوم أن القراءات السبع الموجودة الآن هي التي أريدت في الحديث وهو خلاف إجماع أهل العلم قاطبة وإنما يظن ذلك بعض أهل الجهل[٢].

وتوضيح ذلك أن هذه الأحرف الثابتة - كما تقدم القول فيها - كان النبي ﷺ يقرىء بها أصحابه وكانت القراءات في عهد الصحابة رضي الله

---

(١) رواه الترمذي وقال حسن صحيح.

(٢) «الإتقان في علوم القرآن» للسيوطي ج١ ص١٣٨.

عنهم كثيرة جداً وغير منحصرة بعدد. وعبارة القراءات السبع لم تكن قد عرفت في الأمصار الإسلامية، وقد ذكر الأئمة الذين ألّفوا في القراءات أمثال أبي عبيد القاسم بن سلام وأبي جعفر الطبري وغيرهم رحمهم الله ذكروا أضعاف تلك القراءات.

وإنما بدأت القراءات السبع تشتهر على رأس المائتين بسبب إقبال الناس على بعض الأئمة دون غيرهم لشهرتهم في العلم والفقه والورع ولتفرغهم للإقراء والتعليم، واشتهرت تلك القراءات أيضاً بسبب توفر التلاميذ والرواة الذين اعتنوا بها ونشروها دون غيرها، مع أنه هناك ثلاث قراءات بعد القراءات السبع كلها متواترة مشهورة فتكون القراءات المتواترة إلى النبي ﷺ والمتصل بنا سندها إلى يومنا هذا عشر قراءات فضلاً عن القراءات الشاذة.

وبهذا يتضح الفرق بين الأحرف السبعة والقراءات والله أعلم[١].

خامساً - مصير الأحرف السبعة بعد وفاة رسول الله ﷺ:

هل الأحرف السبعة رخصة للمسلمين زالت بعد زوال سببها - وهو تعدد اللهجات العربية وقت نزول القرآن الكريم - أم عزيمة باقية إلى يوم الدين شأنها شأن بقية الأحكام الشرعية؟ للإجابة على ذلك أقول:

إنه من المتفق عليه بين علماء الأمة أنه لا يجوز أن يُقرأ القرآن الكريم إلا بالقراءة المتواترة إلى رسول الله ﷺ والتي تلقاها الناس خلفاً عن سلف مُشافهةً من أفواه القراء وتعلماً من القواعد التي وضعوها لذلك. وهذه القراءات المتواترة محصورة اليوم بالقراءات العشر المعروفة المشهورة

---

(١) «مباحث في علوم القرآن» للدكتور صبحي الصالح ص٢٤٨.

برواياتها وطرقها واصطلاحاتها وضوابطها. وغير هذه القراءات العشر يسمى قراءات شاذة يحرم القراءة بها عند جميع أهل العلم. إذن فسواء بقيت الأحرف السبعة أو نسخت فلا مجال للقراءة بغير القراءات المذكورة المشار إليها.

هذا القَدْرُ محَلُّ اتفاقٍ في هذا الشأن ولا خلافَ فيه بين العلماء فيما أعلم.

وقد اختلف العلماء في مصير الأحرف السبعة وهل نُسخت آخرَ حياةِ النبي ﷺ أم بقيت بعده، ولهم في هذا الأمر مذهبان مشهوران:

الأول: أن الأحرف السبعة رخصة وقد زالت بزوال العذر المسبب لها، وذهب إلى هذا القول جماهير الفقهاء كالإمام ابن جرير الطبري وسفيان وابن وهب والطحاوي وغيرهم رحمهم الله، واحتجوا لذلك بأن المصاحف العثمانية لم تشتمل على الأحرف السبعة واقتصرت على حرف قريش وكان ذلك بمشورة الصحابة رضي الله عنهم الذين استشارهم عثمان في هذا الأمر ثم لم يخالفهم أحد بعد ذلك.

الثاني: وذهب جماعة من الفقهاء والقراء منهم الإمام الرازي وابن قتيبة وابن الجزري رحمهم الله إلى أنَّ الأحرفَ السبعةَ عزيمةٌ باقية ولم تنسخ واحتجوا لذلك بأن المصاحف العثمانية نقلت عن صحف الصدِّيق المشتملة على الأحرف السبعة وأن الناس ما زالوا مختلفين في لهجاتهم.

توجيه الأقوال: وأرى والله أعلم أن الخلاف في الأمر لا يترتب عليه فائدةٌ عملية بعد أنْ عرفنا أن الأمة أجمعت على القراءات العشر وأنه لا يجوز القراءة بغيرها.

وقد يكون أثر هذا الاختلاف في أصل هذه القراءات المتعددة ودليلها الذي تستند إليه، فمن قال بنسخ الأحرف السبعة آخر حياة النبي ﷺ قال إن القراءات المتواترة متفرعة كلها عن حرف قريش الذي كتب به عثمان رضي الله عنه المصاحف.

ومن قال إنها عزيمة باقية جعل أوجه القراءات المتواترة متفرعة عن جميع الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن الكريم. هذا ما فهمته من الأقوال الكثيرة المتعارضة في هذا الموضوع، ولم أجد هذا التوجيه للخلاف في المسألة فيما قرأتُ عنها، فإنْ يكن صواباً فمن الله وإلا فمن فَهْمي وتقصيري والله أعلم.

سادساً - أسئلة ومناقشات حول البحث:

١- ما الدليل على نزول القرآن الكريم على الأحرف السبعة؟

٢- ما معنى الأحرف السبعة؟ وما هي الأوجه المقصودة بها؟ وضح ذلك.

٣- تكلم عن الحكمة من الأحرف السبعة مع الدليل.

٤- ما هو الفرق بين الأحرف السبعة والقراءات السبعة؟

٥- ما هو سبب اشتهار القراءات السبع أكثر من غيرها؟ وضح ذلك.

٦- تكلم عن مذاهب العلماء في مصير الأحرف السبعة وهل لهذا الخلاف فائدة عملية؟ وضح ذلك.

المبحث السادس

لمحة عن القراءات والقرّاء

أولاً - نزول القرآن على سبعة أحرف والفرق بين الأحرف والقراءات:

أ- تمهيد:

أُنزل القرآن الكريم على رسول الله ﷺ باللغة العربية الفصحى وكان العرب أميّين لا عهدَ لهم بالكتابة والقراءة، وكانت لهم لهجات مختلفة متباينة. ومن تيسير الله تعالى على هذه الأمة أن أنزل القرآن الكريم على سبعة أحرف لتسهل قراءته على جميع الناس. قال ﷺ: «أُنزل القرآن على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تَيسَّر منه».

فكان ﷺ يُقرىء الناس على أوجه مختلفة وعلى حسب لهجاتهم وما يسهل عليهم حتى صارت الأوجه التي أقرأ بها النبيّ ﷺ كثيرة، وقد تعدّدت القراءات في عهد الصحابة رضي الله عنهم تعدداً لا يُحْصى عدده، وكلّهم آخذٌ من رسول الله ﷺ وقد أقرأوا مَن بعدهم كذلك. ومما ينبغي أن يلاحظ هنا أن الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن الكريم غير القراءات، بل هي أصلها فمثلاً وجه واحد من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن «اختلاف لهجات العرب» هذا الوجه يحتمل صيغاً كثيرة من الأداء والقراءة.

هذا وفي نهاية القرن الثاني بدأت تشتهر قراءات سبع، اشتهر الأئمةُ الذين اختاروا القراءةَ بها بين الناس في فضلهم وعلمهم وورعهم وتفرّغهم للقراءة والإقراء، ووجد لهم تلاميذ نشروا القراءات التي اختاروها بين الناس، وكان عصر التدوين مزدهراً. فلهذا كُتِبَ لهذه القراءات السبع من البقاء والعناية ما لم يَحْظَ به غيرها من القراءات الصحيحة المتواترة، ثمّ اشتهر بعد هذه القراءات السبع ثلاثٌ أُخر عن أئمةٍ لا يقلون شأناً عن سابقيهم وتوفَّر لهذه القراءات من الصحة والشهرة ما جعلها مقبولةً عند أهلِ هذا العلم، وبهذا أصبحت القراءات المتواترة المدوّنة التي ينقلها القرّاء، خلفاً عن سلف والتي تلقّتها الأمة بالقبول والاحترام عشر قراءات فقط، وكل قراءة بغيرها تعتبر شاذة يحرم القراءة بها كما تقدّم.

ب- الشروط المعتبرة لصحة القراءة:

لقد وضع العلماء شروطاً لا بدّ من توفّرها في القراءة حتى تعتبر صحيحة، وخلاصة هذه الشروط ثلاثة وهي:

١- تواتر السند إلى رسول الله ﷺ.

٢- موافقتها للغة العربية الفصحى بوجه صحيح معتَبر من وجوهها.

٣- موافقتها لرسم المصحف العثماني الذي أمر به عثمان بن عفان رضي الله عنه ووافقه عليه الصحابةُ الكرام رضي الله عنهم.

وقد توفرت جميع هذه الشروط في القراءات العشر ولم تتوفر في غيرها مما هو متناقل بين الناس علماً بأنه كانت قراءات غيرها قد توفرت فيها تلك الشروط غير أنها لم يُهيَّأ لها مَن ينقلها ويُقرىء بها حتى انقرضت ولم يبقَ لها أثر كما أشير لذلك قبل.

ج- القراءات اختيار لا مذاهب واجتهاد:

ومما ينبغي أن يعلم في هذا المجال أن هذه القراءات محل اتفاق بين جميع القرّاء وأئمة الإسلام، وكل قارىء من أئمة القراءات العشر ورواتهم يؤكد صحة جميع القراءات وتواترها عن النبيّ ﷺ غير أنه اختار لنفسه واحدة منها اشْتُهِرَ بها واشتهرتْ به، وليس الأمر في هذا كالمذاهب الفقهية التي يختلف فيها اجتهادُ الفقهاء، وكل منهم يرى أن مذهبه صحيح يحتمل الخطأ ومذهب غيره خطأ يحتمل الصواب.

د- الأئمة العشرة ورواتهم:

هذا وقد اشتهر لجانب أئمة القراءات أسماء رواتهم، وقد وُجِدَ لكلِّ إمام من الأئمة راويان أخذا عنه ونقلا قراءته للناس، وأُثبتُ في هذه العجالة أسماء أئمة القراءات ورواتهم تذكرة لِمُطالعِ هذا الفن وعرفاناً بقدر أولئك الأئمة رحمهم الله، وإنْ كان البحثُ المفصل في القراءات والقرّاء ليس هذا موضعه، بل هو علم قائم بذاته وله رجاله ومجالاته.

الأئمة العشرة	رواتهم	
١-الإمام نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المدني	١-قالون	٢-ورش
٢-الإمام ابن كثير عبد الله أبو معبد العطار المكي	١-البزي	٢-قنبل
٣-الإمام أبو عمرو بن العلاء البصري	١-حفص الدوري	٢-السوسي
٤-الإمام ابن عامر الدمشقي	١-هشام	٢-ابن ذكوان
٥-الإمام عاصم بن أبي النجود الكوفي	١-شعبة	٢-حفص
٦-الإمام حمزة بن حبيب الزيات الكوفي	١-خلف بن هشام	٢-خلّاد
٧-الإمام الكسائي علي بن حمزة الكوفي	١-أبو الحارث	٢-حفص الدوري
٨-الإمام أبو جعفر يزيد بن القعقاع المدني	١-عيسى بن وردان	٢-ابن جماز

٩-يعقوب بن إسحاق الحضرمي البصري ١-رويس ٢-روح

١٠-الإمام خلف بن هشام البزار البغدادي ١-إسحاق الورّاق ٢-إدريس الحداد

هـ- القراءات التي يُقرأ بها في العالم الإسلامي:

نقل الشيخ سعيد الأفغاني في تحقيقه لـ«حجة القراءات» لأبي زرعة عن العلاّمة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور أن القراءات التي يُقرأ بها في بلاد الإسلام من هذه القراءات العشر هي:

١- قراءة نافع برواية قالون:

ويُقرأ بها في بعض القطر التونسي وبعض القطر المصري وفي ليبيا.

٢- قراءة نافع برواية ورش:

ويُقرأ بها في بعض تونس ومصر وفي جميع الجزائر والمغرب الأقصى والسودان.

٣- قراءة عاصم برواية حفص:

ويُقرأ بها في جميع الشرق من العراق والشام وغالب البلاد المصرية وجزيرة العرب والهند وباكستان وتركيا والأفغان.

٤- قراءة أبي عمرو البصري:

يُقرأ بها في السودان المجاور لمصر[1]. والله أعلم.

هذا وقد أفادني أخوان فاضلان من السودان بأنَّ عموم السودان يقرؤون

---

(١) انظر «حجة القراءات» لأبي زرعة بتحقيق الشيخ سعيد الأفغاني ص٦٦ وعنه أخذت أسماء الأئمة ورواتهم.

برواية حفص إلا ما كان من شأن الخلاوي الخاصة بتعليم القراءات فيقرأ فيها بروايتي الدوري وورش.

ثانياً - كيفية قراءة القرآن الكريم:

أولاً - صفة قراءة النبيّ ﷺ للقرآن الكريم:

لقد كانت قراءة النبيّ ﷺ مفسّرة حرفاً حرفاً وكان يُقَطِّعُ قراءته آيةً آية، وقد سُئلت أمُّ سلمة رضي الله عنها عن قراءة النبيّ ﷺ فوصفتها بأنها قراءة مفسّرة حرفاً حرفاً. رواه أبو داود والترمذي.

وسئلت عائشة رضي الله عنها عن قراءته عليه الصلاة والسلام أَكانَ يُسِرُّ أم يجهر؟ فقالت: كان كل ذلك يفعل. رواه الترمذي.

وكان ﷺ حسنَ الصوتِ بالقرآن الكريم. فعن البراء بن عازب رضي الله عنه أنه سمع النبيّ ﷺ قرأ في العشاء ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١﴾ [التين] فما سمع أحداً أحسن صوتاً منه. رواه البخاري. وقد أمر بذلك فقال ﷺ: «زَيِّنُوا القرآن بأصواتكم». رواه أبو داود والنسائي.

ومن أهم أحواله ﷺ عند قراءة القرآن الكريم وسماعه البكاء وذلك أثر من آثار التدبّر والخشية واستحضار عظَمةِ الله تعالى عند سماع كلامه فقد روى البخاريُّ ومسلم أنه ﷺ قال لابن مسعود رضي الله عنه وهو على المنبر اقرأ عليّ قلتُ: أقرأ عليك وعليك أُنزل؟ قال: إنّي أحبُّ أَنْ أسمعه من غيري، فقرأت سورة النساء حتى أتيتُ هذه الآية ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ۝٤١﴾ [النساء] قال: حسبك الآن. فالتفتُّ إليه فإذا عيناه تذرفان. تلك هي ملامح قراءة النبيّ ﷺ وعلينا أن نتأسّى به في ذلك لأنَّ جميع أحواله عليه الصلاة والسلام قدوةٌ حسنة لأمته.

ثانياً - أنواع قراءة القرآن عند علماء التجويد:

لقد استخلص العلماء ثلاثة أنواعٍ لقراءة القرآن الكريم وذلك من تَتَبُّعهم لأحوالِ قراءةِ النبيِّ ﷺ والسلف الصالح رضي الله عنهم وهي:

١- الترتيل: ومعناه قراءة القرآن الكريم بتأنٍّ وطمأنينة وتفكّر وتدبّر مع التطبيق العملي لقواعد التجويد.

٢- الحَدْرُ: ومعناه السرعةُ في القراءة مع المحافظة على أحكام التجويد ونطق الحروف نطقاً سليماً.

٣- التدوير: وهو وسطٌ بين الترتيل والحدر وبين الطمأنينة والسرعة مع المحافظةِ على حروف القرآن الكريم ومراعاة أحكام التجويد.

والتفريقُ الدقيق بين هذه الأنواع لا بدّ من تلقّيه على القرّاء المتقنين لهذا العلم.

هذا وللإمام ابن القيّم رحمه الله تعالى لطيفةٌ حسنةٌ في التفاضل بين هذه الأنواع الثلاثة. فقد ذكر رحمه الله تعالى أن ثواب قراءة الحدر أكثر عدداً نظراً لكثرة ما يقرؤه القارىء بهذه الحالة، أمّا ثواب قراءة الترتيل فهو أجلُّ قَدْراً وأعظم مكانة نظراً للتدبّر والتأمّل الذي يَتحصَلُ غالباً عند اتّباع هذه الحالة من القراءة، وهذا المعنى عظيم، وقَلَّ أنْ يفطنَ له غير الربانيين من عباد الله تعالى أمثال الشيخ ابن القيّم رحمه الله.

مناقشات:

١- هل كانت القراءات محصورة بعدد معيّن زمن الصحابة رضي الله عنهم؟ وضِّح ذلك.

٢- متى بدأت تشتهر القراءات السبع؟ وكيف حصل ذلك؟

٣- ما هي شروط القراءات؟

٤- هل يوجد قراءات تحققت فيها شروط الصحة غير القراءات العشر؟ وضّح ذلك.

٥- ما الفرق بين القراءات والمذاهب الفقهية؟

٦- اذكر أسماء الأئمة الكوفيين ورواتهم.

٧- اذكر أسماء الأئمة العشرة غير الكوفيين ورواتهم.

٨- في أيِّ بلاد الإسلام يُقرأ بقراءةِ نافع مع راوييه؟ وضّح ذلك.

٩- في أي بلاد الإسلام يُقرأ بقراءة عاصم برواية حفص رحمه الله؟ وضّح ذلك.

١٠- أين يُقرأ بقراءةِ أبي عمرو البصري؟ وضّح ذلك.

١١- تكلّم عن صفةِ قراءة النبيِّ ﷺ للقرآن الكريم مع الأدلة على ما تقول.

١٢- تكلّم عن أنواع قراءة القرآن الكريم مع بيان الأفضل منها.

ثالثاً - القراءات المحرمة:

وهناك أنواع من القراءات المحرّمة التي يجب الحذر من الوقوع فيها ومنها:

١ - القراءة بالألحان:

وذلك بأن تمشي القراءة على سنن الغناء والأنغام وتخرج عن قواعد التجويد وأصوله، وقد نهى النبيُّ ﷺ عن ذلك فقال: «اقرؤوا القرآن بلحونِ العربِ وإياكم ولحون أهلِ الفسق والكبائر فإنه سيجيءُ أقوامٌ من بعدي يرجعون القرآن ترجيعَ الغناء والرهبانية والنوح لا يجاوز حناجرهم مفتونة قلوبهم وقلوب مَن يعجبهم شأنهم». رواه مالك والنسائي والطبراني والبيهقي.

وقد فسّر العلماء لحون العرب بالقراءة على السجيّة دون تَكَلُّفٍ ولا تَمَحُّلٍ، ولحون أهل الفسق والكبائر بالقراءة بالألحان كما أشار إليه آخر الحديث.

٢- القراءة بالترعيد:

وذلك بأن يرفع القارىء صوته بكلمة ويخفضه بأخرى، وهذه نوع من قراءة الألحان.

٣- القراءة بالتحريف:

وهي القراءة الجماعية التي يقطع القارىء فيها بعض الكلمات ليوافق مَن يقرأ معهم.

٤- القراءة بالقراءات الشاذة:

والقراءة الشاذة ما فقدت شرطاً من الشروط المعتبرة لصحة القراءة وهي ثلاثة:

١- التواتر.

٢- موافقة اللغة العربية.

٣- موافقة الرسم العثماني كما سيأتي.

وقد اتفق العلماء على حرمة القراءة بها في الصلاة وغيرها ويُعَزَّرُ من يفعل ذلك من قِبَل الحاكم المسلم. والله أعلم.

مناقشات:

١- ما هي أنواع اللحن في القراءة؟ وضّح ذلك مع بيان حكم كلٍّ منها.

٢- ما حكم القراءة بالألحان؟ وما الدليل على ذلك؟

٣- ما معنى القراءة بالترعيد؟ وما حكمها؟

٤- ما معنى القراءة بالتحريف؟ وما حكم القراءة بها؟

٥- ما معنى القراءات الشاذة؟ وما حكمها؟

رابعاً - آداب قراءة القرآن الكريم:

ينبغي لقارىء القرآن الكريم أن يراعي الآداب التالية:

١- الطهارة الكاملة ظاهراً وباطناً فلا بدّ من طهارةِ القلب ونقائه وصفائه ليكون مؤهَّلاً لفهمِ كلامِ الله تعالى. ولا بدّ من طهارة الجسد من الحَدثين الأصغر والأكبر قبل التلاوة. أمّا الحدَثُ الأكبر فيحرم على صاحبه تلاوة القرآن الكريم ما لم يتطهّر سواء أكان يقرأ من المصحفِ أو عن ظهرِ قلب. وأمّا الحدثُ الأصغر فلا يجوز لمن قام به أنْ يَمسَّ القرآن الكريم. أمّا إذا قرأ من المصحف دون أن يمسّه أو قرأ عن ظهر قلب فلا حرج في ذلك والأفضل أن لا يقرأ إلاّ على طهارة كاملة. قال الله تعالى: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا

﴿ ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩ ﴾ [الواقعة]. وقال ﷺ: لا يمسّ القرآن إلاّ طاهر.

٢- استقبال القبلة إنْ أمكن ذلك.

٣- الاستعاذة في بدء القراءة.

٤- البسملة في بداية كل سورة ما عدا سورة التوبة، وإنْ بدأ القراءة من وسط السورة فإنْ شاء بَسْمَلَ وإن شاء اقتصر على الاستعاذة.

٥- الخشوع والأدب لأن قارئ القرآن الكريم يناجي ربّه فلا بدّ من مراعاة ذلك، فلا ينبغي للقارئ أنْ يعبثَ ويلهو ويضحك، ومن الأدب مع القرآن التخلّق بأخلاقه.

٦- التفكّر والتدبّر فيما يقرأ. قال الله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤ ﴾ [محمد].

٧- إذا مرّ القارئ بآيةِ رحمة وقف وسأل الله من رحمته، وإذا مرّ بآية استغفار وقف واستغفر الله تعالى، وإذا قرأ آية عذاب وقف واستعاذ بالله تعالى من عذابه، وإذا مرّ بآية تسبيحٍ سبّح بحمدِ الله تعالى، وهكذا كان يفعل رسول الله ﷺ.

٨- الترتيل بأنْ تكون القراءة مرتّلة مفسّرة حرفاً حرفاً.

٩- مراعاة أحكام التجويد وتطبيقها على حروفه وكلماته.

١٠- إذا أراد القارئ أنْ ينهي قراءته وينصرف لشأنٍ آخر فلا ينبغي أن يقطع قراءته إلاّ على آخر آية.

والمستمع للقرآن الكريم كالقارئ في مُعْظَم ما مَرَّ من الآداب، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ

تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾[الأعراف].

مناقشات:

١- من آداب التلاوة الطهارة. وضّح المراد بها ظاهراً وباطناً.

٢- هل يجوز للجنب أن يقرأ القرآن الكريم؟ وضّح ذلك.

٣- هل يجوز للمُحْدِثِ حَدَثاً أصغر أنْ يمسَّ القرآن الكريم؟ أو يقرأ فيه؟ وضّح ذلك.

٤- اذكر سبعة آدابٍ لتلاوة القرآن الكريم واستماعه.

خامساً - أحوال السلف الصالح بعد ختم القرآن الكريم:

لقد كان السلف الصالح رضي الله عنهم يغلبُ عليهم عند ختم القرآن الكريم إحدى ثلاث حالات:

الأولى: فمنهم مَن كان إذا ختم القرآن الكريم أمسك عن الدعاء وأقبل على الاستغفارِ مع الخجلِ والحياء من الله تعالى. وهذا حال مَن غلَبَ عليه الخوفُ من الله عزّ وجلّ وشهود التقصير في العمل الذي يرضيه سبحانه.

الثانية: ومنهم قوم كانوا يصلون الفاتحة بالخاتمة عوداً على بدء من غير فصلٍ بينهما لا بدعاء ولا غيره لقولِ النبيِّ ﷺ فيما يرويه عن ربّه: «مَنْ شغله القرآنُ عن دعائي ومسألتي أعطيتُه أفضلَ ما أُعطي السائلينَ، وفضل كلام الله تعالى على سائر الكلام كفضل الله على خلقه». رواه الترمذي. وعن أُبيِّ بن كعب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنّه كان إذا قرأ: قُلْ أعوذ بربّ الناس افتتح من الحمد لله ربّ العالمين. ثمّ قرأ من البقرة إلى: وأولئك هم المفلحون، ثم دعا بدعاء ختم القرآن، ثمّ قام.

الثالثة: ومنهم قوم كانوا إذا ختموا القرآن الكريم أقبلوا يدعون ربّهم ويسألونه من فضله وهؤلاء هم الأكثرون. وقد لاحظوا معنى الفقر إلى الله تعالى وسَعَةَ رحمتِه فطلبوا منه سبحانه الفضلَ والرحمة. قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [البقرة].

تلك أحوالُ سلفنا الصالح رضي الله عنهم وكلّهم على خيرٍ وفضل ونور من ربّهم ويمكننا نحن أن نتّخذهم قدوةً لنا وأسوة حسنة، ونجمع عند ختم القرآن الكريم بين هذه الحالات كلّها فنستغفر الله تعالى ونرجو رحمته ثم نعود على بدء ونقرأ الفاتحة وأوائل البقرة ثمّ نضرع إلى الله تعالى وندعوه بقلوبٍ خاشعة منكسرة متذللين إليه راجين منه العفوَ عن الذنبِ والتقصير فإنه تعالى على ما يشاء قدير.

جملةٌ من الأدعية المأثورة بعد ختم القرآن الكريم:

عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن قرأ القرآن الكريم كانتْ له عند الله دعوةٌ مستجابة». رواه الطبراني.

وقد كان أنس بن مالك رضي الله عنه يجمع أهله وجيرانه عند الختم رجاءَ بركةِ دعاءِ الختمِ وحضوره.

ويقول الإمام النووي رحمه الله تعالى: يُستحبُّ الدعاءُ بعد ختم القرآن الكريم استحباباً متأكداً تأكداً شديداً، فينبغي أنْ يلحَّ في الدعاء وأن يدعو بالأمورِ المهمة والكلماتِ الجامعة، وأن يكون معظم ذلك كلّه في أمور الآخرة وأمورِ المسلمينَ وصلاحِ سلطانهم وسائرِ ولاةِ أمورهم.

سادساً - آداب الدعاء:

وينبغي العناية بآداب الدعاء ومن أهمها:

١- الوضوء.

٢- استقبال القبلة.

٣- اختيار الأدعية المأثورة.

٤- الثناء على الله تعالى قبل الدعاء وبعده.

٥- الصلاة على النبي ﷺ قبل الدعاء وبعده.

٦- المبالغة في الخضوع والتذلّل والخشوع وذلّ العبودية لله تعالى.

ومن الأدعية المأثورة عن النبي ﷺ في هذا المجال ما يلي:

- عن داود بن قيس قال: كان رسول الله ﷺ يقولُ عند ختم القرآن الكريم: «اللّهمَّ ذكِّرني منه ما نُسِّيتُ، وعلِّمني منه ما جهلتُ، وارزقني تلاوتَهُ آناءَ الليل وأطرافَ النهار، واجعله لي حُجَّةً يا ربِّ العالمين».

- ومما كان يدعو به ﷺ: «يا حيُّ يا قيوم برحمتكَ أستغيثُ لا تَكِلْني إلى نفسي طرفةَ عينٍ وأصلحْ لي شأني كلّه يا أرحم الراحمين».

- اللّهمّ إني عبدك وابنُ عبدك وابن أَمَتكَ ناصيتي بيدكَ ماضٍ فيَّ حُكْمُكَ عَدْلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك بكلِّ اسمٍ هو لكَ سمّيتَ به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علّمته أحداً من خلقك، أو استأثرتَ به في علم الغيب عندك أنْ تجعلَ القرآنَ الكريم ربيعَ قلبي ونور بصري وشفاء صدري وجلاء حزني وذهاب همي وغمي.

- اللَّهمّ إني أسألك موجباتِ رحمتكَ، وعزائمَ مغفرتكَ والسلامةَ من كلّ إثمٍ والغنيمةَ من كلّ برّ والفوز بالجنة والنجاة من النار.

- اللَّهمّ أحْسِنْ عاقبتنا في الأمور كُلِّها وأَجْرِنَا من خِزْيِ الدنيا وعذابِ الآخرة.

مناقشات:

١- تكلّم عن أحوال السلف الصالح عند ختم القرآن الكريم مع الأدلة.

٢- ماذا يغلب على مَن كان يلزم الاستغفار عند ختمِ القرآن الكريم؟

٣- ماذا يغلب على مَن كان يقبل على الدعاء عند ختم القرآن الكريم؟

٤- كيف يمكننا الاقتداء بالسلف رحمهم الله في هذا المجال؟

٥- تكلّم عمّا قاله الإمام النووي رحمه الله في فضل الدعاء عند الختم ونوعه.

٦- ما هي آداب الدعاء؟

٧- اذكر ثلاثة أدعية مأثورة عن النبيّ ﷺ عند ختم القرآن الكريم.

المبحث السابع
الرسم العثماني

ويتضمن هذا المبحث الكلام على المسائل التالية:

١- معنى الرسم العثماني.
٢- مذاهب العلماء في التزام الرسم العثماني.
٣- رسم المصحف بالاصطلاحات الإملائية العصرية.
٤- أسئلة ومناقشات حول البحث.

أولاً - معنى الرسم العثماني:

عندما أراد الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه نسخ المصاحف وتوزيعها على الأمصار شكَّلَ لجنة رباعية لهذا الغرض كما تقدم، وقد رسمَ لهم منهج الرسم بقوله: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيءٍ من القرآن الكريم فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزلَ بلسانهم[1]، وقد كانت اللجنة ثلاثة قرشيين وأنصاريٍّ كما سبق. واصطلح العلماءُ فيما بعد على تسمية هذا المنهج بالرسم العثماني. وما زالت المصاحف الشريفة مكتوبة على ذلك المنهج حتى يومنا هذا كما سبقت الإشارة إليه.

---

(١) «البرهان» للإمام الزركشي ج١ ص٣٧٦.

ثانياً - مذاهب العلماء في التزام الرسم العثماني:

هل الرسم العثماني توقيفي أم باجتهاد الصحابة رضي الله عنهم؟ للعلماء في هذا الأمر مذهبان:

الأول: ذهب جمهور العلماء الإمام مالك وأحمد وأبو عمرو الداني والسخاوي وغيرهم إلى أن الرسم العثماني أمر توقيفي لا يجوز مخالفته مهما اختلفت الاصطلاحاتُ العصرية وادعى بعضُ أهلِ العلم الإجماع على ذلك. واستدل هؤلاء الأئمة على ما ذهبوا إليه بأنَّ الصحابة رضي الله عنهم أجمعوا على هذا الرسم ولم يخالف فيه أحد منهم ولا من التابعين بعدهم. وقد سئل الإمام مالك رحمه الله: أرأيت مَن استكتبَ مصحفاً أترى أن يكتب على ما استحدثه الناسُ من الهجاء اليوم؟ فقال: لا أرى ذلك ولكن يكتب على الكتبةِ الأولى[1].

الثاني: وذهب بعض العلماء ومنهم ابن خلدون والقاضي أبو بكر الباقلاني والعز بن عبد السلام وغيرهم إلى أنَّ رسم المصاحف أمر اصطلاحي اجتهادي ولا توقيف فيه.

واستدل القاضي الباقلاني على ذلك بأن الله تعالى لم يفرض على الأمة نوعاً من الكتابة ولم يرد نصٌّ من الكتاب ولا من السنة ولا من الإجماع يفيد أنَّ الرسم العثماني أمر توقيفيٌّ، بل السنة دلت على جواز رسم المصحف بأي وجه كان والرسول ﷺ كان يأمر كُتَّاب الوحي بكتابة القرآن الكريم، ولم يبين لهم وجهاً معيناً يلتزمون به ولا نهى أحداً عن كتابته[2].

---

(١) «مناهل العرفان» ج١ ص٣٧٩.

(٢) المرجع السابق ج١ ص٣٨٠.

ثالثاً - رسم المصحف بالاصطلاحات الإملائية العصرية:

بعد أنْ عرفنا مذاهب العلماء في التزام الرسم العثماني يرد سؤال هل يجوز كتابة المصحف الشريف بالاصطلاحات الإملائية العصرية أم لا؟ لا شَكَّ أن جمهور العلماء القائلين بأن الرسم العثماني توقيفيٌّ لا يجيزون ذلك احتياطاً لأمرِ القرآن وصيانةً له عن التغيير والتبديل في كتابته ورسمه على تعاقب الأجيال والعصور.

وذهب جماعة من العلماء إلى إباحة ذلك ومنهم الإمام الزركشي رحمه الله.

وممن اشتُهِرَ عنه هذا الرأي سلطانُ العلماء العِزُّ بنُ عبدالسلام رحمه الله فقد قال: لا تجوز كتابة المصحف الآن على الرسم الأول باصطلاح الأئمة لئلا يوقع في تغيير من الجهال، ولكن لا ينبغي إجراء هذا على إطلاقه لئلا يؤدي إلى دروس العلم، وشيء قد أحكمته القدماء لا يترك مراعاةً لجهلِ الجاهلين ولن تخلو الأرض من قائم لله بحجة[١].

يقول الدكتور صبحي الصالح رحمه الله: وملخص هذا الرأي الأخير - مشيراً إلى رأي العز - أن العامة لا يستطيعون أن يقرؤوا القرآن الكريم في رَسْمِه القديم فيحسنُ بل يجبُ أن يكتب لهم بالاصطلاحات الشائعة في عصرهم، ولكن هذا لا يعني إلغاء الرسم العثماني القديم لأن في إلغائه تشويهاً لرمزٍ ديني عظيم قد اجتمعت عليه الكلمةُ واعتصمت به الأمة من الشقاق[٢].

---

(١) «مناهل العرفان» ج١ ص٣٨٥ أو «البرهان في علوم القرآن» للزركشي ج١ ص٣٧٩.

(٢) «مباحث في علوم القرآن» ص٢٨.

ويقول الشيخ محمد عبدالعظيم الزرقاني رحمه الله: أقول: وهذا الرأي - رأي العز - يقوم على رعاية الاحتياط للقرآن الكريم من ناحيتين، ناحية كتابته في كل عصر بالرسم المعروف فيه إبعاداً للناس عن اللبس والخلط في القرآن الكريم، وناحية إبقاء رسمه الأول المأثور يقرؤه العارفون ومَنْ لا يُخشى عليهم الالتباسُ، ولا شك أن الاحتياط مطلبٌ ديني جليل خصوصاً في جانب حماية التنزيل(١).

هذا ومع رجاحة وجهة العز بن عبدالسلام رحمه الله ومَنْ وافقه فإنني أقترح أن يعرض مثل هذا الأمر الخطير على مجمعٍ من مجامع الفقه الإسلامي الجماعي خصوصاً والأدلةُ الشرعيةُ ليست صريحةً في شيء بعينه والأمرُ قائم على الاجتهاد والاحتياطِ لدينِ الله وما يقره مجموع علماء المسلمين أو أهلُ التحقيقِ والحذق العلمي منهم فلا حرج من العمل به ولو خالف بعضهم في ذلك، والله أعلم.

رابعاً - أسئلة ومناقشات حول البحث:

١- ما معنى الرسم العثماني؟ وهل كتبت مصاحف على غير منهجه؟

٢- اذكر مذاهب العلماء في التزام الرسم العثماني مع الأدلة.

٣- وضِّح رأي العز بن عبدالسلام في رسم المصحف بالاصطلاحات العصرية.

٤- ما هو الرأي الأوفق والأوجه بالنسبة لكتابة المصحف بغير الرسم العثماني؟ وضح ذلك.

---

(١) «مناهل العرفان» ج١ ص٢٨٥.

المبحث الثامن

التفسير والمفسرون

ويشتمل هذا المبحث على الموضوعات التالية:

أولاً: نشأة التفسير وتطوره.

ثانياً: الفرق بين التفسير والتأويل.

ثالثاً: أنواع التفسير ومناهجه.

النوع الأول: التفسير بالمأثور وأقسامه:

١- تفسير القرآن بالقرآن ٢- تفسير القرآن بالسنة ٣- تفسير الصحابة ٤- تفسير التابعين ٥- الإسرائيليات في كتب التفسير وأحكامها.

النوع الثاني: التفسير بالرأي وحكمه وشروطه:

١- معنى التفسير بالرأي ٢- أنواع الرأي وحكم كل منها ٣- شروط التفسير بالرأي.

رابعاً: مراتب التفسير.

خامساً: آداب المفسر وشروطه.

سادساً: طبقات المفسرين عبر العصور الإسلامية.

الطبقة الأولى: الصحابة.

الطبقة الثانية: التابعون.

الطبقة الثالثة: تابع التابعين.

الطبقة الرابعة: ابن جرير الطبري وعصره.

الطبقة الخامسة: التخصص العلمي.

الطبقة السادسة: المفسرون المعاصرون.

سابعاً: أشهر المفسرين والتفاسير في القديم والحديث:

١- المفسرون بالمأثور وتفاسيرهم.

٢- المفسرون بالرأي وتفاسيرهم.

٣- المفسرون لآيات الأحكام وتفاسيرهم.

٤- المفسرون المعاصرون وتفاسيرهم.

ثامناً: غرائب التفسير:

١- غرائب الباطنية ٢- غرائب الشيعة ٣- غرائب المتصوفة.

تاسعاً: أسئلة ومناقشات حول البحث.

أولاً - نشأة التفسير وتطوره:

معنى التفسير:

التفسير لغة: الإظهار والكشف.

واصطلاحاً: علم يُعرفُ به فَهْمُ كتابِ الله المنزل على نبيه محمد ﷺ وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه[1].

إن علم التفسير هو أول علوم القرآن الكريم نشأة فقد وجد منذ عصر الرسول ﷺ فكان الصحابة رضي الله عنهم يفهمون القرآن الكريم بسليقتهم العربية الأصيلة، وقد يشكل عليهم أحياناً بعضُ المرادِ بآياته وعندها يسألون رسول الله ﷺ فيجيبهم عما استفسروا عنه. عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام] شقّ ذلك على الناس فقالوا يا رسول الله: وأَيُّنا لا يظلم نفسه؟ قال: إنه ليس الذي يعنون. ألم تَسمعوا ما قال العبدُ الصالح: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان][2].

من هذا نعلم أنَّ الصحابةَ رضي الله عنهم أخذوا القرآنَ الكريم عن رسولِ الله ﷺ لفظاً ومعنى ونقلوه لِمَنْ بعدَهم كذلك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: فصل في أن النبي ﷺ بَيَّنَ لأصحابه معاني القرآن كما بَيَّنَ لهم ألفاظه فقوله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل] يتناول هذا وذاك[3].

وقال مجاهد رضي الله عنه: عرضتُ المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته أُوقِفُه عند كلِّ آيةٍ وأسألهُ عنها[4].

وهكذا سار التابعون على منهج الصحابة رضي الله عنهم في تلقين القرآن

---

(١) «البرهان في علوم القرآن» ج١ ص١٣.

(٢) رواه الشيخان وأحمد وغيرهم.

(٣) «مقدمة في أصول التفسير» لابن تيمية ص٣٥.

(٤) المرجع السابق ص١٠٢.

الكريم إلى مَنْ بعدهم غير أن عصرهم قد تميز بظهور التدوين فيه وصاروا ينقلون التفسيرَ لمن بعدهم مشافهةً وكتابة.

ومرت الأيام فاتسعت المعارفُ وازدهرت النهضة العلمية بين المسلمين وخصوصاً في القرنين الثاني والثالث وما بعدهما، وبدأ التفسير يأخذ منحى آخر حيث بدأ كلُّ عالمٍ يفسر القرآنَ الكريم حسب تخصصه العلمي الذي تَضَلَّع فيه أكثر من غيره؛ فمن مفسرٍ يبرزُ إعجازَ القرآن اللغوي، وآخر يكتب في أحكام القرآن، وثالث يكتب في إعرابه، وغيره يكتب مُبَيِّناً التصور العقدي في القرآن الكريم، وهكذا إلى أنْ وصلت إلينا مكتبةٌ إسلامية ثرة بمختلف الاختصاصات العلمية كلها تَنهلُ من مَعين هذا الكتاب العظيم الذي لا تنفد معانيه ولو كانت الأبحر مداداً والأشجار أقلاماً.

وسيأتي في ثنايا هذا المبحث تفصيل أوسع لهذه المعاني إن شاء الله.

ثانياً - الفرق بين التفسير والتأويل:

لقد عرفنا معنى التفسير، أما التأويل فأصله في اللغة من الأوْل بسكون الواو ومعنى قولهم: ما تأويل هذا الكلام؟ أي إلامَ تَؤُولُ العاقبةُ في المراد به. ويقال: آلَ الأمرُ إلى كذا، أي: صارَ إليه(١).

أما معنى التأويل عند العلماء المفسرين فقد قال بعضهم: إنه والتفسير بمعنى واحد، والصحيح أنَّ لكلٍّ منهما معنى يختلف عن الآخر، ولعل أوضح ما قيل في التفريق بينهما ما قاله الإمام أبو نصر القشيري: ويعتبر في التفسير الاتباع والسماع وإنما الاستنباط فيما يتعلق بالتأويل(٢). هذا ولا

---

(١) «البرهان في علوم القرآن» للإمام الزركشي ج٢ ص١٤٨.

(٢) المرجع السابق ج٢ ص١٥٠.

بد في الاستنباط أن يكون صادراً عن أهل العلم الذين توفرت فيهم شروط التفسير على ما سيأتي بيانه إن شاء الله.

ثالثاً - أنواع التفسير ومناهجه:

لقد اتبع المفسرون رحمهم الله مناهجَ متعددة في تفسيرِ كلام الله تعالى، وترجعُ هذه المناهجُ في جملتها إلى منهجين أساسيين هما:

١- التفسير المأثور ٢- التفسير بالرأي.

ويندرج تحت كل منهما تفريعات متعددة نُجْمِلُها فيما يلي إن شاء الله.

النوع الأول: التفسير بالمأثور وأقسامه:

١- معنى التفسير بالمأثور:

هو أن يقتصر المفسر على ما ورد في تفسير الآية من الآثار عن النبي ﷺ أو عن صحابته والتابعين رضي الله عنهم فينقلها دون زيادة عليها اللهم إلا زيادة لغوية أو توقيفاً وجمعاً بين الأقوال المأثورة الواردة في معنى الآية. ويبتعد أهلُ هذا المنهج عن الاستنباط والاستنتاج ما وسعهم الأمرُ مكتفينَ بالمأثورِ عمن نزل عليه القرآن الكريم أو مَنْ عاصره وسمع منه أو قرب عهده به عليه الصلاة والسلام. وهذا منهجٌ سديد وموفق وهو من أفضلِ مناهج التفسير وأسلمها؛ بل هو أساسها وأصلها ويجب الرجوع إليه إذا صح السند وضبطت الرواية.

٢- أقسام التفسير بالمأثور:

ينقسم التفسير بالمأثور إلى أربعة أقسام:

١- تفسير القرآن بالقرآن:

إن أحسن أنواع التفسير تفسير القرآن بالقرآن، وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب أنَّ أصحَّ الطرق في ذلك أن يفسّر القرآنُ بالقرآن، فما أجمل في مكانه فإنه قد فسّر في موضع آخر، وما اختصر في مكانه فقد بسط في موضع آخر(١).

وتفسير القرآن بالقرآن يأتي على وجوه:

أولها: أن يكون البيان مضمراً في الآية نفسها وذلك كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ﴿٣١﴾﴾ [الرعد].

فجواب الشرط في هذه الآية مضمر فيها وتقديره: لكان هذا القرآن. أي: لو كان هناك قرآنٌ تُسيَّرُ به الجبال أو تقطع به الأرض أو يكلم به الموتى لكان هذا القرآن، والله أعلم.

ثانيها: أن تومىء الآية إلى معنى يستخلص من ثناياها وهو غير مصرح به وذلك كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الزمر].

في هذه الآية شرطٌ لا جوابَ له وهو: أَفمنْ شرح الله صدره للإسلام.. وجوابه أُومِىءَ إليه في آخرِ الآية بقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ والتقدير على هذا: أفمن شرح الله صدره للإسلام كمَنْ قسا قلبه، والله أعلم.

ثالثها: أنْ يكون البيان واضحاً جلياً لكل مَنْ يتأمل كتابَ الله تعالى، وأحياناً يأتي البيان عقب الإبهام مباشرة وذلك كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ

---

(١) انظر «المقدمة في أصول التفسير» لابن تيمية بتحقيق عدنان زرزور ص٩٣.

﴿خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١﴾ [المعارج].

فكلمة هلوعاً في الآية من قبيل المبهم الذي يحتاج إلى بيان وتوضيح وقد وَضَّحتها الآية بعدها ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾. . والله أعلم.

وكذلك قوله تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ ۝٩٧﴾ [آل عمران]. فقد بين سبحانه هذه الآيات بقوله بعدها مباشرة: ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ ۝٩٧﴾ [آل عمران].

وأحياناً يكون البيان منفصلاً عن الإبهام في نفس السورة أو غيرها كقوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة] في فاتحة الكتاب وبيانه في سورة الانفطار في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ۝١٩﴾ [الانفطار].

وكذلك قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ۝٧﴾ [الفاتحة]. قد بَيَّنَ سبحانه الذين أنعم عليهم في سورة النساء في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩﴾ [النساء].

والأمثلةُ على ذلك كثيرة لمن تأمل[1].

٢- تفسير القرآن بالسنة:

قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٤﴾ [النحل].

---

(١) انظر «البرهان في علوم القرآن» للزركشي ج٢ ص١٨٣.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [النحل].

إنَّ السنةَ النبوية شارحةٌ للقرآن الكريم ومبينةٌ وموضِّحة له بل إن كثيراً من أحكام الإسلام وفرائضه ما أمر الله بها أمراً عاماً مجملاً وترك بيان تفاصيله وجزئياته للرسول ﷺ كالطهارة والصلاة والحج والزكاة والأنكحة والجنايات وغير ذلك. فهذه الأحكامُ الشرعية بمثابة شعائر لهذا الدين، ومع هذا فلا يمكن فهمها على حقيقتها ومعرفة كيفية الالتزام بها بدون الرجوع إلى السنة النبوية. قال رسول الله ﷺ: أَلا يوشكُ رجلٌ شبعان متكيء على أريكته يقول: «حَسْبُنَا ما في كتاب الله ألا وإني أُوتيتُ القرآنَ ومِثْلَه معه»[1] وقال الإمام الشافعي رحمه الله: كل ما حكم به الرسول ﷺ فهو مما فهمه من القرآن الكريم[2].

وهذا الأمر لا يحتاج إلى مزيدٍ من الشرح والبيان لوضوحه وإشراقه. ومن هنا نعلم أنَّ الجهود التي يبذلها المستشرقون وأذنابهم من أجل الإساءة للسنة ورفضها إنما هي جهودٌ مركزة لهدم الإسلام كله والله تعالى يقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴿٧﴾﴾ [الحشر] ويقول سبحانه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴿٨٠﴾﴾ [النساء]. ولقد قَيَّضَ اللهُ تعالى للسنة الشريفة رجالاً قدموا لها من الجهود الجبارة ما تنوءُ بحمله الجبال حتى أوصلوها لنا صافيةً نقية صحيحة كما تَلَفَّظَ بها رسولُ الله ﷺ وقد نخلت بمنخل علمي دقيق. وكتب الجرح والتعديل ومصطلح الحديث أكبر شاهد، علماً بأنَّ هذه الدقة لم توجد عند أمة من الأمم كما وجدت عند الأمة الإسلامية.

---

(١) رواه أبو داوود والترمذي وابن ماجة وقال الترمذي حسن غريب من هذا الوجه.
(٢) «مقدمة في أصول التفسير» لابن تيمية ص٩٣.

فالحمد لله الذي حفظ لنا سنة نبينا التي حفظت لنا ديننا الذي هو عِصمةُ أمرنا وبه نجاتنا في الدنيا والآخرة.

٣- تفسير الصحابة رضي الله عنهم:

أما تفسير الصحابة رضي الله عنهم فهو في المرتبة الثالثة بعد تفسير القرآن بالقرآن وتفسير القرآن بالسنة، وذلك لأنَّ الصحابةَ رضي الله عنهم قد سمعوا من النبي ﷺ ونهلوا من معينه الصافي وكانوا على قدر من الإيمان وسلامة الفطرة والبيان المشرق والسليقة الأصيلة لا يضاهيهم أحدٌ في شيء من ذلك كله. وهم لذلك كانوا أقرب لإدراك معاني القرآن الكريم بأسراره.

مذاهب العلماء في تفسير الصحابة رضي الله عنهم:

ذهب بعض العلماء إلى أن تفسير الصحابة رضي الله عنهم له حكمُ الحديثِ المرفوعِ إلى النبيِّ ﷺ لأنهم غالباً لا يقولون في القرآن إلا ما سمعوه من النبيِّ ﷺ قال الحاكم: إنَّ تفسيرَ الصحابيِّ الذي شهد له الوحيُ والتنزيلُ له حكمُ المرفوعِ، أي: إلى النبيِّ ﷺ.

وذهب جمهور أهل العلم إلى أن تفسير الصحابة له حكم المرفوع إلى النبي إنْ كان في أسباب النزول أو فيما ليس للرأي فيه مجالٌ كوصفِ الجنة والنار ونحو ذلك شريطة أنْ لا يعرف مَنْ نقل عنه هذا التفسير بالأخذ عن أهل الكتاب الذين دخلوا في الإسلام.

أما إنْ كان تفسير الصحابة مما يدخله الرأيُ والاجتهادُ والاستنباط فهو كمذهبِ الصحابيِّ في الفروع الفقهية، وقد ذهب الشافعي رحمه الله إلى أن مذهب الصحابي فيها ليس حجة على مَنْ بعده، وذهب أبو حنيفة رحمه الله إلى وجوبِ الأخذِ بأقوالِ الصحابة والتخير منها وعدم الخروج عنها كلها

والله أعلم.

٤- تفسير التابعين:

أما أقوال التابعين فقد عَدَّها بعض العلماء حجةً لأنهم أخذوها عن الصحابة رضي الله عنهم.

ولكن جمهور العلماء على أنها ليست حجة. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وقال شعبة بن الحجاج وغيره: أقوالُ التابعين في الفروع ليست حجةً، فكيف تكون حجة في التفسير؟ يعني إنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم، وهذا صحيح، أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة[1].

٥- الحكم على الإسرائيليات في كتب التفسير:

أولاً: معنى الإسرائيليات:

الإسرائيليات: هي ما يُنقلُ في كتب التفسير عَمَّنْ أسلمَ من أهلِ الكتاب مما علموه من كتبهم ودياناتهم السابقة وعلمائهم.

ويكثرُ في هذه الأخبار عادة الخرافاتُ والأباطيلُ نظراً لتحريفِ الكتب السماوية السابقة ومسخها بعقول علماء الزيغ والضلال وأهوائهم، ولا شك أن كثيراً من هذه الإسرائيليات قد أدخل على هذه الأمة الإسلامية بقصد تشويه الحقائق والتشكيك في هذا الدين الإسلامي العظيم.

ثانياً: حكم رواية الإسرائيليات:

إن المنقول من الأخبار الإسرائيلية لا يخرج أن يكون واحداً من ثلاثة

---

(١) انظر «المقدمة في أصول التفسير» لابن تيمية ص١٠٥.

أمور:

١- أنْ يُعْلَمَ صِدْقُه مما عندنا في ديننا، وهذا صحيحٌ ولا غبارَ عليه.

٢- أن يعلم كذبه من أخبار ديننا، وهذا كذبٌ مردودٌ أياً كان قائله.

٣- أن لا يعلم صدقه ولا كذبه. وهذا لا نصدقه ولا نكذبه وتجوزُ حكايتُه للاستشهادِ لا للاعتقاد، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه، والله أعلم[١].

النوع الثاني: التفسير بالرأي وحكمه وشروطه:

١- معنى التفسير بالرأي.

المراد بالتفسير بالرأي - أو بالدراية كما يطلق عليه - هو ما كان اعتمادُ المفسِّرِ فيه على الاجتهاد والاستنباط المستند إلى الأصول اللغوية والشرعية ولا يقتصر المفسر بالرأي على نقل معنى الآية عَمَّنْ سلف من العلماء السابقين له.

٢- أنواع الرأي وحكم كل منها.

ينقسم الرأي عند أهل العلم إلى قسمين: رأي محمود ورأي مذموم.

أما الرأي المذموم: فهو ما كان الباعث عليه الهوى المحض، أو كان قائله لا يصدرُ فيه عن علمٍ ولا دراية. وهذا لا شك أنه رأي خاطىء والإقدامُ عليه حرام وضلال في أيّ بابٍ من أبواب العلم، وتفسير القرآن الكريم بهذا الرأي تقحم للنار على بصيرة. فعن ابن عباس رضي الله عنه

---

(١) انظر «المقدمة في أصول التفسير» لابن تيمية ص١٠٥.

قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار»(١).

وسئل أبو بكرٍ الصديق رضي الله عنه عن قوله تعالى: ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ ﴾ [عبس]. فقال: أيُّ سماءٍ تُظلّني، وأي أرض تقلني إنْ قلتُ في كتابِ الله ما لا أعلم(٢).

وأما الرأي المحمود: فهو ما كان مستنداً إلى أصول علمية من اللغة والشرع ووفق ضوابط دقيقة واضحة. وهذا منهجٌ جيد وطيب، بل قد حَثّنا اللهُ تعالى على تدبر آياته في آيات كثيرة قال الله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد].

وقد قال الصحابة رضي الله عنهم في تفسير القرآن الكريم أقوالاً واختلفت آراؤهم في ذلك فلولا أنهم قالوا باجتهادهم ورأيهم واستنباطهم لما اختلفت آراؤهم في الآية الواحدة.

قال الإمام ابن تيمية رحمه الله بعد أنْ سرد أقوال السلف في التحرج من القولِ في القرآن بغير علم: فهذه الآثارُ الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولةٌ على تَحرُّجهم عن الكلام في التفسير بما لا عِلْمَ لهم به، فأما مَنْ تكلم بما يعلم من ذلك لغةً وشرعاً فلا حرجَ عليه، ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوالٌ في التفسير ولا منافاة لأنهم تكلموا فيما علموه وسكتوا عما جهلوه، وهذا هو الواجب على كل أحد فإنه كما يجب السكوت عما لا عِلْمَ له به فكذلك يجبُ القولُ فيما سئل عنه مما يعلمه

---

(١) رواه الترمذي وقال حسن صحيح.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٧٣.

لقوله تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ١٨٧﴾ [آل عمران] ولما جاء في الحديث المروي من طرق: «مَنْ سُئِلَ عن علمٍ فكتمه أُلجمَ يومَ القيامة بلجامٍ من نار»[1].

رحم الله شيخ الإسلام ما أدقَّ فَهْمه وأوضحه، فكم من أناس لبسوا لباس العلماء وحجروا على الناس عقولَهم وضَيَّقُوا عليهم في هذا الباب. وقال الإمام الغزاليُّ رحمه الله: إنَّ في مجال فهم معاني القرآن مجالاً رحباً ومتسعاً بالغاً وإنَّ المنقولَ من ظاهر التفسير ليس منتهى الإدراك فيه فبطل أن يشترط السماع في التأويل وجاز لكل واحدٍ أن يستنبط من القرآن بقدر فهمه وحسب عقله[2] وما أحسن أن يقال بعد كلام هذين الإمامين: قَطعتْ جهيزةُ قولَ كُلِّ خطيب.

٣- شروط التفسير بالرأي:

لقد وضح العلماء شروطاً لا بد من توفرها في التفسير بالرأي حتى يكون مقبولاً ومرضياً، وأهم هذه الشروط أربعة وهي:

١- الرجوع إلى المأثور الصحيح عن النبي ﷺ وعدم مخالفته.

٢- الرجوع إلى المأثور الصحيح عن الصحابة رضي الله عنهم فإنَّ أقوالهم في التفسير حجةٌ لا يجوزُ مخالفتها إذا كانت في أسباب النزول أو فيما ليس للرأيِ فيه مجالٌ، وقد تقدم توضيح ذلك.

٣- الاعتماد على اللغة العربية مع التحرز عن صرف الآيات إلى ما لا يدل عليه المشهورُ من كلامِ العرب.

---

(١) «المقدمة في أصول التفسير» لابن تيمية ص١١٤.

(٢) «إحياء علوم الدين» ج٣ ص٣٦-٣٧.

٤- الاعتماد على مقتضى الكلام وما يدل عليه قانون الشرع من خاص وعام ومطلق ومقيد وناسخ ومنسوخ ونحو ذلك[1] وبهذا يظهر لنا مدى الدقة والورع والخشية عند علمائنا رحمهم الله الذين كانوا يقدرون كلام الله قَدْرَهُ ولا يبيحون لأنفسهم التهجم عليه والقول فيه بغير علم وليس أي علم؛ بل لا بد من العلم المستند إلى الضوابط والموازين الصحيحة المأخوذة من معين اللغة التي نزل بها القرآنُ الكريم ومن معين الشرع وأصوله وموازينه الدقيقة في الفهم والاستنباط. رحم الله علماءنا وسلفنا الصالح وجزاهم عنا وعن الإسلام خير الجزاء.

رابعاً - مراتب التفسير:

لا شك أن للتفسير مراتب متفاوتة بحسب حال المُفَسِّرِ وعِلْمِهِ ومواهبه التي منحه الله إياها، ثم بحسب الآيات المفسّرة ومدى وضوحها من الإجمال القائم فيها، وأخيراً بحسب حال مَنْ يُفسر لهم القرآن الكريم وحاجتهم وقدرتهم على الاستيعاب. هذا وقد قسم الشيخ محمد عبده رحمه الله التفسير إلى مرتبتين: مرتبة عليا ومرتبة دنيا.

أما المرتبة العليا فلا تتم إلا بتوافر ما يلي:

١- فهم حقائق الألفاظ المفردة عن طريق أهل اللغة.

٢- فهم الأساليب الرفيعة بممارسة الكلام الرفيع ومزاولته.

٣- علم أحوال البشر ومعرفة السنن الإلهية في تطور الأمم واختلاف أحوالهم من ضَعْفٍ وقوة وعزة وذلة.

---

(١) انظر «البرهان للزركشي» ج٢ ص١٥٦-١٦١ و«الإتقان» للسيوطي ج٢ ص٣٠٤.

٤- العلم بوجه هداية القرآن الكريم للناس وما كان عليه العربُ في الجاهلية، فقد رُويَ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: لا يعرف فضل الإسلام مَنْ لم يقرأ حياةَ الجاهلية.

٥- العلم بسيرة النبي ﷺ وأصحابه وما كانوا عليه.

أما المرتبة الدنيا من التفسير: فهي المعاني العامة التي يستشعر بها المسلم عظمةَ مولاه والتي يفهمها الإنسانُ من إطلاق اللفظ الكريم، وهي قَدْرٌ يكادُ يكون مشتركاً بين عامة الناس قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ [القمر][1].

رحم الله الشيخ الإمام محمد عبده فقد كان موفقاً في هذه المعاني القيمة النافعة وإنَّ القلب لَيتلقَّاها بالقبول والاستحسان رغم الملاحظات الكثيرة التي نأخذها على فكر الشيخ ومنهجه التغريبي، والحكمةُ ضالةُ المؤمنِ أنَّى وجدها فهو أحق الناس بالتقاطها، والله أعلم.

خامساً - آداب المفسر وشروطه:

١- آداب المفسر:

إن الذي يضع نفسه موضع الشارح والمفسر لكلام الله تعالى فقد وضعها في مكان لا بد أن يعطيه قدره، ولا بد أنْ يعرفَ جلالَ كلام الله ورِفْعَتَهُ فهو ليس كأيِّ كلام آخر. والمفسر عندما يبين معنى آية فهو إنما يوضح مراد الله منها، وليس هذا بالأمر السهل الميسور الذي يَحقُّ لكلِّ أحدٍ أنْ يقول فيه ما يقول.

---

(١) وانظر «مناهل العرفان» للزرقاني ج١ ص٥١٩-٥٢٢.

بل وليس استعمال العقل والفكر والعلوم التي هي بمثابة الآلة للتفسير كاللغة وغيرها ليس هذا وحده كافياً لفهم أسرار القرآن الكريم ومعانيه وتوجيهاته الربانية.

يقول الإمام الزركشي رحمه الله: كتابُ الله بحرهُ عميق وفَهمهُ دقيق لا يصل إلى فهمه إلا مَنْ تبحر في العلوم وعامل الله بتقواه في السر والعلانية وأَجَلَّهُ عن مواقف الشبهات. واللطائفُ والحقائق لا يفهمها إلا مَنْ ألقى السمع وهو شهيد[1].

نعم إنها التقوى والبعد عن الشبهات هي التي تجعلُ صاحبها مُنورَ القلب يَفقهُ عن الله ما يقول وهي التي تجري ينابيعُ الحكمةِ من القلب على اللسان فيصير العبد ينظر بنظر الله ويسمع بسمعه وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة].

ومن أهم ما يساعد على فهم كلام الله تعالى التخلق بالآيات القرآنية عملاً وسلوكاً في الحياة اليومية العملية وعندها يفهم الإنسان ما لا يفهمه الآخرون. فمثلاً آيات الجهاد في سبيل الله ومحاربة الكفر والإلحاد. هذه الآيات مَنْ يعيشها متخلِّقاً بها مجاهداً في سبيل الله حقاً فإنه يَتكشَّفُ له منها من الأسرار ما لا يتكشفُ للقاعدين المستسلمين للنعيم والترف المنهمكين في الاستكثار من حُطامِ الدنيا وشهواتها. وهذا أمرٌ يُحسُّ به مَنْ جَرَّبه وقد لا يفطنُ له الآخرون.

وكذلك صفات القانتين لله المستغفرين بالأسحار الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع لن يَفهمَ أسرارها الغاطُّونَ في سباتٍ عميق، والمتخمون بالأصناف والألوان والذين لا يصلون الفجر إلا قبيل شروق الشمس أو بعد

---

(١) انظر «البرهان في علوم القرآن» للزركشي ج٢ ص١٥٣.

ذلك. ومثل آخر: آيات الدعوة إلى الله تعالى وتبليغ أحكامه للناس لا يُصيبُ مُرادَها مَنِ انقطع للعبادة والتزهد أو انكبَّ على أمرِ نفسه متظاهراً بإصلاحها تاركاً المجتمع في تيهه وضياعه. وجماع القول في هذا قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٨٢﴾ [البقرة] وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العنكبوت].

٢- شروط المفسر:

لقد اشترط العلماء فيمَنْ يُفَسِّرُ القرآنَ الكريم أنْ يكون عنده جملةٌ من العلوم تُمكِّنهُ من الكلام في التفسير، وأهم هذه العلوم أذكره بإيجازٍ فيما يلي:

١- علوم اللغة العربية بأنواعها كالنحو والصرف والبلاغة والبيان. قال مجاهد: لا يحل لأحدٍ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالماً بلغات العرب. وقال الإمام مالك رحمه الله: لا أُوتَى برجلٍ غير عالم بلغات العرب يفسر كتاب الله تعالى إلا جعلته نكالاً[1].

٢- علم أصول الفقه من خاصٍ وعام ومُطْلَقٍ ومقيَّد وناسخٍ ومنسوخ وأنواع دلالة اللفظ على المعنى ونحو ذلك.

٣- علم التوحيد والعقائد الإسلامية.

٤- معرفة أسباب النزول.

---

(١) «التبيان في علوم القرآن» للصابوني ص١٧٨.

٥- علم السنة النبوية الشريفة المبينة للمُجْمَلِ والمُبْهَمِ من القرآن الكريم.

٦- علم القراءات وأصولها وطرقها.

٧- ويذكر العلماء في هذا المجال علم الموهبة، وهو علمٌ يورثه الله لمن عملَ بما علم، ولا يناله مَنْ في قلبه بِدعةٌ أو كِبْرٌ أو حبٌّ للدنيا أو ميل إلى المعاصي[١].

ولا شك أن هذه الشروط وغيرها هي شروط للمرتبة العليا من التفسير التي سبقت الإشارة إليها، والمهم في هذا المجال أن لا يقول المسلم في تفسير كلام الله قولاً لا يستند فيه إلى علمٍ صحيح تطمئن إليه النفس وينشرح له الصدر ويتفق مع أصول اللغة وكلام العلماء الربانيين من هذه الأمة، والله أعلم.

سادساً - طبقات المفسرين عبر العصور الإسلامية:

الطبقة الأولى: الصحابة الكرام رضي الله عنهم.

لقد تقدم معنا أن علم التفسير من أقدم العلوم الإسلامية نشوءاً وتدويناً، وقد اشتهر كثير من الصحابة رضي الله عنهم في التفسير. قال الإمام السيوطي رحمه الله: اشتهر من الصحابة في التفسير عشرة: الخلفاء الأربعة وابن مسعود وابن عباس وأبيّ بن كعب وزيد بن ثابت وأبو موسى الأشعري وعبدالله بن الزبير رضي الله عنهم جميعاً[٢].

هذا وأكثرُ الصحابةِ رضي الله عنهم شهرةً في التفسير ابن عباس وابن

---

(١) انظر «مناهل العرفان في علوم القرآن» للزرقاني ج٢ ص٥١.

(٢) «الإتقان في علوم القرآن» ج٢ ص١٨٧.

مسعود رضي الله عنهما.

أما ابن عباس رضي الله عنه: فقد دعا له رسول الله ﷺ فقال: «اللهم فَقِّهه في الدِّين وعَلِّمه التأويل»[1] وفي رواية الطبراني: «اللهم علمه تأويل القرآن»[2] وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يدخله مجلس الشورى مع كبار الصحابة وهو غلام صغير لمكانته العلمية وفقهه في دين الله، وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: نعم الترجمان للقرآن ابن عباس[3].

وأما ابن مسعود رضي الله عنه: فهو كذلك من أجلّاء الصحابة رضي الله عنهم وعلمائهم في التفسير، فقد قال عن نفسه رضي الله عنه: والذي لا إله غيره ما نزلت آيةٌ من كتابِ الله تعالى إلا وأنا أعلمُ فيمَنْ نزلتْ وأين نزلت، ولو أعلمُ مكانَ أحدٍ أعلم بكتابِ الله مني تبلغه الإبلُ لركبتُ إليه[4].

الطبقة الثانية: التابعون رضي الله عنهم.

أما التابعون فقد اشتهر منهم عدد كبير في التفسير وقد قسمهم العلماء إلى ثلاث مدارس: مدرسة مكة - مدرسة المدينة - مدرسة العراق وأعرض هنا تعريفاً موجزاً بهذه المدارس.

١- مدرسة مكة المكرمة: نقل الإمام السيوطي رحمه الله عن شيخ

---

(١) رواه الإمام أحمد، واقتصر البخاري على قوله: اللهم فقهه في الدين.
(٢) «مقدمة في أصول التفسير» لابن تيمية ص٩٦.
(٣) المرجع السابق ص٩٧.
(٤) رواه البخاري ومسلم.

الإسلام ابن تيمية أنه قال: أعلم الناس بالتفسير أهل مكة لأنهم أصحاب ابن عباس كمجاهد وعطاء بن أبي رباح وعكرمة مولى ابن عباس وطاووس وسعيد بن جبير وغيرهم رحمهم الله[١].

٢- مدرسة المدينة المنورة: وقد اشتهر منهم عددٌ كبير وعلى رأسهم محمد بن كعب القرظي وأبو العالية وزيد بن أسلم رضي الله عنهم.

٣- مدرسة العراق: وهم أصحاب عبدالله بن مسعود وعلى رأسهم الحسن البصري ومسروق وقتادة وعطاء بن أبي مسلم الخراساني ومرة الهمذاني رضي الله عنهم جميعاً[٢].

الطبقة الثالثة: تابع التابعين رضي الله عنهم.

وهذه الطبقة كانت تكتب التفسير وما يصلُ إليها من التابعين والصحابة رضي الله عنهم، ومن أشهر علمائها سفيان بن عُيَينة ووكيع بن الجراح وشعبة بن الحجاج وغيرهم رضي الله عنهم.

الطبقة الرابعة: ابن جرير الطبري وعصره.

وفي نهاية القرن الثالث الهجري، ذلك العصر الذي ازدهرت فيه العلومُ والمعارف ووقف فيه التدوينُ على ساقيه في هذا العصر برز إمامٌ جليل هو الإمام محمد بن جرير الطبري رحمه الله فقد كان دُرَّةَ عصره وألف كتاباً في التفسير سماه «جامع البيان في تفسير القرآن» جمع فيه أقوالَ مَنْ سبقه ورَجَّح بينها واستنبط فوائد نفيسة، والمفسرون من بعده جميعاً عالةٌ عليه

---

(١) «الإتقان في علوم القرآن» ج٢ ص١٩٠.

(٢) انظر «التبيان في علوم القرآن» للشيخ محمد علي الصابوني ص٧٣.

رحمه الله[1].

الطبقة الخامسة: طبقة التخصص العلمي.

وبعد أن انقضى عصر ابن جرير رحمه الله بدأ التفسير يَنْحُو نحواً جديداً حيث بدأ كل عالم يفسر القرآن الكريم حسب وجهته العلمية واهتمامه الذي غلب عليه، وظهرت في هذا العصر بشكلٍ واضح مدرستا التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي وقد تقدم الكلام على كلا المنهجين. ومن أشهر التفاسير التي عنيت بالمأثور في هذه الطبقة من طبقات المفسرين تفسير الإمام ابن كثير رحمه الله[2] ومن أهم مزاياه الدقة في الإسناد والبساطة في العبارة والوضوح في الفكرة. ثم جاء بعد ابن كثير الإمام جلال الدين السيوطي رحمه الله[3] وألف كتابه القيم الدر المنثور في التفسير بالمأثور. فأحسنَ فيه وأجادَ، ومن أشهر التفاسير بالرأي في هذه الطبقة تفسير الإمام الرازي[4] المسمى «مفاتيح الغيب»، وقد غلب على هذا التفسير قضايا العقائد الإسلامية والدفاع عن عقيدة أهل السنة والجماعة ضد الفرق المخالفة وكذلك تفسير أبي السعود[5] فهو لجانبِ تقريرِهِ لعقائدِ أهل السنة والجماعة يُعنى بالمباحث المتعلقة بالإعجاز القرآني وأسلوبه في ذلك مشرق وبديع[6].

---

(١) انظر «مباحث في علوم القرآن» للدكتور صبحي الصالح ص٢٩٠.

(٢) هو عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي المتوفى سنة ٧٤٤هـ.

(٣) هو الإمام جلال الدين السيوطي الحجة الثبت صاحب التآليف الكثيرة المتوفى سنة ٩١١هـ.

(٤) هو الإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي المتوفى سنة ٦٠٦هـ.

(٥) هو الإمام محمد بن محمد بن مصطفى الطحاوي المتوفى سنة ٩٨٢هـ.

(٦) انظر كتاب «مباحث في علوم القرآن» للدكتور صبحي الصالح ص٢٩٠ وما بعدها.

وهناك مَن اهتم بالأحكام الفقهية فألف في التفسير وتوسَّعَ في هذا الجانب كالإمام القرطبي[1] في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن» إلى غير ذلك من التفاسير الكثيرة المشهورة كما سأشير إلى جملة منها في ختام هذا المبحث إن شاء الله.

الطبقة السادسة: المفسرون المعاصرون.

وفي عصرنا الحاضر قام بعض العلماء بتفسير القرآن الكريم ولهم كذلك مناهج مختلفة، فمنهم مَن اهتم بما أُثير حول الإسلام من شبهات ومشكلات وبأمراض المجتمع المختلفة فجعل لها حَيِّزاً في تفسيره، ومنهم من اهتم بالقضايا العلمية ومدى موافقتها للقرآن الكريم، ومنهم من استشعر مدى شقاء الأمة بإعراضها عن هدى القرآن الكريم وبُعْدِها عن تحكيمه في شؤون حياتها فأشبعَ هذه المعاني بحثاً وتفصيلاً من خلال تفسيره للقرآن الكريم.

هذا ومن ألمع التفاسير المعاصرة التفاسير التالية:

١- تفسير المنار - للشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله.

وقد قال الشيخ مناع القطان حفظه الله عن هذا التفسير: إنه تفسير غنيٌّ بالمأثور عن سالف هذه الأمة من الصحابة والتابعين وبأساليب اللغة العربية وبسنن الله الاجتماعية، ويوضح كثيراً من المشكلات ويرد على ما أثير حول الإسلام من شبهاتِ خصومهِ، ويعالج أمراضَ المجتمع بهدي القرآن الكريم. ولم يتمّ تفسير القرآن الكريم، بل وصل لآخر سورة يوسف وطبع في إثنى عشر مجلداً[2].

(١) هو الإمام محمد بن أحمد بن فرح القرطبي المتوفى سنة ٦٧١هـ.

(٢) «مباحث في علوم القرآن» للشيخ مناع القطان ص٣٧٢.

٢- في ظلال القرآن الكريم للشهيد سيد قطب رحمه الله.

وهو تفسير كبير وعظيم وغني عن التعريف، فهو تفسير كاملٌ للحياة في ضوء القرآن الكريم وهدي الإسلام، وقد عاش مؤلفه رحمه الله في ظلال القرآن الكريم واستشهد في سبيله، فكان تفسيره أصدقَ تعبيرٍ عن إحساسه القلبي والوجداني لعظمة القرآن، وأنه هو الطريق الوحيد لخلاص البشرية من شقائها ونكدها وعودتها إلى المكانة الرفيعة التي ارتفعت إليها يوم كانت تحيا في ظلال القرآن الكريم، وهذا التفسيرُ لا يستغني عنه مسلمٌ معاصر يريد أنْ يدعو إلى الله على بصيرة، ولا يعني هذا أنه كامل، فالكمالُ لله وحده.

وهناك كثير من التفاسير المعاصرة جزى الله مؤلفيها خيراً على جهدهم ونيتهم، وسنذكر طرفاً منها في الفقرة الآتية إن شاء الله.

سابعاً - أشهر المفسرين والتفاسير في القديم والحديث:

لقد اتضح لنا مما سبق أشهر مناهج التفسير في القديم والحديث ومع هذا، فسأُوردُ هنا قائمةً تضم أشهرَ التفاسير والمفسرين تكون بمثابة عناوين لطلاب العلم ترشدهم إلى تراث الآباء والأجداد ولعلها تحفزهم وترفع من هِممهم للاقتداء بأولئك الرجال الأفذاذ الذين خَلَّفُوا لنا مجداً تليداً أضعناه بجهلنا وتهافتنا على المادة والشهوة وإعراضنا عن كتاب الله تعالى وعدم التخلق بأخلاقه.

وسأقسمُ هذه التفاسير إلى أربعة أقسام وهي كما يلي:

١- المفسرون بالمأثور وتفاسيرهم:

اسم المفسر	تاريخ وفاته	اسم التفسير	شهرة التفسير
١- محمد بن جرير الطبري	٣١٠هـ	جامع البيان في تفسير القرآن	تفسير الطبري
٢- أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي	٧٧٤هـ	تفسير القرآن العظيم	تفسير ابن كثير
٣- نصر بن محمد السمرقندي	٣٣٧هـ	بحرالعلوم	تفسير السمرقندي
٤- أحمد بن إبراهيم الثعلبي	٤٢٧هـ	الكشف والبيان	تفسير الثعلبي
٥- الحسبن بن مسعود البغوي	٥١٠هـ	معالم التنزيل	تفسير البغوي
٦- عبدالحق بن غالب الأندلسي	٥٤٦هـ	المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز	تفسير ابن عطية
٧- عبدالرحمن بن محمد الثعالبي	٨٧٦هـ	الجواهر الحسان في تفسير القرآن	تفسير الثعالبي
٨- جلال الدين السيوطي	٩١١هـ	الدر المنثور في التفسير بالمأثور	تفسير السيوطي

٢- المفسرون بالرأي وتفاسيرهم:

اسم المفسر	تاريخ وفاته	اسم التفسير	شهرة التفسير
١- محمد بن عمر ابن الحسبن الرازي	٦٠٦هـ	مفاتيح الغيب	تفسير الرازي

اسم المفسر	تاريخ وفاته	اسم التفسير	شهرة التفسير
٢- عبدالله بن عمر البيضاوي	٦٨٥هـ	أنوار التنزيل وأسرار التأويل	تفسير البيضاوي
٣- عبدالله بن محمد الخازن	٧٤١هـ	لباب التأويل في معاني التنزيل	تفسير الخازن
٤- عبدالله بن أحمد النسفي	٧٠١هـ	مدارك التنزيل وحقائق التأويل	تفسير النسفي
٥- نظام الدين الحسين بن محمد النيسابوري	٧٢٨هـ	غرائب القرآن ورغائب الفرقان	تفسير النيسابوري
٦- محمد بن محمد ابن مصطفى الطحاوي	٩٥٢هـ	إرشاد العقل السليم	تفسير الطحاوي
٧- محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي	٧٤٥هـ	البحر المحيط	تفسير أبي حيان
٨- شهاب الدين محمد الآلوسي	١٢٧٠هـ	روح المعاني	تفسير الآلوسي
٩- محمد الشربيني الخطيب	٩٧٧هـ	السراج المنير	تفسير الخطيب
١٠- جلال الدين المحلي - و السيوطي	٩١١هـ	تفسير الجلالين	تفسير الجلالين

اسم المفسر	تاريخ وفاته	اسم التفسير	شهرة التفسير
١١- محمد بن أحمد بن فرح القرطبي	٦٧١هـ	الجامع لأحكام القرآن	تفسير القرطبي

٣- المفسرون لآيات الأحكام وتفاسيرهم:

اسم المفسر	تاريخ وفاته	اسم التفسير	شهرة التفسير
١- أحمد بن علي الرازي الجصاص	٣٧٠هـ	أحكام القرآن - حنفي	تفسير الجصاص
٢- علي بن محمد الطبري الكيا الهراسي	٥٠٤هـ	أحكام القرآن - شافعي	تفسير الكيا الهراسي
٣- جلال الدين السيوطي	٩١١هـ	الإكليل في استنباط التنزيل	تفسير السيوطي
٤- محمد بن عبدالله الأندلسي	٥٤٣هـ	أحكام القرآن - مالكي -	تفسير ابن العربي
٥- محمد علي السايس	معاصر	تفسير آيات الأحكام	تفسير آيات الأحكام
٦- محمد علي الصابوني	معاصر	روائع البيان في تفسير آيات الأحكام	تفسير آيات الأحكام

٤- المفسرون المعاصرون وتفاسيرهم:

اسم المفسر	تاريخ وفاته	اسم التفسير	شهرة التفسير
١- الشهيد سيد قطب	١٩٦٥م	في ظلال القرآن	تفسير الظلال
٢- محمد رشيد رضا	معاصر	تفسير القرآن الكريم	تفسير المنار

اسم المفسر	تاريخ وفاته	اسم التفسير	شهرة التفسير
٣- أحمد مصطفى المراغي	معاصر	تفسير المراغي	تفسير المراغي
٤- جمال الدين القاسمي	معاصر	محاسن التأويل	تفسير القاسمي
٥- محمد محمود حجازي	معاصر	التفسير الواضح	التفسير الواضح
٦- حسنين مخلوف	معاصر	صفوة البيان	تفسير مخلوف
٧- صديق حسن خان	معاصر	فتح البيان	تفسير حسن خان
٨- طنطاوي جوهري	معاصر	تفسير الجواهر	تفسير الجواهر
٩- عبدالودود يوسف	معاصر	تفسير المؤمنين	تفسير المؤمنين
١٠- سعيد حوى	معاصر	الأساس في التفسير	الأساس في التفسير

هذا ولا شك أن هناك تفاسير أخرى في مختلف المناهج التي تقدمت الإشارة إليها. وكلما تقدم الزمن تكشَّفَ للعلماء معانٍ ومفاهيم جديدة لهذا الكتاب العظيم مما يُحَقِّقُ ويؤكد إعجازه واستمرار هذا الإعجاز وتجدده حتى قيام الساعة، وصدق الله العظيم القائل: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ [لقمان] والله أعلم.

ثامناً - غرائب التفسير:

تمهيد:

لقد مر في تاريخ هذه الأمة كثير من الغلاة والمتطرفين وأهل الأهواء ومبتغي الفتن فأوجدوا كثيرا من الغرائب والتفسيرات الخاطئة لكتاب الله تعالى والسنة النبوية الشريفة. وهؤلاء إما مِمَّنْ تَفرَّغَ لتحريفِ هذا الدين وتشويه حقائقه عن قصد وسوء نية وإما ممن زاغت بهم الأهواء فانحرفوا عن جادة الصواب وهم يحسبون أنهم يُحسنونَ صُنعاً. وسواء هؤلاء أم أولئك فقد قَيَّض الله لهذا الدين مَنْ يقوم بحفظه وحمايته ويبين انحراف المنحرفين وبقيت وستبقى حجة الله قائمة على الخلق أجمعين.

وسأذكر في هذه التأملات طرفاً من تلك الغرائب للتحذير منها ومن أهلها.

١- غرائب الباطنية:

الباطنية قومٌ من أهل الزيغ والضلال يقولون: إنَّ للقرآن ظاهراً وباطناً والمراد به باطنه دون ظاهره.

وهؤلاء ممن خرجوا عن الملة الإسلامية ودخلوا في عِدَادِ الكَفَرة والملحدين من أمثال الإسماعيلية والقرامطة والدروز والنصيرية وغيرهم. ومن تفاسيرهم الغريبة الأمثلة التالية:

١- قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً ﴿٦٧﴾ ﴾ [البقرة].

قالوا: المراد بالبقرة عائشة أم المؤمنين وذلك كرهاً منهم لأبيها الصِّدِّيق رضي الله عنه وأرضاه.

٢- وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ ﴿٩٠﴾﴾ [المائدة].

قالوا: الخمر والميسر هنا يراد بهما أبو بكر وعمر. قاتلهم الله أنى يؤفكون[1].

غرائب الشيعة:

الشيعة فرق كثيرة منهم الغلاة ومنهم دون ذلك وكلهم بعيدون عن هدى أهل السنة والجماعة وطريقتهم الواضحة السنية، فمن فرق الشيعة الذين أغربوا وخلطوا في معاني كلام الله تعالى:

أ- الإمامية الاثنى عشرية:

قالوا في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴿٥٥﴾﴾ [المائدة].

يعني بالذين آمنوا الأئمة الإثنى عشر أي أئمتهم الذين يَزْعُمونَهم من علي رضي الله عنه إلى المهدي المنتظر.

وقالوا في قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴿٥١﴾﴾ [النحل] أي: لا تتخذوا إمامين إثنين إنما هو إمام واحد.

وقالوا في قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴿٦٩﴾﴾ [الزمر] أي أشرقت بنور الإمام علي كرم الله وجهه. وعلي رضي الله عنه منهم براء.

ب- السبئية:

وهم إحدى فرق الشيعة، بل أصلهم في الضلال والانحراف، وهم أتباع

---

(١) انظر «التبيان في علوم القرآن» للصابوني ص١٧٩ وما بعدها.

عبدالله بن سبأ الذي أحدث أول فتنةٍ في الإسلام حيث جمع رعاع الناس وهجموا على الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه وقتلوه في بيته وهو يقرأ القرآنَ ظُلماً وعدواناً. ومن غرائب هؤلاء في التفسير:

قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۝٧٢﴾ [الأحزاب] زعم السبئية أن الظَّلُومَ الجهول المعني بالآية هو أبو بكر رضي الله عنه حيث ظلم علياً وأخذ الخلافة منه.

وقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ ۝١٦﴾ [الحشر] قالوا: الشيطان هنا هو عمر بن الخطاب. نسأل الله أن يعافينا من الزيغ والضلال.

٣- غرائب المتصوفة:

إن لبعض المنتسبين للتصوف شطحات وغرائب كثيرة منها في باب التفسير ما ورد في كلام ابن عربي عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۝٦٧﴾ [البقرة] فقد قال: هي النفس الحيوانية، وذبحها هو قمعها عن هواها. مع أنَّ البقرةَ المقصودةَ في الآية الكريمة هي البقرة المعروفة ولا داعي للتمحُّلِ والتكلُّفِ في دين الله تعالى.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً ۝٨١﴾ [الأنبياء] قال: سخرنا لسليمان العقل العلمي المتمكن على عرش النفس في الصدر![١].

وقد سمعت من بعض الوعاظ في مسجد الحسين بالقاهرة تفسيراً نسبه لابن عربي وذلك في قوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢﴾ [طه] قال: المراد بالنعلين هنا العقل والقلب!!!

---

(١) انظر «مناهل العرفان» للزرقاني ج٢ ص٨٨.

فقلت له: وبماذا إذن يسمع الله سبحانه وتعالى؟ وكيف يعقل عنه؟ وكيف يتحمل الرسالة إذا خلع عقله وقلبه!!!

وأخيراً أقول: إن مثل هذه الغرائب لا تخيفنا لأن الله تعالى قد تَكفَّلَ بحفظ هذا الدين وهذا القرآن وهيأ له رجالاً وقفوا له حياتَهم، وصَدَقَ رسولُ الله ﷺ القائل: «ولن تزال طائفةٌ من هذه الأمة ظاهرين على الحق لا يضيرهم مَنْ خالفهم حتى يأتيَ أمرُ الله»[1] والله أعلم.

تاسعاً - أسئلة ومناقشات حول المبحث:

١- اذكر معنى التفسير لغة واصطلاحاً.

٢- متى نشأ علم التفسير وكيف تطور؟ اكتب نبذة موجزة عن ذلك.

٣- ما هو الفرق بين التفسير والتأويل؟ وضح ذلك.

٤- ما معنى التفسير بالمأثور؟

٥- تكلم عن تفسير القرآن بالقرآن موضحاً وجوهه مع الأمثلة لكلٍّ منها.

٦- تكلم عن تفسير القرآن بالسنة مبيناً مكانة السنة ودورها في تبيين القرآن.

٧- اذكر مكانة تفسير الصحابة للقرآن ومذاهب العلماء في تفسيرهم وحجيته. وبيِّنْ متى يكون لتفسيرهم حكم المرفوع إلى النبي.

٨- هل تفسير التابعي حجة على من بعده؟ وضح ذلك.

---

(١) رواه الإمام البخاري.

٩- ما معنى الإسرائيليات؟ وما حكم روايتها؟ وضح ذلك.

١٠- بين معنى التفسير بالرأي.

١١- ما هي أنواع الرأي في التفسير؟ وما هو حكم كُلٍّ منها؟

١٢- وضح موقف ابن تيمية والغزالي رحمهما الله من التفسير بالرأي.

١٣- ما هي شروط التفسير بالرأي؟ اذكرها بوضوح.

١٤- تكلم عن مراتب التفسير مبيناً معنى كل مرتبة والشروط اللازمة لها.

١٥- ما هي الآداب التي ينبغي أن تتوفر فيمن يفسر القرآن الكريم؟

١٦- ما هي الشروط التي يجب أن تتوفر في المفسر؟ ولأي مرتبة من مراتب التفسير هي؟

١٧- تكلم عن طبقة المفسرين من الصحابة واذكر أشهرهم في التفسير.

١٨- تكلم عن طبقة التابعين واذكر المدارس التفسيرية فيها وأبرز المفسرين في كل مدرسة.

١٩- من هم أشهر المفسرين من طبقة تابع التابعين؟

٢٠- تكلم عن ابن جرير الطبري وتفسيره وعصره باختصار.

٢١- تكلم عن طبقة التخصص العلمي ومدارسها في التفسير وبعض أنواع التفسير فيها.

٢٢- من هو صاحب تفسير المنار؟ وما هي طريقته في التفسير؟

٢٣- تكلم بإيجاز عن منهج تفسير «في ظلال القرآن» ومَنْ هو صاحبه؟

٢٤- اذكر ثلاثة من أهم التفاسير بالمأثور مع بيان اسم المفسر وتاريخ وفاته.

٢٥- اذكر ثلاثة من أهم التفاسير بالرأي مع بيان اسم المفسر وتاريخ وفاته.

٢٦- اذكر ثلاثة من أهم التفاسير لآيات الأحكام مع بيان اسم المفسر وتاريخ وفاته.

٢٧- اذكر ثلاثة من أهم التفاسير المعاصرة مع بيان أسماء مفسريها.

٢٨- من هم الباطنية؟ وما هي غرائبهم في التفسير؟ اذكر مثالين لذلك.

٢٩- اذكر مثالين لغرائب الشيعة في التفسير.

٣٠- من هم السبئية؟ واذكر بعض غرائبهم في تفسير القرآن الكريم.

٣١- اذكر بعض غرائب المتصوفة في تفسير القرآن الكريم.

المبحث التاسع

إعجاز القرآن الكريم

ويشتمل هذا المبحث على المسائل التالية:

١- تمهيد: فكرة عامة عن التحدي والإعجاز.

٢- تعريف الإعجاز القرآني.

٣- معنى المعجزة وأنواعها.

٤- وجوه الإعجاز القرآني.

الوجه الأول: لغة القرآن الكريم وفصاحته.

الوجه الثاني: تَفَرُّد الأسلوب القرآني وسموّه.

الوجه الثالث: النسق الواحد في الموضوعات المختلفة.

الوجه الرابع: مخاطبة المستويات البشرية المختلفة بآن واحد.

الوجه الخامس: الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم.

الوجه السادس: وفاء القرآن الكريم بحاجات البشر.

الوجه السابع: أخبار الغيب في القرآن الكريم.

الوجه الثامن: آيات العتاب لرسول الله ﷺ.

الوجه التاسع: ما نزل من القرآن بعد طول انتظار.

الوجه العاشر: جلال الربوبية وعظمة الألوهية.

٥- أسئلة ومناقشات حول المبحث.

أولاً - فكرة عامة عن التحدي والإعجاز:

قال الله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة].

وقال رسول الله ﷺ: «ما من نبيٍّ إلا أُعطيَ ما مثله آمنَ عليه البشر وإنما كان الذي أُوتيتُه وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أنْ أكونَ أكثرهم تابعاً»[1].

لقد بعث الله رسوله محمداً ﷺ كافة للناس بشيراً ونذيراً وأعطاه الله من المعجزات الدالة على صِدْقِ رسالته ما لم يعطه لنبيٍّ قبله، وكان أعظم معجزاته ﷺ القرآن الكريم المعجزة الخالدة إلى قيام الساعة وذلك كي تتناسب المعجزةُ مع عموم الرسالةِ وخلودِها إلى يومِ الدين، فقد تحدى الله تعالى العرب وقت نزول القرآن الكريم على أنْ يأتوا بمثل هذا القرآن أو بمثل سورةٍ منه وَلْيَدْعُوا شهداءهم وأعوانهم من دون الله، وتكرر التحدي بأشكالٍ متنوعة وأوقات متعددة، وما زال التحدي قائماً، وقد عجز الناس وما زالوا عاجزين، ولن يزالوا عاجزين، وستبقى هذه المعجزة أبد الدهر ناطقةً بصدق رسالة محمد ﷺ وعظمة هذا الدين المنزل من عند الله عز وجل.

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله في تفسير الآية السابقة: وهذا التحدي

---

(١) رواه البخاري.

ظل قائماً في حياة الرسول ﷺ وبعدها وما يزال قائماً إلى يومنا هذا، وهو حجة لا سبيل إلى المماحكة فيها وما يزال القرآن يتميز عن كل كلام تميزاً واضحاً قاطعاً وسيظل كذلك أبداً تصديقاً لقول الله تعالى في الآية التالية: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [البقرة]. والتحدي هنا عجيبٌ والجزمُ بعدم إمكانه أعجبُ ولو كان في الطاقة إمكانه لما توانوا عنه لحظة. وما من شك أنَّ تقريرَ القرآن الكريم أنهم لن يفعلوا، وتحقق هذا كما قرره هو بذاته معجزة لا سبيل إلى المماراة فيها. ولقد كان المجال أمامهم مفتوحاً فلو أنهم جاؤوا بما ينقض هذا التقريرَ القاطعَ لانهارتْ حجية القرآن ولكن هذا لم يقع ولن يقع كذلك. والخطابُ للناس جميعاً ولو أنه كان في مواجهة جيلٍ من أجيال الناس وهذه وحدها كلمة الفصل التاريخية[1].

ثانياً - تعريف الإعجاز القرآني:

لقد سلك العلماء في تعريف الإعجاز مذاهب مختلفة وذلك تبعاً لتعدد وجوه الإعجاز، فكلٌّ منهم عَرَّفَ الإعجاز ببعض وجوهه، ولعلَّ أجمع هذه التعاريف وأشملها ما اختاره الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي حفظه الله في كتابه القيم «من روائع القرآن» حيث قال: الإعجاز عند الجمهور هو أن القرآن قد سما في علوه إلى شأوٍ بعيد بحيث يعجز الطوقُ البشري عن الإتيان بمثله سواء في ذلك بيانه وبلاغته وفصاحته أو تشريعه وتنظيمه أو إخباره عن غيب المستقبل أو الماضي السحيق[2].

---

(١) الظلال ج١ ص٤٨.

(٢) عن كتاب «من روائع القرآن» بتصرف، وهذا الكتاب مرجع عظيم واستفدت منه كثيراً وإن لم يكن موجوداً لدي عند كتابة هذه التأملات.

ثالثاً - معنى المعجزة وأنواعها:

المعجزة هي الأمر الخارق للعادة المقرون بالتحدي السالم عن المعارضة يُجْريها اللهُ على يد رُسُلِه تصديقاً لهم في دعواهم النبوة والرسالة.

والمعجزات نوعان: معجزات حسية ومعجزات عقلية. يقول الإمام السيوطي رحمه الله: وأكثر معجزات بني إسرائيل كانت حسية لبلادتهم وقلة بصيرتهم، وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية لفرط ذكائهم وكمال أفهامهم، ولأن هذه الشريعة لما كانت باقيةً على صفحات الدهر إلى يوم القيامة خُصَّتْ بالمعجزة العقلية الباقية ليراها ذوو البصائر(١).

رابعاً - وجوه الإعجاز القرآني:

إن وجوه الإعجاز القرآني كثيرة جداً حتى أفردها بعض العلماء في التأليف، وممن ألف في الإعجاز الإمام الباقلاني وكتابه «إعجاز القرآن» والعالم اللغوي المبدع الشيخ عبدالقاهر الجرجاني في كتابيه: «دلائل الإعجاز» و«الرسالة الشافية في إعجاز القرآن»، ومن الكُتَّاب المعاصرين الشهيد سيد قطب رحمه الله، فبالإضافة إلى تفسيره العظيم «في ظلال القرآن» ألف كتاباً في وجهٍ واحد من وجوه الإعجاز وهو «التصوير الفني في القرآن» فأبدع فيه وأجاد. ومنهم حجة الأدب العربي مصطفى صادق الرافعي فقد ألّف كتاب «إعجاز القرآن» فكان من خيرةِ ما كُتِبَ في هذا المجال. أما العلماء الذين ألفوا في علوم القرآن وجعلوا الإعجاز واحداً من أبحاثهم فقد ذكروا الكثيرَ الكثيرَ من الوجوه الدالة على أن هذا الكتاب معجزٌ للبشر وأنه كلام الله رب العالمين.

---

(١) انظر «الإتقان» للسيوطي ج٢ ص١١٦.

فالزرقاني في «مناهل العرفان» ذكر أربعة عشر وجهاً للإعجاز وتكلم عليها بإسهاب وتفصيل واسع[1].

والإمام الزركشي في «البرهان» ذكر إثنى عشر وجهاً للإعجاز القرآني[2].

وذكر القاضي عياض رحمه الله في كتابه القيم «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» أربعة وجوه للإعجاز[3].

وسأمرُّ في هذه التأملات على أهم وجوه الإعجاز القرآني التي ذكرها علماؤنا رحمهم الله، ومَنْ أراد التوسع في هذا المبحث فليرجع إلى تلك المصادر المشار إليها ففيها ما يكفي ويغني إنْ شاء الله.

الوجه الأول: لغة القرآن وفصاحته:

لقد بُعِثَ رسولُ الله ﷺ في أمة أعز ما عندها من المفاخر والتراث لغتها وبيانها حتى إنها كانت تعقدُ الأسواقَ الأدبيةَ للتنافس في الأشعار والخطب البلاغية البديعة، وكانت أبرز القصائد وأعلاها شأناً تنال شرف التعليق على الكعبة المشرفة.

وقد كانت معجزةُ رسولِ الله ﷺ العظمى هي القرآن الكريم، وحتى يثبت إعجاز هذا الكتاب وأنه من عند الله تعالى فقد تحدى العرب جميعاً إنْ كان باستطاعتهم أنْ يأتوا بمثله أو بمثل أدنى سورةٍ منه، وكرر القرآنُ الكريم التحدي وبأساليب متنوعة، فما كان من الجميع إلا العجز والتسليم والإذعان لعظمة هذا القرآن وسمو بيانه. قال الله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ

---

(١) «مناهل العرفان» ج٢ ص٢٢٨-٣١٨.

(٢) «البرهان في علوم القرآن» ج٢ ص٩٣-١٠٧.

(٣) «الشفا» للقاضي عياض ج١ ص٢٥٨-٢٧٢.

عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء].

وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [هود] وقال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [البقرة].

هذا ولا بد من توضيح المراد بإعجاز القرآن الكريم في هذا الجانب وتوضيح المراد بالمماثلة التي عجزَ عنها العربُ وما زالوا عاجزين ولن يزالوا كذلك إلى يوم القيامة.

وبيانُ ذلك أنَّ الكلامَ البليغ في اللغة العربية له موازينه وضوابطه وقواعده يعرف ذلك علماء الأدب والنقد والمختصون بهذا الشأن. فعندما نريدُ معرفةَ القيمة البلاغية لأيِّ كلام نعرضه على أصولِ النقد البلاغي ومقاييسه فيظهر جوهره من زيفه وبديعه من سفسافه.

وإنْ أردنا توكيدَ الإعجاز القرآني ومعرفةَ قصور الطوقِ البشري عن مماثلته ومشابهته في بلاغته وفصاحته فلنأخذ أيَّ آيةٍ من كتاب الله ونعرضها على موازينِ النقد وقواعد البيان العربي ليظهر لنا مدى الرفعة والسمو والبيان والإشراق والجمال والتناسق الذي تتسم به تلك الآية الكريمة، ولنأخذ بنفس اللحظة أبلغ نَصٍّ من النثر أو الشعر العربي، وفي أيِّ عصرٍ من عصور الأدب في الجاهلية أو الإسلام أو العصر الحديث ثم نعرض هذا النص على أصولِ النقدِ وضوابطه وقواعده ليظهرَ لنا الفرقُ البعيد

والبون الشاسع بينه وبين الآية الكريمة التي تتم المقارنة بها.

هذا وقد حاول عبر العصور المختلفة بعضُ مَنْ أَنِسُوا من أنفسهم القدرة على معارضة القرآن حاولوا أنْ يُجَرِّبُوا أنفسهم ويتطاولوا على قدرهم فأتوا بكلامٍ سمجٍ مرذولٍ تافه ساقط هراء لا يُؤبه له ولا يستريح السمعُ لحروفه ولا معانيه من مثل كلام مسيلمة الكذاب الذي حاول أنْ يعارض القرآن فقال في معارضته سورة العاديات «والطاحنات طحناً والعاجنات عجناً والخابزات خبزاً والثاردات ثرداً واللاقمات لقماً إهالة وسمناً» وقال في معارضة سورة الفيل: «الفيل والفيل وما أدراك ما الفيل له ذنب وبيل وخرطوم طويل!!!».

وقال حاول بعض المغرورين أن يعارضوا القرآن الكريم فكتبوا وألفوا ثم لما راجعوا أنفسهم وقرؤوا ما كتبوه حرقوا كتاباتهم وكسروا أقلامهم واستحيوا أنْ يُنْسَبَ لهم كلامٌ يَتَّضِحُ سُخْفُه وعواره عند مقابلته للقرآن الكريم في جلاله وإشراقه وسمو بيانه. وهكذا ظلت حجة الله بالغة قائمة على الخلق تشهد بعظمة هذا الكتاب وعجز الناس عن مضاهاته.

ولا يتسع المجال في هذه التأملات للكلام المفصل عن مظاهر الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم في الكلمة والجملة وتناسق العبارة وجَرْسِ الآيات وإيقاعها المدهش، فلذلك مظانُّه التي أشرتُ إلى طرفٍ منها فيما مضى، والله أعلم.

الوجه الثاني: تفرد الأسلوب القرآني وسموه:

القرآن الكريم كلام عربي مبين يخاطب البشر جميعاً، وأول مَنْ توجه إليهم في الخطاب هم العرب أنفسهم أهل الفصاحة والبلاغة والبيان غير أن أسلوبه في الخطاب كان متميزاً وفريداً فلا هو خاضعٌ للشعر وأوزانه

وقوافيه، كما أنه ليس جارياً على سنن النثر وطرائقه التي عرفها الناس واعتادوا أن يتخاطبوا بها؛ بل كان نَسَقاً فريداً وأسلوباً عجيباً حار فيه أربابُ البيان ودهاقنةُ الأدب قديماً وحديثاً، ففي عصر النبوة وهو من أرقى العصور الأدبية سجد جميعُ الناس لعظمة القرآن وسموِّ بيانِه مؤمنهم وكافرهم، أما المؤمنُ فقد هداه الله وعرف أنَّ هذا ليس كلام بشر وما ينبغي أن يكون إلا لله وحده، وأما الكافر فقد تَيقَّنَ أنه ليس كلام بشر لذلك قالوا إنه السحر والكهانة وحال بينهم وبين الإيمان به العنادُ وخوفُ ذهاب العظمة والجاه الذي تربوا عليه، وحكى الله عنهم قولهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت] وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف].

وتذكرُ كتبُ السيرة أنَّ المشركين من قريش كانوا يمنعون نساءهم وصبيانهم من سماع القرآن من رسول الله ﷺ لئلا يتأثروا به ويسلموا ثم يذهب زعماؤهم خِلسةً في الليل ويجلسون حول بيت النبيِّ لسماع القرآن والاستمتاع به.

قال ابن إسحاق: حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري أنه حُدّث أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق بن عمر بن هشام حليف بني زهرة خرجوا ليلةً ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي من الليلِ في بيته فأخذ كُلٌّ منهم مجلساً يستمع فيه وكلٌّ منهم لا يعلم بمكان صاحبه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الصبح تفرقوا فجمعهم الطريقُ فتلاوموا وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا حتى كانت الليلة الثانية عاد كل رجلٍ منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم

الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألّا نعود فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا، فلما أصبح الأخنسُ بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعتَ من محمد؟ فقال: يا أبا ثعلبة والله لقد سمعتُ أشياء أعرفها وأعرفُ ما يراد بها، وسمعتُ أشياء ما عرفتُ معناها ولا ما يراد بها. قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به، ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه في بيته فقال: يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: ماذا سمعت؟! تنازعنا نحنُ وبنو عبد مناف الشرفَ أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا: مِنَّا نبيٌّ يأتيه الوحيُ من السماء فمتى ندرك هذه؟!!! والله لا نؤمنُ به أبداً ولا نُصَدِّقُه، فقام عنه الأخنس وتركه(1).

إن أدنى تأمل في هذه الحادثة ليكشفُ لنا عن سِرِّ إعجاز هذا القرآن وسمو بيانه وتفرده عن أساليب البشر فما الذي دعا زعماء قريش ليبيتوا ليلتين سراً لسماع القرآن؟ وهم أربابُ البيان، ثم ما هذا الوصف الذي يصفون به القرآن الكريم؟ - سمعتُ أشياء ما عرفتها ولا عرفتُ ما يراد بها - قالوا: منا نبيٌّ يأتيه الوحي من السماء - سبحانَ الله ينطلقُ الحَقُّ على ألسنتهم ولكن الكِبْرَ يصمهم ويُعْمِي أبصارهم.

يقول سيد قطب رحمه الله في تفسيره القيم «في ظلال القرآن»: على أن كُلَّ مَنْ له دراية بتذوق أساليب الأداء، وكل مَنْ له خبرةٌ بتصورات البشر للوجود والأشياء، وكل من له خبرة بالنظم والمناهج والنظرات النفسية أو الاجتماعية التي ينشئها البشر لا يخالجه شَكٌّ في أن ما جاء به القرآن

---

(1) «في ظلال القرآن» للشهيد سيد قطب ج٢ ١٠٧٤ ط الشروق.

الكريم في هذه المجالات كلها شيء آخر ليس من مادة ما يصنعه البشر، والمِراءُ في هذا لا ينشأ إلا عن جهالةٍ لا تميز، أو غرض يلبس الحق بالباطل(١).

ويقول العلامة الشيخ محمد عبدالعظيم الزرقاني رحمه الله: وها قد مَرَّتْ على اللغة العربية من عصر نزول القرآن الكريم إلى عصرنا هذا أدوار مختلفة بين علوٍ ونزول واتساعٍ وانقباض وحركة وجمود وحضارة وبداوة، والقرآنُ في كل هذه الأدوار واقف في عليائه يطلُّ على الجميع من سمائه وهو يشع نوراً وهداية ويفيض عذوبة وجلالاً ويسيل رِقَّةً وجزالةً ويرف جدةً وطلاوة، ولا يزالُ كما كان غضاً طرياً يحمل راية الإعجاز ويتحدى أمم العالم في يقينٍ وثقة قائلاً في صراحة الحق وقوته وسلطان الإعجاز وصولته: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء](٢).

الوجه الثالث: النسق الواحد في الموضوعات المختلفة:

من أسرار الإعجاز القرآني العظيمة والفريدة أنك تجده يتنقل من موضوعٍ لآخر من التشريع إلى القَصصِ، ومن العقائدِ إلى التوجيه والأخلاق، وقد يجتمع هذا كله وغيره في صفحة واحدة من القرآن الكريم دون أن يشعر القارىءُ بأنَّ الأسلوبَ قد تغير، وهذا الأمر لا يقدر عليه بشر على الإطلاق. فإنك قد تجد أديباً من الأدباء يُجيدُ البيانَ في موضوع أدبي معين كالقصة أو الوصف والحماس أو غير ذلك فإذا ما أراد هذا الأديبُ أن يتكلم في الفلسفة والتشريع مثلاً نجده تلعثم واختلف مستوى بيانه، فإذا ما

---

(١) المرجع السابق ج١ ص٤٨.

(٢) انظر «مناهل العرفان» ج٢ ص٢٢٨.

تكلم في موضوع علمي تجريبي إذا بك تُنكِرُ أسلوبه السابق، وهذه طبيعةُ البشر يطول باعهم في فَنٍّ ويقصر في فنونٍ أخرى، وإذا أردت أن تتأكد من ذلك فاقرأ لأيِّ كاتب مهما سما بيانه وارتفع شأنه وعلا صِيتُه اقرأ له بحثين مختلفين فإنك واجدٌ الفرقَ واضحاً ولا يحتاج إلى كثير جهد وتأمل.

أما القرآن الكريم المعجزة الإلهية الخالدة فإنه مهما تنقل بين موضوعات مختلفة فلا تشعر بأدنى تَغَيُّرٍ في أسلوبه أو المستوى أو التناسق التام ودونكَ القرآن فاقرأ منه ما تريد وما تشاء لتجد ذلك جليّاً واضحاً اللهم إنْ كان للقارىء ذوقٌ أدبي وحِسٌّ فيه شيء من الشفافية والإرهاف وكان خالياً من الحقد والتعصب والهوى الذي يحولُ بين صاحبه وبين الحقيقة مهما كانت جلية واضحة.

الوجه الرابع: مخاطبة المستويات البشرية المختلفة بآن واحد:

إن القرآن الكريم يخاطب جميع المستويات البشرية مهما اختلفت مواهبهم وأفهامهم واختصاصاتهم ومستوياتهم العلمية يخاطبهم جميعاً بآنٍ واحد فيفهم كل منهم حسب مستواه ويتغذى الجميع من الكتاب الحكيم ويشعرون أنه قد لبى لكلٍّ منهم حاجةً في نفسه.

هذا بخلاف الكلام البشري فإنه لو قام عالم متخصص في علم معين وبدأ يتكلم في خليط من الناس متباين الأفهام والمواهب فإن هذا العالم إنْ راعى المستوى الأدنى من الحاضرين سَئِمَ ومَلَّ المستوى الأعلى وإنْ عكس الأمرَ نام المستوى الأدنى وخرج من المجلس بِخُفَّي حُنينٍ، وهذا أمرٌ مألوف ومحسوس في كلام البشر، أما القرآن الكريم فله شأنه الخاص ومستواه الأرفع إنه يدخلُ قلوبَ الجميع وعقولهم ويأخذ منه كلٌّ منهم قدر ما يستطيع ويبقى بحراً عميقاً يتسابق العلماء في كشف أسراره دون أن

يجدوا لها حداً تنتهي إليه.

وإذا أردنا أنْ نضرب لذلك مثلاً تقريبياً فنقول: إن للآية القرآنية سطحاً يفهمه الإنسانُ العادي وجذراً يفهمه المثقف ثقافةً عامة ولها عمق يفهمه المتخصصون الراسخون في العلم، خُذْ مثلاً قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ ﴾ [الفرقان] لو قرئت هذه الآيةُ على ملأٍ من الناس فإنَّ العاميَّ يفهم منها سطحها الذي يبينُ نعمةَ الله على عباده بخلقِ الشمسِ والقمر وما فيهما من خير للعباد ويحمد الله على ذلك، وهذا معنى صحيح تدل عليه الآية الكريمة.

والمثقفُ ثقافةً عامة يفهم هذا ويزيدُ عليه بأنْ يستنتج أنَّ الشمسَ تجمع لجانب النور الحرارة بخلاف القمر حيث وصفها الله تعالى بأنها سراج والسراجُ فيه النورُ والحرارة؛ وهذا المعنى صحيح وقد لا يخطر ببال العامة من الناس.

ويأتي الذي تعمق أكثر في ثقافته فيفهم من الآية ما فهمه هذا وذاك ويزيد عليه أنْ لا يرى معارضة بين ما وصل إليه العلمُ وبين القرآن الكريم من ناحية أنَّ القمرَ جرمٌ مظلم ويستمدُّ نُورَهُ من الشمس وذلك لأنَّ الله تعالى وصف القمر بأنه نور والنور ما ينعكسُ من الضوء - السراج - على ما حوله، ولا ينبعُ النور من ذاته ونفسه فأنتَ تقول مثلاً: غرفةٌ منيرة إذا انعكسَ عليها ضوءُ المصباح في وسطها وتقول: قَبَسٌ مضيء إذا انبعث النور من ذاته، والعكس غير صحيح فلا تقول: قبس منير وغرفة مضيئة[1].

هذا مثالٌ تقريبيٌّ وإلا فَخُذْ من القرآنِ أيَّ آيةٍ فتجد فيها ما يشبه هذا من

---

(١) راجع بحث خصائص القرآن العامة من كتاب «من روائع القرآن» للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي حفظه الله، وهو مرجع قيم في هذا الباب.

المعاني وأضرب لك مثلاً آخر.

تقرأ آية من كتاب الله تعالى فتفهم منها معنى معيناً حسب المستوى العلمي الذي أنتَ عليه ثم تقرأ تفسيرها في تفسير مختصر إذا بك تجد معان أكثر مما فهمتَ لوحدكَ وهي معانٍ صحيحة لم تخطر ببالك، فإذا قرأت تفسيراً موسعاً وجدتَ أبعاداً للآية غير ما فهمتَ وغير ما قرأتَ من قبل؛ افتح تفسير الإمام القرطبي رحمه الله - على سبيل المثال - تجده في بعض الآيات يقول: في الآية سِتٌّ وخمسون مسألة وقد يكون أكثر من ذلك أو أقل فتقرؤها فتجد نفسك قد لا يكون خطر ببالك عند قراءة الآية مسألة منها، وكل هذا صحيح وثابت، وهذا سِرٌّ عظيم من أسرار الإعجاز القرآني.

الوجه الخامس: الوحدة الموضوعية في القرآن:

ظاهرة بارزة في القرآن الكريم لها دلالتها العميقة لِمَنْ تَبَصَّرَ. إنها ظاهرةُ الوحدة الموضوعية في كتاب الله تعالى. فهو بحسب الظاهر خالٍ من الترتيب والتبويب الذي اعتاد الكُتَّابُ أنْ يَتَّبِعوهُ في تآليفهم وكتاباتهم وفهارسهم لأبحاثهم. فإن قارىء القرآن الكريم يمر فيه على آيات التشريع لجانب آيات العقيدة والقصص يتخلل ذلك توجيهات أخلاقية أحياناً، وينتقلُ القارىء من بحثٍ لآخرَ دونما شعورٍ أو ملل. وتفسير ذلك أن القرآن الكريم له موضوعٌ أساسي واحد يركز عليه دائماً وفي جميع ما يعرض له من أحداث ومواقف.

إنه موضوع الهداية. الهداية الربانية لتعريفِ الخَلْقِ على الخالق سبحانه وبيان مهمة العبيد تجاه معبودهم.

فالقرآنُ الكريم إنْ تكلَّمَ عن القصص الغابرة أو عن التشريع والحلال

والحرام أو عن العقائد والغيبيات أو غير ذلك تجده يشدك دائماً إلى الله تعالى ويجعلك في جَوٍّ من جلالِ الربوبية لا يفارقك أياً كان الموضوع الذي تقرؤه، وكثيراً ما يأتي عدة موضوعات جزئية في صفحة واحدة من كتاب الله تعالى يتخللها التوجيهُ الربانيُّ إلى هداية الناس إلى الله عز وجل وبأسلوبٍ عذب بليغ. والقرآنُ كله مثلٌ على ذلك، واقرأ معي هذه الآيات الكريمة لنقف على حقيقة هذه المعجزة القرآنية: قال الله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [المائدة].

إن الأمر لا يحتاج إلى أكثر من التأمل في هذه الآيات - وغيرها مثلها - لنتحقق أن مثل هذا الكلام لا يمكن أن يكون من صياغة البشر وعقولهم، وأنه تنزيلٌ من حكيم حميد.

ومما يزيد من تأكيد هذه الظاهرة أننا عندما نقرأ في تراثِ البشر وتآليفهم وآدابهم نجد الفرق واضحاً جلياً بينها وبين كلام الله. بل بين حالنا ومشاعرنا نحن مع كلامِ الله وكلامِ البشر، فمثلاً لو قرأنا كتاباً في الفقه أو العقيدة فإننا نعيشُ في جوٍ ومشاعر معينة، ولو انتقلنا إلى كتاب في اللغة والقواعد لعشنا في مشاعر وأحاسيس تختلف عن تلك المشاعر السابقة، ولو رحنا نقرأ في العلوم أو الفلسفة أو التاريخ لانتقلت مشاعرنا إلى عوالم

أخر، أما في القرآن الكريم فإن جواً واحداً يلازم القارىء مهما تَنَقَّلَ في سوره وآياته وظلاله ومعارفه ويشعر بأنَّ هذا الكتابَ كتابُ هداية إلى الله يرسم للبشر طريق الوصول إلى ربهم بأمانٍ وسلام.

المستشرقون وظاهرة الوحدة الموضوعية في القرآن:

لقد حسب بعض المستشرقين أن هذه الظاهرة تدل على بساطة القرآن الكريم وبدائيته وعدم عمقه في الأسلوب والبيان ومَردُّ ذلك للزمن الذي أُلِّفَ فيه القرآن كما يزعمون!! أو كما أَملى عليهم حِقْدُهم أن يفهموا على الأصح!! فحاولوا الطعنَ في القرآن الكريم متسائلين أين التبويب والتنسيق والترتيب؟ وحاولوا أنْ يدْخُلُوا على بسطاء المسلمين من هذا الباب ليشوِّهُوا في أنظارهم عظمةَ هذا الكتاب الكريم.

وإننا نرد على تساؤلاتهم ببساطة فنقول: إن القرآن الكريم رسالةُ الله إلى العالمين ومُوجَّهٌ إلى جميع الخَلْقِ من لدن نزوله على رسول الله ﷺ وإلى قيام الساعة، وإنَّ من الخطأ في أصل النقد أنْ نُخْضِعَ هذا الكتابَ العظيم لما تعارف عليه أهلُ عصرٍ أو زمان معين من أصول ومعايير وضوابط للبحث والكتابة، إذ لو وافق القرآنُ الكريم أهلَ عصرٍ معين فيما كانوا عليه من طرق وأساليب كتابية لم يوافق من بعدهم لما سيصيرون إليه من تغيير وتجديد في الأسلوب، ولو اتفق القرآنُ مع أسلوبِ بيئةٍ معينة لم يتفق مع غيرها من البيئات والناس متفاوتون ومتباينون جداً في مقاييسهم وموازينهم العلمية من عصرٍ لآخر، ومن جهةٍ لأخرى كما هو معروف، أما القرآن الكريم فهو للناسِ كُلِّ الناس وللعصورِ كُلِّ العصور له جَرْسُه الخاص وخصائصه المتميزة التي عجز البشر عن الإحاطة بها أو الوصول إليها.

ألا إنه كتابُ الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل

من حكيمٍ حميد[1].

الوجه السادس: وفاء القرآن الكريم بحاجات البشر:

أكتب هذا العنوان على أنه وجه بارز من وجوه الإعجاز القرآني فيأخذني خيالي إلى موقف مَرَّ معي منذ سنوات - في عام ١٩٧٧م تقريباً - وذلك أنه ضَمَّني مجلس في مدينة دمشق المؤمنة المصابرة مع بعض الأحبة وكان في ذلك المجلس شاب أوروبي قيل لي: إنه دخل الإسلام حديثاً، فسألته ما الذي حملك يا أخي على الدخول في الإسلام؟ فصمت قليلاً ثم قال: دخلتُ في الإسلام لأنه يجيب على كُلِّ تساؤلٍ إجابةً صحيحة ومقنعة.

نعم إنه الإسلام. إنه القرآن الذي أنزله الله تبياناً لكل شيء وليكون منهج حياة للبشرية شاملاً لكل ما تحتاجه الحياةُ الفاضلة وتقتضيه مصالح الناس في دنياهم وآخرتهم.

وإن من أهم المقاصد النبيلة التي رسّخ القرآن الكريم دعائهما في الحياة الأمور التالية:

١- العقائد وذلك عن طريق الدعوة إلى التوحيد والإيمان باليوم الآخر والرسالات السابقة والكتب والملائكة والقدر.

٢- الأخلاق. حيث أرشدَ القرآنُ الكريم إلى فضائلها ومكارمها وحَذَّرَ من رذائلها في قصدٍ واعتدال.

٣- إصلاح المجتمع وذلك بالدعوة إلى توحيدِ الصف ومحو العصبيات

---

(١) انظر كتاب «من روائع القرآن الكريم» محمد سعيد رمضان البوطي فصل «خصائص القرآن العامة» تداخل أبحاثه وموضوعاته.

وإزالة الفوارق بين الناس وأشعرَ القرآنُ الكريم الناس أنهم من جنس واحدٍ ومن أبٍ واحد ولا فضلَ لأحدٍ على أحدٍ إلا بالتقوى، كما دعا إلى الإخاء على أساس الإيمان بالله وحده، وأن المسلمين أمةٌ واحدة يجمعها المبدأ ولا تفرقها الحدود الإقليمية ولا الشعارات السياسية الوضعية من قومية وعرقية وغير ذلك.

٤- إصلاح السياسة والحكم الدولي بتقرير الحق والعدل والمساواة والمحبة بين الناس.

٥- إصلاح المال بالدعوة إلى الاقتصاد وحماية المال وإقرار حق التملك مع عدم الإضرار بالغير، وحَثَّ القرآنُ الكريم على الإنفاق في وجوه الخير والبر وأداء الحقوق العامة والخاصة لأربابها.

٦- إصلاح المرأة. حيث أعطاها القرآن الكريم حقوقها كاملة من الناحية الإنسانية والمدنية والاجتماعية وأوجب احترامها وتقديرها أماً وبنتاً وأختاً كما وضعها في المكان اللائق بها الذي يتفق مع أنوثتها ومهمتها في الحياة.

٧- الإصلاح الحربي. ووضع القواعد السليمة للسلم والحرب، وأوجب الرحمة في القتال والوفاء بالمعاهدات.

٨- تحرير العقول والأفكار ومنع الإكراه في الدين والاضطهاد والسيطرة والاستبداد.

٩- تحقيق مطالب الروح والجسد بحيث لا يَطغى أحدهما على الآخر، وتحقيق مطالب الدنيا والآخرة بوقت واحد.

١٠- التيسير ورفع الحرج عن الناس في جميع ما شرع القرآن الكريم

من أحكام[1].

إلى غير ذلك من أسس وأصول قامت عليها الدولةُ الإسلامية وسَعِدَ بها المجتمعُ ردحاً من الزمن، ثم بدأ يتخبط ويتهاوى عندما ابتعد عن تلك الشرائع الحكيمة.

هذا وشواهد هذه الأسس في القرآن الكريم كثيرة وغير خافية على مَنْ يقرأ هذا الكتاب بتدبر وتمعن، وليس هنا مجال التفصيل فيها ويكفي الرجوع إلى كتابِ الله تعالى والحياة معه بقلبٍ سليم وسمعٍ حاضر ليلمسَ الإنسانُ جميع هذه المعاني الكريمة.

الوجه السابع: أخبار الغيب في القرآن:

إن من وجوه الإعجاز الباهرة في القرآن الكريم إخباره عن أمور غيبية ثم تَحَقُّق هذه الأخبار كما ذكرها القرآنُ الكريم.

والغيبُ في القرآن على نوعين: غيبُ المستقبل وغيبُ الماضي.

أما غيب المستقبل:

فقد أخبر القرآن الكريم بأمور كثيرة لم تقع ثم وقعت كما أخبر سبحانه وتعالى وهذا مما يؤكد أنَّ هذا القرآنَ لا يمكن أن يكون من عند بشرٍ كائناً مَنْ كان إذ لا يعلمُ الغيبَ إلا الله تعالى، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا

---

(١) انظر «مناهل العرفان في علوم القرآن» للزرقاني ج٢ ص٥٢٤٧.

يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ [الروم].

وتوضيح ذلك أن دولة الروم وهي دولة مسيحية غُلبت وهُزمت أمام دولة فارس الوثنية عام ٦١٤ للميلاد ففرح المشركون بهذا النصر وقالوا للمسلمين في شماتة العدو: سنغلبكم كما غلبت فارس الروم. وقصدهم في ذلك أنَّ الرومَ أهلُ كتاب سماوي والمسلمون كذلك وأن الفرس مشركون عُبَّادُ نارٍ وقريش كذلك، وعندها حزن المسلمون لهذا الأمر فنزلت الآياتُ الكريمات تحمل وَعْدَيْنِ غيبيين للمسلمين الأول أن الروم ستنتصر على فارس في مدةٍ أقصاها بضع سنين والبضع هو العدد من ٣-٩ والثاني: أن المؤمنين يومها سيفرحون بنصر الله. ومضت الأيامُ وتَحقَّقَ وعدُ الله كما أخبر سبحانه وتعالى، وفي وقتٍ لا تسمح المقاييسُ البشرية بنصر الروم على فارس فيه؛ ففي العام الثاني للهجرة النبوية نشبت حرب بين فارس والروم وكانت نتيجتها أن انتصرت الرومُ على فارس، وبنفس الوقت فرح المسلمون بنصرِ الله لهم على قريش في معركة بدرٍ الكبرى أولى معارك الإسلامِ الظاهرة وبداية انتصارات المسلمين على قوى الشرك والوثنية[١].

والأمثلة على ذلك كثيرة جداً في القرآن الكريم.

وأمّا غيب الماضي:

فيراد به ما ذكر في القرآن الكريم من قصص النبيين السابقين مع أممهم وحوادث الزمن الغابر وما جرى فيه من عهدِ آدم عليه السلام إلى عصر الرسالة المحمدية.

ووجهُ الغيبِ في هذه القصص والأحداث أنها قديمةٌ مُوغِلةٌ في القِدم

---

(١) «مناهل العرفان» ج٢ ص٢٦٥.

والرسولُ ﷺ كان أمياً لا يقرأُ ولا يكتبُ، وقد عرف جميع المؤرخين أنه عليه الصلاة والسلام ما تعلم على أحد من البشر لا أهل الكتاب ولا غيرهم، فمن أين أتى بهذه الأخبار التي لا يعرفها أحدٌ من قومه الذين عايشهم وعاصرهم؟ على أنَّ أهلَ العلم من أهل الكتاب صدقوا تلك القصص التي ذكرها القرآن الكريم بما عندهم من أخبارها في كتبهم السماوية السابقة.

لا شك أن الجواب على ذلك أنه لا سبيل إلى معرفته ﷺ بهذه الأخبار إلا عن طريق الوحي الذي يتنزل عليه من عند الله تعالى القائل: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [هود] صدق الله العظيم.

الوجه الثامن: آيات العتاب للرسول ﷺ:

يلاحظ المتأمِّلُ في كتابِ الله تعالى أنَّ بعضَ الآيات يوجد فيها عتابٌ لرسول الله ﷺ على بعض التصرفات البشرية التي تصدر عنه عليه الصلاة والسلام، وأحياناً يكون العتاب شديداً، وذلك كقوله تعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ ﴾ [عبس]. يعاتبُ اللهُ تعالى رسوله ﷺ عندما عبسَ وجهه في وجه عبدالله بن أم مكتوم ذلك الصحابي الذي طلب من الرسول أنْ يُعلِّمه آيات من القرآن الكريم وكان عليه الصلاة والسلام حينها مشغولاً بدعوة وجوه قريش إلى الإسلام وطامعاً في إجابتهم فعبس في وجه ابن أم مكتوم وأعرض عنه فعاتبه الله تعالى في هذه الآيات الكريمات. وهناك آياتٌ أُخر تحملُ عتاباً للنبي ﷺ من وجه آخر كإذنهِ للمنافقين يومَ معركة

تبوك[1] وكتردُّدِه في الزواج من زينب زوجة مُتَبَنَّاهُ زيد[2] وكأخذِه الفداءَ في أسرى بدر[3] ونحو ذلك، ووجه الإعجاز في هذا المقام أنَّ القرآنَ الكريم لو كان من عند رسولِ الله ﷺ لما سجَّلَ هذا العتابَ على نفسه لِيُقْرأَ على مَرِّ الأجيال وإلى قيام الساعة ولكنه تنزيلُ العزيزِ الحكيم الذي يُعَلِّمُ رسولَهُ ويوجِّهُه لأفضلِ وأكملِ الأمورِ التربوية والتشريعية.

الوجه التاسع: ما نزل من القرآن بعد طول انتظار:

لقد مرت أحداث ومواقف على رسول الله ﷺ وكان يتشوق فيها إلى الوحي ويتطلع بإلحاح إلى رَبِّه عز وجل لِيُنزلَ عليه حكماً باتاً فيما هو فيه ويمكث عليه الصلاة والسلام الفترةَ الطويلةَ على هذا الحال حتى تنزل عليه آيات من القرآن الكريم تُوضِّحُ ما يتطلع إليه. ولعل خيرَ مثالٍ على ذلك حديث الإفك وذلك عندما اتهم بعضُ المنافقين أمَّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها بفعلِ الفاحشة، وهذا أمرٌ خطير يتعلق بِعِرْض رسولِ الله ﷺ وأفضل أصحابه الصديق رضي الله عنه ويمكث رسولُ الله ﷺ حائراً قرابة الأربعين يوماً وتبلغُ القلوبُ الحناجرَ من هذا الإفك الذي يشيعه مَرْضَى القلوبِ وليس هناك من طريقٍ لإثباته ولا سبيلَ لقطع ألسنة الناس! وبعد هذا الوقت كله ينزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾.. [النور] وتظهر براءةُ أُمِّ المؤمنين مما رماها به المنافقون.

---

(١) قال تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴿٤٣﴾﴾ [التوبة].

(٢) قال تعالى: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴿٣٧﴾﴾ [الأحزاب].

(٣) قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَۗ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنفال].

والذي يقال بهذا الصدد: إنه لو كان القرآنُ الكريم من عند محمد ﷺ ومن صُنْعِ يديه لَمَا انتظرَ كُلَّ هذه الأيام وهو يسمع ما يسمع من لَغَطٍ وفجور في أهله وعرضه ويتقطع قلبه ألماً لذلك، ولكان أسرعَ بهذه الآيات التي تُبرِّىءُ زوجه الشريفة المصون. ولكنه تنزيلُ ربِّ العالمين.

ومثلُ هذا يُقال في أمرِ تحويلِ القبلة، حيث كان رسولُ الله ﷺ يصلي متجهاً إلى بيت المقدس وكان يحب أن يصرف الله وجهه إلى الكعبةِ المشرفة ويقلب وجهه في السماء ويظل الأمر كذلك ستة عشر شهراً، ثم ينزل بعد ذلك قوله تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [البقرة] وعندها تَحوَّلَ إلى الكعبةِ المشرفة وجعلها قبلةً لصلاته وصلاة أمته كما كانت قبلة أبيه إبراهيم من قَبْلُ. ولو كان القرآنُ من عنده عليه الصلاة والسلام فلم يمكث ستة عشر شهراً ويزيد داعياً مُتضرِّعاً حتى يأتيه الوحي بما يريد؟! إنَّ أدنى تأمُّلٍ في هذه الأحداث وغيرها كثير - ليعطينا مزيداً من البرهان على أنَّ القرآنَ الكريم ما هو إلا كلام الله رب العالمين.

الوجه العاشر: جلال الربوبية وعظمة الألوهية:

آخر ما نتكلم عليه من وجوه الإعجاز القرآني في هذه التأملات المتواضعة جلال الربوبية وعظمة الألوهية المنبعثان من آياته وكلماته فإنَّ الكلامَ دائماً يحملُ صفة المتكلم ولذلك ترى القوَّة والعظمة والكبرياء مجسدة كُلّها في كلامِ الله عز وجل. أي آية تقرؤها وفي أي موضوع كان شأنها ترى فيها ذلك اللون من الجلال. وهذا لا يوجدُ في أيِّ كلامٍ حتى كلام رسول الله ﷺ.

وإنَّ إدراكَ هذه الحقيقة لا يكلفُ الإنسانَ أكثر من أن يحضر عقله معه

ويفتح القرآن الكريم ويقرأ شيئاً من آياته لا على التعيين ثم يحاول المقارنة بأيِّ كلام ولأيِّ أديبٍ أو بليغ بل يقارن ذلك بأحاديث رسول الله ﷺ الصحيحة والمتواترة فسيجدُ مَنْ يفعل ذلك الفرقَ واضحاً والبونَ شاسعاً بين عظمة القرآن الكريم وغيره من كلام البشر.

وأخيراً أقول:

إن هناك أوجهاً كثيرة لإعجاز القرآن البياني والتشريعي والعلمي وما على المسلم إلا أن يعيش مع هذا الكتاب العظيم ليتعرَّفَ بقرارة نفسه وعمق يقينه أنه الكتاب الأوحد في هذا الكون الذي يأخذ على النفس الإنسانية جوانبها ويشبع منها الأحاسيسَ والمشاعرَ ويحرِّكُ فيها خلجاتها إلى حيث الأماني العالية ويحملها على الترفع عن حضيض المادة وجفافها، وهو وحده الذي يُحصِّنُ العقلَ من الإنزلاق والإسفاف في التفكير ويسلّمه من التناقض في أحكامه وما يصل إليه من تعيينات كونية. وأُمسكُ زمامَ القلم قائلاً في ختام هذا المبحث: اللهم ذَوِّقنا حلاوةَ القرآن وطعمه وحَبِّبه إلى قلوبنا ونفوسنا حتى نقدره قدره ونتخلَّق بأخلاقهِ التي هي صمامُ أمنِ حياتنا الفاضلة ومفتاحُ سعادتنا في الدنيا والآخرة يا أرحمَ الراحمين.

خامساً - أسئلة ومناقشات حول الإعجاز:

١- عَرِّف الإعجازَ القرآني وهاتِ فكرةً عامة عن التحدي والإعجاز.

٢- ما معنى المعجزة؟ وما أنواعها؟ وضح ذلك.

٣- تكلم عن لغة القرآن الكريم وفصاحته مبيناً وجه الإعجاز في ذلك.

٤- وضح تَفَرُّدَ الأسلوبِ القرآني وسُمُوَّهُ على غيره من الكلام.

٥- تكلم عن النسق الواحد في كتاب الله رغم تنقله بين مختلف الموضوعات.

٦- كيف يخاطب القرآن المستويات البشرية المختلفة بآن واحد؟ وضح ذلك.

٧- تكلم عن الوحدة الموضوعية في القرآن.

٨- بيِّنْ آراء المستشرقين في الوحدة الموضوعية ورد عليهم بأسلوب علمي.

٩- تكلم عن وفاء القرآن الكريم بحاجات البشر بإيجازٍ مع التمثيل.

١٠- ما هي أنواع الغيب في القرآن؟ وكيف تستدل بها على الإعجاز.

١١- آيات العتاب لرسول الله إحدى وجوه الإعجاز القرآني. وَضِّحْ ذلك.

١٢- كيف تستدل بما نزل بعد طولِ انتظارٍ من الآيات على إعجاز القرآن.

١٣- تكلم عن جلال الربوبية وعظمة الألوهية ووجه الإعجاز في ذلك.

المبحث العاشر

الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم

ويشتمل هذا المبحث على المسائل التالية:

١- تعريف النسخ.

٢- أدلة ثبوت النسخ.

٣- الحكمة من وجود النسخ في القرآن الكريم.

٤- أنواع النسخ.

٥- أسئلة ومناقشات حول البحث.

أولاً - تعريف النسخ:

النسخ لغة: الإزالةُ والنقلُ. يقال: نسخت الشمسُ الظِلَّ إذا أزالته، ونسخت الكتاب إذا نقلته. ويأتي بمعنى التغيير والإبطال وكلها معانٍ متقاربة[١].

وشرعاً: هو رفع الحكم الشرعي بخطاب شرعي متأخر.

ويقال فيه أيضاً: رفع الشارع حكماً شرعياً بدليل متراخٍ. والمعنى

---

(١) انظر «القاموس المحيط» ج١ ص٢٨١.

واحد[1].

ثانياً - أدلة ثبوت النسخ:

لقد اتفق العلماء على جوازِ النسخِ عقلاً وشرعاً وعلى أنه واقعٌ في القرآن والسنة، ولم يخالف هذا إلا أبو مسلم الأصفهاني رحمه الله فإنه جوَّز النسخ ولكنه قال: إنه لم يقع في القرآنِ الكريم.

وقد استدلَّ الجمهور على وقوع النسخ في القرآن الكريم بأدلة منها:

١- قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [النحل].

٢- وقال تعالى: ﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [البقرة].

فهاتان الآيتان تدلان بوضوحٍ وجَلاء على وقوعِ النسخ، ولا يحتاجُ الأمر إلى شرح وإيضاح، والله أعلم.

ثالثاً - الحكمة من وجود النسخ في القرآن الكريم:

إن للنسخ حِكَماً تشريعية بليغة وكثيرة منها:

١- مراعاة مصالح العباد. حيث ينسخ الحكم الذي لا يصلحُ للاستمرار ويُبدلُ بحكمٍ آخر صالح للاستمرار على تبدل العصور والأيام. وتلك سِمةٌ

---

(١) انظر «أصول الفقه» للشيخ أبو زهرة ص١٨٥ و«مباحث في علوم القرآن» للشيخ مناع القطان ص٢٣٢.

بارزة من سمات التشريع الإسلامي السمح.

ولئن قيل: لِمَ شرع الحكم الأول إذا لم يكن صالحاً للاستمرار؟

فالجواب: أنَّ ذلك الحكم صالح لتلك الفترة التي شرع فيها والحال يقتضي ذلك الحكم في حينها، وفي بقية الحِكَمِ التي سنذكرها ما يُوضِّحُ الإجابةَ على هذا التساؤل.

٢- تطور التشريع إلى مرحلة الكمال، وذلك حسب تطور الدعوة وحال الناس وما يعلم الله من تَحَمُّلِهم في كل مرحلة من مراحل حياتهم.

٣- الابتلاء. وذلك ليظهر مَنْ يمتثلُ أمرَ الله ممن لا يفعل ذلك، وهنا تَتكشَّفُ النفوس الضعيفة ويتميز الصفُّ المسلم، وفي هذا من الخيرِ للمسلمين ما اللهُ به عليم.

٤- إرادة الخير للأمة والتيسير عليها. لأن النسخ إنْ كان إلى حكمٍ أشَقّ من الحكم السابق ففيه زيادةُ ثوابٍ من الله تعالى، وإن كان إلى حكمٍ أخف ففيه السهولةُ واليُسر في الدنيا والله أعلم[١].

رابعاً - أنواع النسخ:

إن للنسخ أنواعاً كثيرة وسأعرض في هذه التأملات أهم هذه الأنواع وما يتصل منها بالقرآن الكريم بشكل خاص.

---

(١) انظر «مباحث في علوم القرآن» لمناع القطان ص٢٤٠.

١- نسخ القرآن بالقرآن.

وهذا النوع مُتَّفَقٌ على جوازِهِ ووقوعه عند جمهور العلماء القائلين بالنسخ ومثاله قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴿٢٤٠﴾ ﴾ [البقرة]. دلت هذه الآية الكريمة على أنَّ المرأةَ المتوفى عنها زوجها تمكث في العدة حولاً كاملاً. ثم نُسخت بقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴿٢٣٤﴾ ﴾ [البقرة] وهناك أمثلة كثيرة من هذا النوع.

٢- نسخ القرآن بالسنة.

والسنة في هذا الباب تقسم إلى قسمين:

الأول: آحاد، أي ما رواه واحدٌ عن واحدٍ من أوَّلِ السند إلى منتهاه، وهذا النوعُ لا يجوزُ نسخُ القرآنِ به عند جمهورِ العلماء لأنَّ القرآنَ متواترٌ قطعيٌّ والسنة الآحادية ظنيةٌ ولا يُنسَخُ اليقينُ بالظن.

الثاني: السنة المتواترة. وهي ما رواه جَمْعٌ عن جَمْعٍ من أول السند إلى منتهاه بحيث لا يمكن تواطؤهم على الكذب. وهذا النوع من السنة يجوز أن تنسخ القرآن الكريم عند جمهور العلماء لأنه يفيد اليقين، والكلُّ وحيٌ من الله تعالى قال تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [النجم].

ومثال هذا النوع وجوب الوصية للوالدين والأقربين ثَبَتَ بقوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ [البقرة].

وقد نسخت هذه الآية بقوله ﷺ: «ولا وصية لوارث»[1].

قال الإمام القرطبي: ننسخ الآية بالسنة الثابتة لا بالإرث على الصحيح من أقوال العلماء[2].

٣- نسخ السنة بالقرآن.

وهذا النوعُ جائز عند جمهور العلماء ومثاله: التوجه إلى القبلة نحو بيت المقدس فقد ثبت ذلك بالسنة ثم نسخ بقوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۝١٤٤﴾ [البقرة].

٤- نسخ السنة بالسنة.

ويندرج تحت هذا النوع أقسام السنة وهي أربعة في هذا المقام:

١- نسخ المتواتر بالمتواتر.

٢- نسخ الآحاد بالآحاد.

٣- نسخ الآحاد بالمتواتر.

٤- نسخ المتواتر بالآحاد.

فالأنواع الثلاثة الأُوَل جائزةٌ والنوعُ الرابع مَنَعَهُ الجمهورُ، وتفاصيل ذلك في كتب أصول الفقه، وأكتفي بهذه الإشارة إليه هنا.

٥- نسخ التلاوة والحكم معاً.

ومثاله: عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: كان فيما أنزل

---

(١) أخرجه الترمذي وقال حديث صحيح. وذكره الكتاني في «الأحاديث المتواترة».

(٢) انظر «الجامع لأحكام القرآن» ج٢ ص٢٦٣.

عشر رضعات معلومات يُحَرِّمْنَ فَنُسِخْنَ بخمسٍ معلومات[1].

فالذي نُسِخَ حكمهُ وتلاوته هنا هو عشرُ رضعاتٍ معلومات.

٦- نسخ الحكم وبقاء التلاوة.

ومثاله آيتا العدة، وقد سبق الكلامُ عليهما في النوع الأول، فالآية المنسوخة ما زالت تُتلى إلى يومنا هذا ولن تزال كذلك.

والحكمةُ في هذا النوع من النسخ أنَّ القرآن الكريم يُتلى للتعبُّدِ والثواب. كما يُتلى لمعرفة الأحكام. وأيضاً فالنسخُ غالباً ما يكون للتخفيفِ عن الأمة، فبقاء الآية المنسوخة يذكِّرُ بنعمة الله على عباده.

٧- نسخ التلاوة مع بقاء الحكم.

ومن أمثلة هذا النوع ما جاء عن أنس رضي الله عنه في قصة أصحاب بئر معونة الذين قُتلوا غدراً وكان رسولُ الله ﷺ يقنتُ في الصلاة ويدعو على قاتليهم. قال أنس: ونزل فيهم قرآنٌ قرأناهُ حتى رُفع «أنْ بَلِّغُوا عنا قومنا أنَّا لَقِينا رَبَّنا فرضيَ عنا وأرضانا» ثم نُسخت تلاوته[2].

ومنه أيضاً آية الرجم المشهورة «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم» فقد كانت تُتلى ثم نسخ لفظها وبقيَ حُكمها وهو رجمُ الزاني المحصن وقد طَبَّقه رسولُ الله ﷺ على ماعز والغامدية وهو أمرٌ معروف ومشهور. وقد قال عمر رضي الله عنه في الآية المذكورة: لولا أن يقول الناس زاد عمر في كتاب الله لكتبتها بيدي[3].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه البخاري. وانظر «روائع البيان في تفسير آيات الأحكام» للشيخ محمد علي =

هذا وللنسخِ أنواع أُخر وتفاصيلُ كثيرة لا تتسع لها هذه التأملات، وليرجع مَنْ شاء إلى كتب أصول الفقه فهي مَظَانُّها الحقيقية، والله أعلم.

خامساً - أسئلة ومناقشات حول البحث:

١- عرف النسخ لغة واصطلاحاً.

٢- اذكر مذاهب العلماء في النسخ مع أدلة الجمهور على ما ذهبوا إليه.

٣- وضح الحكمة من النسخ ووجوده في القرآن الكريم.

٤- تكلم عن خمسة أنواعٍ من النسخ مع الإيضاح والتمثيل لكلٍ منها.

= الصابوني ج١ ص١٠٤.

المبحث الحادي عشر

المحكم والمتشابه

ويشتمل هذا المبحث على المسائل التالية:

١- تمهيد: مفارقات بين الإحكام والتشابه القرآني.

٢- تعريف المُحْكَم والمتشابه.

٣- الراسخون في العلم ومتشابه القرآن.

٤- الحكمة من وجود المتشابه في القرآن الكريم.

٥- أسئلة ومناقشات حول البحث.

أولاً - مفارقات بين الإحكام والتشابه القرآني:

إن القرآن الكريم قد أُنزلَ على رسولِ الله ﷺ تبياناً لكلِّ شيءٍ وهدايةً للخَلْق إلى ربهم وتوضيحاً للمنهج الذي يحتاجه العباد حتى يقوموا بمهمتهم الكبرى وهي الخلافةُ عن الله في الأرض وعمارتها بالحق والعدل.

وكان القرآنُ الكريم هو المعجزة الكبرى والخالدة حتى قيام الساعة التي تُؤكِّدُ صِدْقَ رسولِ الله ﷺ في رسالته وأحقيته بقيادة البشرية دون سواه من الخلق أجمعين.

هذا القرآن الكريم إذا نظرنا إليه من ناحية إتقانه وإحكامه ورصانته فكله

مُحْكَمٌ، وقد قال الله تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ [هود] وإذا نظرنا إليه من جهة تماثل آياته في البلاغة والإعجاز وصعوبة المفاضلة بين أجزائه فكله متشابِهٌ، وعلى هذا المعنى فهم قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا ۝٢٣﴾ [الزمر] إذن فالقرآن كله مُحْكَمٌ بمعنى الإتقان والإحكام، وكله متشابه بمعنى التَّناسُبِ والتماثل.

إلا أن هذا ليس محل بحثنا هنا وإنما نريد أن نبحث عن المحكم والمتشابه المعنى بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٧﴾ [آل عمران] ففي الآية مُحْكَمٌ يقابله مُتَشابِهٌ وراسخون في العلم يقابلهم الذين في قلوبهم زَيْغٌ. فحَوْل هذه المعاني يدورُ بحثنا وعن غوامضها نحاولُ الجلاء مستعينين بالله وحده.

ثانياً - تعريف المحكم والمتشابه:

المُحْكَمُ لغةً من الإحكام، وإحكامُ الشيء: إتقانه، وأحكمه أتقنه، والمتشابه لغة مأخوذ من التشابه، وتشابه الكلام: تماثله بحيث يصدق بعضه بعضاً[1].

وأما في الاصطلاح فقد اختلف العلماء في بيان كُلٍّ منهما على أقوالٍ لعلَّ أوضحها وأشملها أن يقال: المحكم هو ما يدل على معناه بوضوحٍ لا خَفاءَ فيه، والمتشابه هو الذي يخلو من الدلالة الراجحة على معناه[2].

ومما يجدر ذكره هنا أن الله تعالى قد وصف الآيات المحكمات بأنها أم

---

(١) انظر «القاموس المحيط» ج٤ ص١٠٠ و٢٨٨.

(٢) انظر «مباحث في علوم القرآن» للدكتور صبحي الصالح ص٢٨٢.

الكتاب، أي: أساسهُ وأكثره، وقال عن المتشابه: وأُخر متشابهات مما يوحي بقلة المتشابه لجانب المحكم. وأمثلة المحكم لا حصرَ لها ويكفي أن تفتح القرآن الكريم وتقرأه بتدبرٍ لتقفَ على آياته المحكمات، وأما الآيات المتشابهات فهي مما يتعلق بأخبارِ الساعة وغيرها من الأمور الغيبية التي لا يدركُ العقلُ المجرد حقيقةَ كنهها أو زمانها أو مكانها، وكذلك بعض أوصاف الحساب والجزاء، والأحرف المُقَطَّعة في أوائل السور، وكذلك بعض آيات الصفات كما سنعرض لذلك لاحقاً إن شاء الله.

ثالثاً - الراسخون في العلم ومتشابه القرآن:

لقد تبين لنا أنَّ المُحْكمَ لا خفاءَ فيه ولكن المتشابه هو الذي خلا من الدلالة الراجحة على معناه وخفيَ المرادُ به، فهل الراسخون في العلم يعلمون هذا المتشابه؟! أم لا يعلمه إلا الله وحده؟

للإجابة على هذا التساؤل نقول: إنَّ للعلماء ثلاثة مذاهب في هذا الموضوع:

المذهب الأول: ذهب أكثر العلماء وعلى رأسهم ابن عباس وابن مسعود وأبي بن كعب وغيرهم رضي الله عنهم إلى أن المتشابه مما استأثر الله بعلمه وأن الراسخين في العلم لا يعلمون تأويله وقالوا: إن الوقف في الآية الكريمة على قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۝٧﴾ [آل عمران][1].

وأما الراسخون في العلم فيؤمنون بذلك ويقولون: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ۝٨﴾[آل عمران]. ويستدل القائلون بهذا المذهب على مذهبهم بأدلة منها:

١- أن الله تعالى ذكر الذين يتبعون المتشابه بمعرض الذم وأن في

(١) انظر كتاب «العدة في أصول الفقه» للقاضي أبو يعلى ج٢ ص٦٨٨.

قلوبهم زيغ وأنهم يبتغون الفتنة.

٢- روت أم المؤمنين رضي الله عنها فقالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾ [آل عمران] قال رسول الله ﷺ فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذرهم[1].

المذهب الثاني: وذهب بعض العلماء وعلى رأسهم الإمام مجاهد ورواية عن ابن عباس رضي الله عنه والإمام النووي وأبو الحسن الأشعري وأبو إسحاق الشيرازي وغيرهم إلى أن الراسخين في العلم يعلمون المتشابه واستدلوا على ذلك بأدلة منها:

١- إن الله تعالى لم ينزل القرآن إلا لينتفعَ به العبادُ، ويدل على معنى أرادَهُ منهم ولا يسوغ لأحدٍ أن يقول: إن رسول الله ﷺ لم يعلم المتشابه من القرآن وبالتالي فإن الربانيين من أصحابه يعلمونه لأنَّ الرسولَ لا بد أن يُبَيِّنَ القرآنَ بياناً كاملاً وإذا علمه الربانيون من الصحابة فيعلمه المفسرون من الأئمة من بعدهم عنهم.

٢- قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ ﴿٧﴾ ﴾ [آل عمران] يعلمون تأويله ويقولون آمنا به.

ولو لم يكن للراسخين في العلم حَظٌّ من العلم بالمتشابه لم يَبْقَ فرقٌ بينهم وبين الجاهل.

٣- وقالوا أيضاً: إن المفسرين لم يتوقفوا عن شيء من القرآن الكريم بل أَمَرُّوه على التفسير كله حتى الأحرف المقطعة في أوائل السور.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول عن نفسه: أنا من الراسخين في العلم[1] وقال الإمام النووي رحمه الله: إنه - علم الراسخين في العلم بالمتشابه - الأصح لأنه يبعد أن يخاطب الله عباده بما لا سبيلَ لأحدٍ من الخلق إلى معرفته[2].

المذهب الثالث: ويكاد هذا المذهب أن يكون موضحاً ومرجحاً بين المذهبين السابقين وهو ما عَبَّر عنه الراغبُ الأصفهاني رحمه الله بقوله: المتشابه على ثلاثة أضرب:

١- ضَرْبٌ لا سبيلَ إلى الوقوف عليه كوقتِ الساعة وخروج الدابَّة.

٢- ضرب للإنسان سبيلٌ إلى معرفته كالألفاظ الغريبة والأحكام المغلقة.

٣- ضرب متردد بين الأمرين يختص به بعض الراسخين في العلم ويَخْفَى على من دونهم وهو المشار إليه بقوله ﷺ لابن عباس: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»[3].

يقول الدكتور صبحي الصالح رحمه الله في «مباحثه»: ولا ريب أن في رأي الراغب قصداً واعتدالاً[4].

رابعاً - الحكمة من وجود المتشابه في القرآن الكريم:

لقد ذكر العلماء حكماً كثيرة لوجود المتشابه في القرآن الكريم ومن أهمها ما يلي:

---

(١) «البرهان في علوم القرآن» للزركشي ج٢ ص٧٢-٧٣.

(٢) «مباحث في علوم القرآن» للشيخ مناع القطان ص٢١٧.

(٣) «مناهل العرفان» ج٢ ص١٧٨.

(٤) «مباحث في علوم القرآن» للدكتور صبحي الصالح ص١٨٣.

١- إن في خفاء بعض آياته وعجز البشر عن الوصول إلى حقيقتها القطعية ما يُقلِّلُ من غرور الإنسان وكبريائه.

٢- الحث على العلم وسبر أغواره حتى يصلَ الإنسانُ إلى إدراك أكبر قدرٍ من الحقائق وليتحرى العلم ويتحرر من الجهل والتقليد.

٣- بيان فضل العالم على الجاهل ولو فَهِم جميعُ الخَلْقِ القرآنَ الكريم على حدٍّ سواء لاستوى العالمُ والجاهل وبطل التفاضل بين الناس، وهذا خلاف ما فطر الله النفوس عليه.

٤- إقامة الحجة على الخلق وإثبات الإعجاز لهذا الكتاب العظيم حيث يجهلُ العلماءُ بعضَ ما فيه مع أنه كلامٌ صِيْغَ من الحروفِ التي يتكلمون بها وبالعربية التي يتفاصحون ببيانها.

٥- وأخيراً في ذكر المتشابه الذي استأثر الله بعلمه ابتلاءٌ واختبارٌ للبشر ليظهر مدى إيمانهم بالغيب الذي يخبر الله عنه ولا مجال للعقل للوقوف على حقيقته وكنهه من كل وجه. والإيمانُ بالغيب أساسٌ متين من أسس العقيدة الإسلامية وبه يتميز المؤمنُ من الملحد الكافر، والعاقل عن البهيم الذي لا يؤمن إلا بما يراه بصره. هذا وبالله التوفيق[1].

خامساً - أسئلة ومناقشات حول البحث:

١- يقال: القرآن كله مُحْكَمٌ، وكله متشابه. وَضِّحْ هذا القول مع الأدلة عليه.

٢- عرف المحكم والمتشابه لغة واصطلاحاً.

---

(١) انظر «البرهان» للزركشي ج٢ ٧٥ و«مباحث في علوم القرآن» وصبحي الصالح ص١٨٣.

٣- بين مذاهب العلماء في معرفة الراسخين في العلم لمتشابه القرآن مع أدلتهم وبيان الراجح منها.

٤- وضح الحِكَم التي ذكرها العلماء لوجود المتشابه في القرآن الكريم.

المبحث الثاني عشر

العام والخاص

ويشتمل هذا المبحث على المسائل التالية:

١- تعريف العام وأقسامه.

٢- صيغ العموم.

٣- الخاص والتخصيص وأنواع المخصص.

٤- أسئلة ومناقشات حول البحث.

أولاً - تعريف العام وأقسامه:

العام في اللغة الشاملُ وخلاف الخاص[١].

وفي الاصطلاح: لفظٌ يستغرقُ الصالحَ له من غيرِ حصرٍ.

وأقسامه ثلاثة:

الأول: العام الباقي على عمومه ومثاله قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا ﴿٤٤﴾﴾ [يونس] ولفظ العام هنا هو «الناس» لأنه مُعَرفٌ بأل.

الثاني: عام أُريدَ به الخصوص كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ

(١) انظر «المعجم الوسيط» ج٢ ص٦٢٩.

﴿ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران] فالمرادُ بالناسِ الذين قالوا نعيم بن مسعود لَمَّا قال للمسلمين بعد غزوةِ أُحد وهم متوجهون إلى مكة لصدِّ عدوانٍ متوقع من قريش لقيهم نعيم في حمراء الأسد - مكان قريب من مكة - وقال لهم: إنَّ الناسَ قد جمعوا لكم فاخشوهم فقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل. والمرادُ بالناس المقول عنهم أنهم اجتمعوا لحربِ المسلمين أبو سفيان فهو الذي جمعَ الناسَ للحربِ في تلك الفترة أو هو ومَنْ جمعهم، فكلمةُ الناس هنا عامة إلا أنها أُريدَ به الخصوص كما تبين.

الثالث: العام المخصوص: وهو الذي دخل عليه أحد أدوات التخصيص التي سنتكلم عليها ومثاله قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشعراء] فلفظ العام هنا الشعراء والذي خصصه هو الاستثناء بإلا في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي فهؤلاء ليسوا ممن يتبعهم الغاوون، وأمثلة هذا النوع كثيرة والله أعلم.

ثانياً - صيغ العموم:

الألفاظ التي تدل على العموم بوجوهه المتقدمة كثيرة منها:

١- كلمة كل: وذلك كقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران].

٢- المعرف بأل: كقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾﴾ [العصر].

٣- النكرة في سياق النفي: كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء].

٤- الأسماء الموصولة: كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ﴿١٦﴾﴾ [النساء].

٥- أسماء الشرط: كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ﴿١٩٧﴾﴾ [البقرة].

ثالثاً - الخاص والتخصيص وأنواع المخصص:

١- الخاص في اللغة هو نقيض العام[1].

وفي الاصطلاح: هو الذي لا يستغرق الصالح له من غير حصر - أي دلالته محصورة لا عامة.

٢- والتخصيص هو إخراج بعض ما يتناوله اللفظ العام.

٣- والمخصص للعام نوعان متصل ومنفصل.

النوع الأول: المخصص المتصل: وأقسامه خمسة وهي:

١- الاستثناء كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَـٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [المائدة] فالآية الكريمة ذكرت، حَدَّ الحَرَابة عقوبة زاجرة للذين يسعون في الأرض فساداً، ويخيفون طرق المسلمين، ويعتدون على المارة والمسافرين وغيرهم ولكن تشجيعاً لأمثال هؤلاء المحاربين المفسدين على التوبةِ والرجوعِ عن فسادهم فقد أسقطَ اللهُ حَدَّ الحرابة عمن يتوبُ ويعلن توبته قبل أن يقدر

(١) انظر «المعجم الوسيط» ج١ ص٢٣٧.

عليه الحاكم المسلم وذلك في الآية الثانية: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ ﴿٣٤﴾ ﴾ [المائدة] وهذا تخصيصٌ لعمومِ الحَدِّ السابق ذكره في الآية الأولى، والله أعلم.

٢- الصفة: كقوله تعالى: ﴿ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ ﴿٢٣﴾ ﴾ [النساء] الآية الكريمة تذكر المحرمات في باب النكاح ومنهن الربائب - بنات الزوجة - ولكن تخص المحرم منهن باللاتي دخل الرجل بأمهاتهن، فاللاتي دخلتم بهن صفة للنساء اللاتي تحرم بناتهن على أزواجهن، ويُفهَمُ من هذا أن الرجل إذا عقد على امرأة ولم يدخل بها ثم ماتت أو طلقها فيجوز له أن يتزوج ابنتها إنْ كان لها بنتٌ من غيره. والقاعدة الشرعية التي تضبط هذا الأمر هي: الدخول في الأمهات يحرم البنات، والعقد على البنات يحرم الأمهات.

٣- الشرط كقوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ [البقرة] خصت الآية وجوب الوصية بمن ترك خيراً، أي: خَلَّفَ مالاً، ومَنْ لا يوجد عنده مال فلا تجب عليه الوصية.

٤- الغاية: كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ ﴿١٩٦﴾ ﴾ [البقرة] فالحلق في الإحرام حرامٌ، ولهذه غاية وأجل، وقد بين الله غاية النهي عن الحلق، أي: حتى تنحروا الهديَ يومَ العيد فإذا بلغ الهديُ محلَّهُ فلا حرَجَ من حلق الرأس حينئذٍ، والله أعلم.

٥- بدل البعض من كل: كقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ ﴿٩٧﴾ ﴾ [آل عمران] فقوله تعالى: ﴿ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ ﴾ بدل بعض من كل والكل هو الناس في قوله ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾.

النوع الثاني: المخصص المنفصل:

ويراد به ما كان منفصلاً عن الآية التي تفيدُ العموم، وأقسامه أربعة:

١- القرآن الكريم: وذلك بأنْ تَرِدَ آيةٌ منفصلة عن الآية التي أفادت العموم فتخصصها كقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴿٢٢٨﴾﴾ [البقرة] خصت هذه الآية بقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴿٤﴾﴾ [الطلاق] فعدة المطلقة ثلاثة قروء - والقرء هو الطُّهْرُ أو الحيض - وإذا كانت المطلقةُ حاملاً فتنتهي عدتها بوضع حملها طالت المدةُ أو قصرت.

٢- السنة الشريفة: كقوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ﴿٢٧٥﴾﴾ [البقرة].

خصت هذه الآية بما نهى عنه الرسول ﷺ من البيوع كبيع المنابذة والملامسة والحصاة وبيع حاضرٍ لبادٍ، ونحو ذلك.

٣- الإجماع كقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ ﴿١١﴾﴾ [النساء] خصت هذه الآية بالإجماع على أنَّ الولدَ الرقيقَ لا يرث لأنه لو ورث لانتقل المالُ من الأقاربِ والأرحام إلى سيده البعيد عنه.

٤- القياس: كقوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ ﴿٢﴾﴾ [النور] خص من ذلك العبد فيجلد نصف حَدِّ الحُرِّ، أي: خمسين جلدة وذلك قياساً على الأمَة التي خصصها قوله تعالى: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ﴿٢٥﴾﴾ [النساء] وذلك لأنَّ مكانةَ العبد المبتذلة عند الناس تجعل إقدامه على ما يخدش بالحياء من الأخلاق السيئة أكثر من

إقدام الحر الشريف، ولهذا خفف الله عنه الحد مراعاة لحاله، والله أعلم[1].

رابعاً - أسئلة ومناقشات حول البحث:

١- عَرِّف العام لغة واصطلاحاً.

٢- اذكر أنواع العام مع مثالٍ لكلٍّ منها.

٣- ما هي الصيغ التي تفيد العموم؟ اذكرها مع التمثيل لها.

٤- عرف الخاص والتخصيص.

٥- ما هي أنواع المخصص المتصل؟ مع مثال لكلٍّ منها.

٦- اذكر أنواع المخصص المنفصل مع مثالٍ لكل منها.

---

(١) انظر تفاصيل أحكام العام والخاص في كتاب «الإتقان» للسيوطي ج٢ ص١٦ و«مباحث في علوم القرآن» للقطان ص٢٢٦ و«مباحث في علوم القرآن» لصبحي الصالح ص٣٠٤.

المبحث الثالث عشر

المُجْمَل والمبين

ويشتمل هذا البحث على المسائل التالية:

١- تعريف المجمل.

٢- أسباب الإجمال في القرآن الكريم.

٣- أنواع البيان لمجمل القرآن الكريم.

٤- أسئلة ومناقشات.

أولاً - تعريف المجمل:

المجمل لغة معناه الموجز[١] واصطلاحاً: هو ما لم تَتَّضِح دلالته[٢].

ثانياً - أسباب الإجمال في القرآن الكريم:

الإجمالُ بمعناه المتقدم واقعٌ في القرآن الكريم ولم يَنْفِ وجوده إلا داود الظاهري غير أنه لا يبقى على حاله لا سيما في الأمور التشريعية التي تعبَّدَ اللهُ الناسَ بها؛ بل لا بد له من بيان كما سيأتي. أما الأسباب التي اقتضت وجود الإجمال في القرآن الكريم فهي كثيرة منها:

---

(١) انظر «المعجم الوسيط» ج١ ص١٣٦.

(٢) انظر «الإتقان» للسيوطي ج٢ ص١٨.

١- غرابة اللفظ: كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾﴾ [المعارج] فكلمة «هلوعاً» غريبة لقلة استعمالها وسيأتي بيانها.

٢- كون اللفظ مشتركاً بين أكثر من معنى حسب وضعه اللغوي كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾﴾ [التكوير] فكلمة «عسعس» صالحةٌ لإرادةِ الإقبال والإدبار.

٣- الاختلاف في مرجع الضمير. كقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴿١٠﴾﴾ [فاطر] فقوله «يرفعه» يحتمل عود الضمير إلى الله تعالى أي: الله يرفعُ العملَ الصالح. ويحتمل عوده إلى الكلم الطيب أي: والعملُ الصالح يرفع الكلم الطيب، قال قتادة: لا يقبل الله قولاً إلا بعمل. من قال وأحسن العمل قبل الله منه. نقله الطبري(١).

٤- التقديم والتأخير. كقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾﴾ [طه] أي: ولولا كلمة سبقت من ربك وأجلٌ مسمىً لكان لزاماً.

٥- قلة الاستعمال: كقوله تعالى: ﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ ﴿٩﴾﴾ [الحج] أي: متكبر(٢).

ثالثاً - أنواع البيان لمجمل القرآن:

إن الإجمال الواقع في كتاب الله تعالى لا يلبث أن يزول عند ورود بيانه ويسمى حينئذٍ مفصلاً ومبيناً وأنواع البيان اثنان:

الأول: بيان القرآن بالقرآن.

---

(١) انظر «صفوة التفاسير» للصابوني ج٢ ص٥٦٨.

(٢) راجع أسباب الإجمال في «الإتقان» للسيوطي ج٢ ص١١٨، و«البرهان» للزركشي ج٢ ص٢٠٩.

لقد تقدم معنا في باب التفسير تفسير القرآن بالقرآن وتفسير القرآن بالسنة، ونعيد هنا طرفاً من البحث مما يَخصُّ بيانَ المُجْمَلِ ويزيدهُ إيضاحاً فنقول: إما أنْ يكون المبيِّن - بكسر الياء - متصلاً بالمجمل أو منفصلاً عنه.

فالمبين المتصل: كقوله تعالى: ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴿١٨٧﴾ ﴾ [البقرة] فقوله «من الفجر» مبين لما قبله ولولاه لبقيَ الكلامُ محتملاً أكثر من معنى.

والمبين المنفصل: كقوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾ [الفاتحة] وقد بيَّنَ الله تعالى الذين أنعم عليهم في آيةٍ أخرى فقال سبحانه: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [النساء] وهذا النوعُ كثيرٌ جداً في القرآن الكريم يدركه مَنْ قرأ كتابَ الله وألقى السمع وهو شهيد[١].

الثاني: بيان القرآن بالسنة.

قال الإمام الزركشي رحمه الله: اعلمْ أنَّ القرآنَ والحديث أبداً متعاضدان على استيفاء الحق وإخراجه من مدارك الحكمة حتى إنَّ كُلَّ واحدٍ منهما يخصص عموم الآخر ويبين إجماله[٢].

ومن أمثلة السنة للقرآن الكريم قوله ﷺ في وصف الجنة: فيها ما لا عينٌ رأت ولا أُذنٌ سمعت ولا خطَرَ على قلب بشر، بَلْه ما اطلعتم عليه، ثم قال: اقرؤوا إن شئتم: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة].

---

(١) انظر «البرهان في علوم القرآن» للزركشي ج٢ ص٧٥-١٥٦.

(٢) «البرهان» ج٢ ص١٢٩.

وأكثر ما يكونُ بيانُ السنة في أمورِ التشريعِ والحلالِ والحرام فمثلاً الصلاة فسّر النبي ﷺ أفعالها وأقوالها بفعله: «صَلُّوا كما رأيتموني أصلي»[1] وكذلك الزكاة بَيَّنَ مقاديرها وأنصبتها، والحج وضع مناسكه وقال: «خُذُوا عني مناسككم»[2] ولولا بيانه ﷺ لهذه الشعائر لما عرفنا كيف نصلي ولا كيف نزكي ولا عرفنا الحج ولَجَهِلْنَا أَهَمَّ أمورِ الدين وفرائضه، وهذا أمر بَدَهِيٌّ لا ينكره إلا مُكابِرٌ أو صاحب هوى وانحراف.

وفي بيان معاضدة السنة للقرآن وبيانها لِمُجْمَلِه ألّف الإمامُ الحكم بن برجان كتابه المسمى «الإرشاد في تفسير القرآن» ومما قال فيه: ما قاله النبي ﷺ من شيء فهو في القرآن وفيه أصله قَرُبَ أو بَعُدَ. فَهِمَهُ مَنْ فهمه وعَمِهَ عنه من عمه[3] وبالله التوفيق.

رابعاً - أسئلة ومناقشات:

١- عَرِّف المُجملَ واذكر أسباب الإجمالَ في القرآن الكريم مع التوضيح والتمثيل.

٢- تكلم عن بيان القرآن بالقرآن مع التمثيل والتوضيح.

٣- تكلم عن مكانة السنة من القرآن وبيانها له مع الأدلة والتمثيل.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه مسلم والنسائي وأحمد.

(٣) «مباحث في علوم القرآن» لصبحي الصالح ص٣١١ نقله عن «البرهان» ج٢ ص١٢٩.

المبحث الرابع عشر

المطلق والمقيد في القرآن الكريم

ويشتمل هذا المبحث على المسائل التالية:

١- تعريف المطلق والمقيد.

٢- مذاهب العلماء في حمل المطلق على المقيد.

أولاً - تعريف المطلق والمقيد:

من أنواعِ البيان العربي اختلاف صيغ الأداء التي يعبر بها الشخص عن مقصودهِ فأحياناً يرد الحكمُ على الشيء مطلقاً من أيِّ قيدٍ أو صفة أو شرط وأحياناً تجد الكلام مقيداً ببعض الصفات والشروط. ولكلٍّ من الأسلوبين دلالته وإفادته للمعنى. ويهمنا في هذه التأملات أن نعرف المطلق والمقيد في القرآن الكريم ومدى تأثر الأحكام الشرعية بالنصوص المطلقة والمقيدة فيه. فالمطلق في اللغة ضد المقيد.

وفي الاصطلاح: هو ما دَلَّ على الحقيقة بغيرِ قيدٍ ويتناول واحداً لا بعينه منها. والمقيد لغة: قال الجوهري في الصحاح: والمقيَّد موضع القيد من رِجْلِ الفرس[1] واصطلاحاً: هو ما دَلَّ على الحقيقة بقيد.

(١) انظر «صحاح الجوهري» ج٢ ص٥٢٩ تحقيق أحمد عبدالغفور عطار.

ومن أمثلة المطلق قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ۖ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المائدة] ذكرت الآية الرقبة هنا مطلقةً من أي وصف.

ومن أمثلة المقيد قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴿٩٢﴾﴾ [النساء] فقد ذكرت الآية هنا الرقبة مقيدةً بوصفِ الإيمان كما هو واضح.

ثانياً - مذاهب العلماء في حمل المطلق على المقيد:

إذ اتحد سبب الحكم الشرعي وورد مرة مطلقاً وأخرى مقيداً فالشافعية يحملون المطلق على المقيد وغيرهم من الفقهاء لا يرى ذلك، بل يبقى المطلق على إطلاقه والمقيد على تقييده، ومن أمثلة ذلك آية الوضوء والتيمم في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ ﴿٦﴾﴾ [المائدة].

يلاحظ في الآية الكريمة أنها ذكرت أحكامَ الوضوء والتيمم وسبب كلٍّ منهما واحد، وهو رفع الحدث والطهارة للصلاة، وقد ذكرت الآية الأيدي في الوضوء مقيدةً بالمرافقِ وذكرتها في التيمم مُطلقةً من هذا القيد كما هو واضح في الآية. وبناء على ما تقدم فالشافعيةُ يوجبون مسحَ اليدين إلى المرفقين في التيمم حملاً للمطلق على المقيد عند اتحاد السبب. وغيرهم

من الفقهاء لا يرى ذلك ويكفي عندهم مسح اليدين إلى الكفين فقط في التيمم لأنَّ اليدين عند الإطلاق تُحملُ على الكفين.

أما إذا اختلف سببُ الحكم فجميعُ الفقهاء لا يحملون المطلق على المقيد وذلك كتقييد الأيدي بالمرافقِ في آيةِ الوضوء المتقدمة وإطلاقها من القيد في آية السرقة في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا ﴿٣٨﴾﴾ [المائدة] فالفقهاء متفقون هنا على أن يد السارق تقطع من الرُّسغ ولا يُحملُ المُطْلَقُ على المقيد في آيةِ الوضوء لاختلافِ السبب، والله أعلم[1].

ثالثاً - أسئلة ومناقشات حول المطلق والمقيد:

١- عرف المطلق والمقيد لغة واصطلاحاً.

٢- مَثِّلْ لكلٍّ من المطلق والمقيد بمثال.

٣- وضح مذاهب الأئمة الفقهاء في حمل المطلق على المقيد مع التمثيل.

---

(١) انظر «الإتقان» للسيوطي ج٢ ص٣١ و«البرهان» للزركشي ج٢ ص١٥.

المبحث الخامس عشر

المنطوق والمفهوم

ويشتمل هذا المبحث على المسائل التالية:

١- تعريف المنطوق وأنواعه.

٢- تعريف المفهوم وأنواعه.

٣- الاحتجاج بالمنطوق والمفهوم في الأدلة الشرعية.

٤- أسئلة ومناقشات حول البحث.

أولاً - تعريف المنطوق وأنواعه:

المنطوق هو ما دَلَّ عليه اللفظُ في محل النطق. وذلك كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء] فإن هذه الآية تدل بصريح العبارة على تحريم التأفُّفِ من الوالدين، ويُفهَمُ هذا المعنى بمجردِ النُّطْقِ بهذا الكلام.

هذا وقد قسم العلماء المنطوق إلى أقسامٍ أهمها وأشهرها أربعة، ونعرض لها بإيجاز في هذه التأملات:

١- الصريح: وهو ما وُضِعَ اللفظُ له أصلاً، ومثاله قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴿٢٧٥﴾﴾ [البقرة] فقد دلّ بمنطوقه الصريح على حِلِّ البيع وحرمة الربا.

٢- دلالة الاقتضاء. وهي دلالةُ اللفظ على ما يكون مقصوداً للمتكلم ويتوقفُ عليه صِدْقُ الكلام أو صحته، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ ﴿١٨٤﴾﴾ [البقرة] وتقدير الكلام: فمن كان منكم مريضاً أو على سفرٍ «فأفطرَ» فعدةٌ من أيام أخر، فإن صحة المعنى هنا تقتضي إضافة هذه الكلمة، ولذا سميت الدلالةُ دلالةَ الاقتضاء.

٣- دلالة الإيماء: وهي دلالة اللفظ على معنى مقصودٍ للمتكلم ولا يتوقف عليه صِدْقُ الكلام ولا صحته، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المائدة] فالأمرُ بقطع اليد مقترنٌ بالوصفِ الذي هو السرقة وهذا إيماءٌ إلى أنَّ علة القطع هي السرقة وإلا لما كان لهذا الوصف معنى[1].

٤- دلالة الإشارة. وهي دلالة اللفظ على معنى لازم غير مقصود للمتكلم. ومثاله قوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ۚ ﴿١٥﴾﴾ [الأحقاف] مع قوله تعالى: ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان] فإنَّ المتأمل في الآيتين يتبين له أنَّ أقلَّ الحمل ستة أشهرٍ، وهذا المعنى ليس هو المقصود من سياق ونص كلٍّ من الآيتين أصالةً وإنما يُفهَمُ ذلك من التأمل فيهما.

ثانياً - المفهوم وأنواعه:

المفهوم هو ما دل عليه اللفظُ في محل السكوت كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء] دلت الآية على تحريم التأفف بمنطوقها ودلت بمفهومها على تحريمِ الضربِ، بل هو أوْلى لأنه أشد في الإيذاء.

(١) انظر «أثر الاختلاف في القواعد الأصولية في اختلاف الفقهاء» د. مصطفى الخن ص١٤١.

ويقسم المفهوم إلى قسمين أساسيين: مفهوم موافقة ومفهوم مخالفة ولكلٍّ منهما أنواع أذكرها بإيجاز سريع فيما يلي:

١- مفهوم الموافقة وأنواعه:

مفهوم الموافقة هو ما يوافق حكمه حكم المنطوق وهو على نوعين:

الأول: فحوى الخطاب. وهو ما إذا كان المفهوم أوْلى بالحكم من المنطوق ومثاله: تحريم ضرب الوالدين من قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ كما تقدم.

الثاني: لحن الخطاب. وهو ما يتساوى فيه حكم المفهوم مع حكم المنطوق كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗا ﴿١٠﴾﴾ [النساء] فمنطوقُ الآية تحريم أكل مال اليتيم ومفهومها تحريم إحراقه وإتلافه، وكلا الحكمين متساويان في التحريم.

٢- مفهوم المخالفة وأنواعه:

مفهوم المخالفة هو دلالة اللفظ على حكم للمفهوم مخالف لحكم المنطوق، ومثاله قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴿٣﴾﴾ [المائدة] فمنطوقُ الآية يُحَرِّمُ ما أُهِلَّ لغيرِ الله به، ومفهومها أن ما ذبح ولم يذكر عليه اسم غير الله حلالٌ.

أنواع مفهوم المخالفة:

ولمفهوم المخالفة أنواع أشهرها خمسة وهي:

١- مفهوم الصفة. كقوله تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴿٦﴾﴾ [الحجرات] فمفهومُ كلمة فاسق أنه لا يجبُ التثبُّتُ من خبرِ العَدْلِ وينبني

على ذلك الأخذُ بخبرِ الواحدِ العَدْلِ الثقة.

٢- مفهوم العدد. ومثاله قوله تعالى: ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴿٤﴾﴾ [النور] فمفهوم ثمانين أنه لا يجلد من يقذف المحصنات أقل ولا أكثر من هذا العدد.

٣- مفهوم الشرط. ومثاله قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُولَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴿٦﴾﴾ [الطلاق] يفهم من الآية الكريمة أنَّ المطلقات إنْ كُنَّ غير حوامل فلا تجبُ لهن النفقة.

٤- مفهوم الغاية. كقوله تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ﴿٢٣٠﴾﴾ [البقرة] علقت الآية عدم حِلِّ المطلقة ثلاثاً لزوجها الأول بغاية هي أنْ تنكحَ زوجاً غيره فإنْ نكحتْ زوجاً ثانياً وطلقها الثاني حَلَّتْ للأول وإلا فلا تَحلُّ له.

٥- مفهوم الحصر. ومثاله قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة] يفهم من الآية أن غيره تعالى لا يُعبد ولا يُستعانُ به، وذلك لأنه في اللغة إذا تقدم المعمولُ على العامل أفاد الحصرَ والاختصاصَ وهنا تَقدَّمَ المعمولُ وهو المفعول على العامل وهو الفعل.

ثالثاً - الاحتجاج بالمنطوق والمفهوم في الأدلة الشرعية:

لا خلاف عند العلماء في الاحتجاج بدلالة المنطوق بأنواعه عند استنباط الأحكام الشرعية من الآيات والأحاديث النبوية.

أما المفهوم فقد اتفق جميعُ العلماء على الاحتجاجِ بدلالةِ مفهوم الموافقة، ولم يخالف في ذلك إلا الظاهرية.

أما مفهوم المخالفة فقد أثبتَ الاحتجاجَ به جمهورُ العلماء: مالك

والشافعي وأحمد رحمهم الله، ولم يحتجَّ به أبو حنيفة وأصحابه رحمهم الله، وقد استدلَّ الجمهورُ على مذهبهم بأدلةٍ منها.

١- أن يعلى بن أمية قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما: ما بالنا نَقصرُ الصلاةَ وقد أَمِنَّا وقد قال الله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۝١٠١﴾ [النساء] قال عمر: لقد عجبتُ مما عجبتَ منه فسألتُ النبي ﷺ عن ذلك فقال لي: هي صدقةٌ تَصدَّقَ اللهُ بها عليكم فاقبلوا صدقته[1] ووجهُ الدلالةِ في هذا الحديث أن يعلى بن أمية وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما هما من فُصحاء العربِ وقد فهما من قوله تعالى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾ عدم جواز القصر عند الأمنِ، وهذا هو مفهوم المخالفة، وقد أقرَّ النبيُّ ﷺ فَهْمَهُمَا ولكنه بيَّنَ أنَّ هذه رخصة وصدقة من الله تصدق بها على عباده.

٢- واحتجوا أيضاً بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ۝٦﴾ [الحجرات] فلو كان حكم الفاسق وغيره سواء في وجوب التثبت منه لما كان لذكرِ الفاسقِ فائدةٌ، وتَعالى كلامُ اللهِ عن العبث. وبهذا يظهر لنا رجحانُ مذهبِ الجمهور في الاحتجاجِ بمفهومِ المخالفة، والله أعلم.

رابعاً - أسئلة ومناقشات حول المنطوق والمفهوم:

١- عرف المنطوق واذكر أنواعه مع التمثيل لها.

٢- ما هو المفهوم؟ وما هي أنواع مفهوم الموافقة؟ وَضِّحْ ما تقول بالمثال.

---

(١) رواه مسلم وأصحاب السنن وأحمد في «المسند».

٣- تكلم عن أنواع مفهوم المخالفة مع مثالٍ لكل منها.

٤- تكلم عن مذاهب العلماء في الاحتجاج بالمنطوق والمفهوم مع ذكر الأدلة والترجيح.

المبحث السادس عشر
المتقدم والمتأخر في القرآن الكريم

ويشتمل هذا المبحث على المسائل التالية:

١- تمهيد في معنى التقديم والتأخير.

٢- أسباب التقديم والتأخير.

٣- أسئلة ومناقشات.

أولاً - تمهيد في معنى التقديم والتأخير:

إنَّ الترابطَ في الكلام ووضع كل كلمة في مكانها اللائق من الجملة من أهم مقوماتِ البلاغة والبيان، وكثير من الكلمات لو قَدَّمتها أو أخرتها عن محلها لفسد عليك المعنى الذي تُريدهُ أو ضاعَ جمالُه ورونقه أو أخلَّيت ببعض أساسيات التعبير العربي الفصيح على أقل احتمال. إذن فلكلٍّ كلمةٍ في موضعها من الجملة معنىً متقدمة كانت أو متأخرة، والسؤال الذي يطرح نفسه هو: ما هي الأسس التي تراعى عند صياغةِ الجمل البيانية؟ ولماذا يُقدَّمُ بعضُ الكلام على بعضه الآخر؟ وما هو الدورُ الذي تَضَلَّعَ به القرآنُ الكريم في هذا المجال؟ هذا ما سنحاول الإجابة عليه في هذه التأملات وبإيجاز في الفقرة اللاحقة إن شاء الله.

ثانياً - أسباب التقديم والتأخير:

إن للتقديم والتأخير أسباباً كثيرة، وقد كان القرآن الكريم في هذا الباب - كغيره - المثل الأعلى الذي يتطلع إليه أهلُ الصناعة الأدبية والبيانية ليهتدوا إلى أفضلِ السُّبلِ فيجملوا بها كلامهم وأحاديثهم ومن أهم تلك الأسباب ما يلي:

١- أن يكون الأصل في الكلمة التقديم، ولا مقتضى للعدول عنه.

وذلك كتقدم المبتدأ على الخبر، والفاعل على المفعول، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء] وقوله: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ﴿٦٧﴾﴾ [التوبة] فقد تقدم في الآيتين كُلٌّ من الفاعلِ والمبتدأ على المفعول والخبر بناءً على الأصلِ في ذلك.

٢- أن يكون في التأخير إخلال في المعنى فيقدم لتلافي ذلك. كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ﴿٢٨﴾﴾ [غافر] فلو أخر قوله ﴿مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ لما فهم أنَّ هذا المؤمنَ منهم، بل يفهم إنه يكتم إيمانه منهم خشيةً وخوفاً، وهذا غير المراد، ولذلك قُدِّمَ على ما بعده، والله أعلم.

٣- أن يكون في التأخير إخلال في التناسب فيقدم لمشاكلة الكلام ومراعاة الفاصلة. وذلك كقوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾ [طه] فلو أخر قوله ﴿فِي نَفْسِهِ﴾ عن قوله ﴿مُّوسَىٰ﴾ لفات تناسب الفواصل لأن قبل الآية المذكورة قوله تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾ وبعدها قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾ [طه].

٤- يقدم بعض الكلام لعظمته والاهتمام به.

وعادة العرب أن يبدؤوا بالأهم والأَوْلى، ومن أمثلة ذلك في القرآن الكريم: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴿١٢﴾﴾ [التغابن].

٥- أن يكون التقديم لإرادة التعجب من المذكور أو تحقيره.

ومثاله قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ ﴿١٠٠﴾﴾ [الأنعام] قدم كلمة شركاء لأنَّ المراد التوبيخ والتحقير، وتقديمهم في الذكر أبلغ في حصوله.

٦- أن يراد الاختصاص فيقدم المفعول على الفعل والخبر على المبتدأ كقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة].

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران].

قدم في الآية الأولى المفعول «إياك» على الفعل ليخصص العبادة والاستعانة به سبحانه وينفيها عن غيره.

وقدم في الثانية الخبر «بيدك» على المبتدأ «الخير» ليفيد أنَّ الخيرَ بيد الله وحده ولا يملك البشر منه شيئاً.

٧- أن يراد التشريف فيقدم الأشرف على غيره.

ومثاله قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب] فالرجالُ أشرفُ مكانة من النساء من حيث المبدأ العام - وإن كان قد يوجد بعض النساء مَنْ تفوق كثيراً من الرجال[1].

---

(١) انظر «البرهان» للزركشي ج٣ ص٢٣٣ ما بعدها.

وهناك أسباب أخرى تقتضي التقديم أو التأخير نكتفي بذكر هذا القدر في هذه التأملات خشيةَ الإطالةِ والملل والله وحده ولي التوفيق.

ثالثاً - أسئلة ومناقشات حول المبحث:

١- تكلم عن معنى التقديم والتأخير ومكانتهما في صنع البلاغة والبيان.

٢- اذكر أهم أسباب التقديم والتأخير مع مثالٍ لكلٍّ منها.

المبحث السابع عشر
قصص القرآن الكريم

ويشتمل هذا المبحث على المسائل التالية:

١- معنى القصص القرآني.

٢- أنواع القصص القرآني.

٣- الحكمة من سرد القصص في القرآن الكريم.

٤- أسئلة ومناقشات حول البحث.

أولاً - معنى القصص القرآني:

القصص لغة تتبع الأثر، قال تعالى: ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ﴾ [القصص] أي تتبعي أثره، والقصص كذلك الأخبارُ المتتابعةُ، والقصة الأمر والشأن والحال. فالقصص القرآني إذن هو: إخباره عن أحوال الأمم الماضية والنبوات السابقة والحوادث الواقعة.

هذا وقد اشتمل القصص القرآني على كثير من أخبار البلاد والديار وتتبع آثار الأقوام وحكى عنهم صورةً ناطقةً لما كانوا عليه.

وليس القصصُ القرآني كما يزعم المستشرقون وأذنابهم عبارة عن خيالات مصطنعة ومُتَصيدة من فراغ. بل هو حقائق واقعية وأحداث ذكرها

القرآن الكريم كما كانت في حينها.

ثانياً - أنواع القصص القرآني:

القصص في القرآن الكريم على ثلاثة أنواع:

١- قصص الأنبياء السابقين عليهم الصلاة والسلام.

ويتضمن دعواتهم ومعجزاتهم وموقف أقوامهم منهم ومراحل دعواتهم وتطورها وعواقب المؤمنين بهم والمكذبين لهم.

٢- قصص الأحداث الغابرة.

وذلك كقصة طالوت وجالوت، وأهل الكهف، وذي القرنين، وقارون وأصحاب الأخدود، وأصحاب الفيل ونحو ذلك، وكل هذه القصص تذكر للاعتبار والاتعاظ بها حسب السياق القرآني المقتضي لذلك.

٣- قصص السيرة النبوية.

ويراد بذلك ما يعرضه القرآن الكريم من الأحداث التي وقعت زمن نبينا محمد ﷺ كغزوة بدر وأحد والخندق وتبوك والهجرة والإسراء والمعراج ونحو ذلك من المواقف والمعجزات[1].

ثالثاً - الحكمة من سرد القصص في القرآن الكريم:

إن للقصص القرآني فوائد وأغراض كثيرة وقيمة نُجْمِلُ أهمها فيما يلي:

١- العبرة والعظة.

---

(١) انظر «مباحث في علوم القرآن» للشيخ مناع القطان ص٣٠٣.

لا ينبغي أن ننسى في لحظة من اللحظات أنَّ القرآن الكريم كتاب هداية ربانية يرشد الخَلْقَ إلى خالقهم سبحانه وتعالى، ولا شك أن للقصص القرآني دوراً بارزاً في موضوع الهداية، فعندما يقص علينا أخبارَ الرسالات السابقة والأمم الغابرة ويبين لنا مصيرَ المؤمنين والكافرين ، فليس هذا للتسلية ولا للتاريخ، وإنما للاعتبار والاتعاظ بهذه الأحداث، وقد قال الله تعالى لرسوله ﷺ بعد أن ذكر له لفيفاً من الأنبياء: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأنعام] وقال تعالى بعد أن قص علينا سيرة يوسف عليه السلام: ﴿ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [يوسف].

كما بين الله سبحانه وتعالى أن سننه في الكونِ جاريةٌ لا تتخلَّفُ ولا تتغير ولا تتبدل فهو مع مَنْ آمن به واتقاه ينصره ويؤيده ويكون عوناً له، وهو سبحانه قاهر الجبابرة ومذلُّ الطواغيتِ ومهلك الكفرة في أيِّ أمةٍ وأي جيلٍ من الأجيال، فيوم نعرف مصير الأمم السابقة ينبغي أن نتوقع مصيرنا نحن يوم نعملُ عملَهم. قال الله تعالى بعد أن ذكر موجزاً عن أحوال كثير من الأمم السابقة وهلاكها يوم أعرضت عن الله وهديه ورسالاته: ﴿ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمۡ خَيۡرٞ مِّنۡ أُوْلَٰٓئِكُمۡ أَمۡ لَكُم بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [القمر] وقال تعالى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفتح]. وقال تعالى: ﴿ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ﴿٤٤﴾ ﴾ [فاطر]. نسأل الله أن يجعلنا ممن يتدبرون القرآن ويَتَّعظون بآياته.

٢- إيضاح أسس الدعوة إلى الله وسيرة النبيين وأساليبهم مع أقوامهم وبيان عمق هذا الدين في فطرة الناس وأن جميع الأنبياء كانت دعواتهم التوحيد الخالص لله تعالى. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء].

٣- تثبيت فؤاد الرسول ﷺ وأمته بعده، وذلك بغرس الثقة بالله في قلوبهم، وأنه تعالى ينصر الحق وجنده ويخذل الباطل وأهله، قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود].

وكذلك يسلي الله رسوله ويواسيه على تحمله أذى قومه له بذكر أحوال إخوانه النبيين من قبل وبيان أنَّ هذه هي سنة الدعوات الربانية قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأحقاف].

٤- إظهار صدق محمد ﷺ في دعوته ورسالته، وذلك بما أخبر به عن أحوال تلك الأمم الماضية عبر القرون والأجيال البعيدة مع كونه أمياً لا يقرأ ولا يكتب ولم يدرس تاريخاً ولم يتتلمذ على معلم قط، وقد تقدمت الإشارة لذلك.

٥- مقارعة القرآن الكريم لأهل الكتاب بالحجة القاطعة، وذلك فيما كتموه من البينات والهدى وتحدّيه لهم بما كان في كتبهم قبل التحريف والتبديل قال تعالى: ﴿۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [آل عمران].

٦- والقصص القرآني أخيراً ضَرْبٌ من ضروب الأدب والبيان الرفيع

يصغي إليه السمع وترسخ عبره في النفوس قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف].

هذا والله ولي التوفيق وحده[1].

رابعاً - أسئلة ومناقشات حول البحث:

١- بين معنى القصص في اللغة وما هو القصص القرآني اصطلاحاً؟

٢- تكلم عن أنواع القصص القرآني.

٣- اذكر أهم الحكم لسرد القصص في القرآن الكريم.

---

(١) انظر «مباحث في علوم القرآن» للقطان ص٣٠٦.

المبحث الثامن عشر

الأمثال في القرآن الكريم

ويشتمل هذا المبحث على المسائل التالية:

١- تمهيد: مكانة الأمثال في الدين والأدب.

٢- تعريف الأمثال القرآنية.

٣- أنواع الأمثال القرآنية.

٤- فوائد الأمثال القرآنية.

٥- الفرق بين القصة والمثل في القرآن.

٦- أسئلة ومناقشات حول البحث.

أولاً - تمهيد: مكانة الأمثال في الدين والأدب:

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴿٥٨﴾﴾ [الروم].

وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت].

وروى البيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن القرآن نزل على خمسة أوجه: حلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال،

فاعملوا بالحلال واجتنبوا الحرام واتبعوا المحكم وآمنوا بالمتشابه واعتبروا بالأمثال».

وقد عدّ الإمام الشافعي رحمه الله الأمثال مما يجب على المجتهد معرفته من علوم القرآن الكريم فقال: ثم معرفة ما ضرب فيه من الأمثال الدوالّ على طاعته المثبتة لاجتناب معصيته[1].

هذا والمثل في القرآن كما هو في اللغة والأدب ضربٌ من البيان البديع الذي يشخص للعقل المعاني المجردة فيجعلها محسوسة أمام العين وهو مما يزيد المعنى إيضاحاً والحجة إفحاماً مع تميز الأسلوب القرآني العام عن غيره من الكلام ورفعته في هذا الشأن وغيره.

ثانياً - تعريف الأمثال:

الأمثالُ في اللغة جمع مثل والمثل كالشبه لفظاً ومعنىً.

والمثل معناه في الأدب العربي: قولٌ محكيٌّ سائر يُقْصَدُ به تشبيه حالٍ بحال، ويطلق أيضاً على الحال والقصة العجيبة.

ومما قيل في تعريف المثل: إنه إبراز المعنى في صورة حسيّة تُكسِبُه روعةً وجمالاً[2] ولعل هذا المعنى الأخير هو أفضل ما يعرّف به المثل القرآني.

ثالثاً - أنواع الأمثال القرآنية:

لقد قسّم العلماء الأمثال القرآنية إلى أقسام مختلفة وهي ترجع في

---

(١) «البرهان» للزركشي ج١ ص٤٨٦ و«الإتقان» للسيوطي ج٢ ص١٣١.

(٢) انظر «مباحث في علوم القرآن» للقطان ص٢٨٢.

الحقيقة إلى ثلاثة أنواع:

الأمثال الصريحة:

وهي كثيرة جداً في القرآن الكريم ومنها قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [العنكبوت] فهذا مثلٌ عظيم يمثل الله به حالَ أولئك الناس الذين اتخذوا من دون الله أولياء يبتغون عندهم العزة والنصرة والقوة والمال والحماية. يصور الله عز وجل حالهم تحقيراً وتبكيتاً لهم بحال ذلك الحيوان الضعيف - العنكبوت - التي اتخذت بيتاً وظنت أنها التجأت إلى حصنٍ حصين وبدأت تتحرك داخله ذهاباً وإياباً ولعلها تزهو بسرعةِ بنائهِ وإنَّ أوهنَ البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون. إن هؤلاء الناس لن يجدوا عند أوليائهم من البشر الضعاف المهازيل من الحمايةِ والنصرة إلا بمقدارِ حمايةِ بيتِ العنكبوت لذلك الحيوان الضعيف.

ومثل آخر يضربه الله تعالى لبيان حال مَنْ يتلقى نظام حياته من أربابٍ متعددين ويعرض عن التلقي عن الله وحده قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الزمر] فهنا رجلان أحدهما له سيدٌ واحد يأمره وعليه اتباعه ويهتم بمرضاته، وآخر له أسيادٌ وآمرون متعدِّدون كُلٌّ منهم له سلطة الولاية عليه وكلٌّ منهم يطلبُ منه ما يريد وهو مُجْبَرٌ على تنفيذِ أوامرِ الجميع ولا يستطيعُ الخروجَ عن أوامرهم المتناقضة تبعاً لمصالحهم المتباينة، والمسكينُ بينهم حار ماذا يفعل؟ ومَنْ منهم يرضي؟ ولمن يتقرب؟ وهكذا يقضي حياته معقداً ممزقاً تائهاً هائماً لا يعرف الاستقرار ولا الاطمئنان. هل يستوي هذا مع ذاك؟ لا لا يستويان، وهكذا لا يخفى الفارقُ البعيد بين

مَنْ يعبد الله ويبتغي رضاه وحده وبين مَنْ يعبدُ الطواغيت ويبتغي رضاهم وما أكثرهم؛ الحكام والوجهاء والاغنياء والنساء والأتباع والشرق والغرب و. . و. . و. . . هل يستويان؟! الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون.

فالحمد لله الذي هدانا لوحدانيته والسير في الطريق الموصل لمرضاته. وإنْ أردتَ مزيداً من الأمثال الحكيمة والدلائل القاطعة على إعجاز القرآن الكريم وإشراقه فما عليكَ يا أخي إلا أنْ تعكف على هذا القرآن وتتدبر آياته وتتفكر في سوره حتى تجدَ بُغيتكَ وتصل إلى أمانيك وتهتدي إلى شاطىء السلام الذي يريحُ فكركَ وعقلك ويمنحك السعادةَ والسكينةَ التي لا ولن توجد إلا في ظلالِ هذا الكتاب العظيم وصدق الله القائل: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [العنكبوت].

الأمثال الكامنة:

وهي التي لم يصرح فيها بلفظ المثل ولكنها جرت مجراه، وهي نوع من الإيجاز البياني المشرق في كتاب الله تعالى، ومنها على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الفرقان] وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الإسراء] وهذا النوع كثير أيضاً في كتاب الله تعالى حتى إنَّ بعض العلماء استخرج لكل مثلٍ عند العرب آيةً من القرآن تؤدي معناه والمتدبر لآياتِ الكتاب الكريم يظفر بحقيقة هذا الأمر.

الأمثال المرسلة:

وهي جملٌ أُرسلت من غير تصريح بلفظ التشبيه. ويصح استعمالها فيما يشبه ما وردت فيه، وقد اكتسبت صفة المثلية بعد نزول القرآن الكريم

وشيوعه بين المسلمين، ولم تكن أمثالاً معروفة قبل ذلك[1]، ومن أمثلة هذا النوع في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ ۝٥١﴾ [يوسف] وقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ۝٨١﴾ [هود] وقوله: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨﴾ [النجم] وقوله: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ۝٧٣﴾ [الحج] وقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۝٢٨٦﴾ [البقرة] وقوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۝٤٣﴾ [فاطر].

إلى غير ذلك من الأمثال الدالة على عظمة هذا القرآن ومنزله سبحانه وتعالى.

رابعاً - فوائد الأمثال القرآنية:

للأمثال في القرآن الكريم فوائد كثيرة وهامة، ولها دورٌ كبير في إيضاح الحق للخلق وإقامة الحجة عليهم، ومن تلك الفوائد ما يلي:

١- إظهار المعنى المعقول المجرد في صورة حيّة ملموسة متحركة. وذلك كالمثل الذي يضربه تعالى لحال الذي ينفقُ مالَهُ رِئاءَ الناس فيقول سبحانه وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝٢٦٤﴾ [البقرة].

الصفوان هو الحجارة[2]، والترابُ هو عملُ المرائي، والوابلُ هو المطر الشديدُ ينزل على الصخر والحجارة فيغسلها من التراب فتصبح صلداء

---

(١) انظر «الإتقان في علوم القرآن» للسيوطي ج٢ ص١٣٢ و«البرهان» للزركشي ج١ ص٤٨٧.

(٢) انظر «مختار الصحاح» ص٣٣٦.

جرداء لا شيء عليها.

٢- كما يضرب المثل للترغيب، كقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة].

٣- ويضرب المثل للتنفير إذا كان الممثل به مما تكرهه النفوس. كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات].

٤- ويضرب المثل للمدح، كقوله تعالى في الصحابة والتفافهم حول الرسول ﷺ ومؤازرتهم له: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح] وهكذا كان الصحابةُ قلةً، ثم أخذوا في النمو حتى استحكمَ أمرهم وامتلأت القلوبُ بمحبتهم والإعجاب بعظمتهم كما امتلأت نفوسُ الكفارِ حقداً وغيظاً عليهم.

٥- والأمثال أبلغ في الوعظ وأقوم وأقوى في الحجة والإقناع، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الزمر][١].

قال الإمام الزركشي في «البرهان»: وضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور كثيرة: التذكير والوعظ والحَثُّ والزَّجْرُ والاعتبار والتقرير وترتيب

---

(١) وانظر «مباحث في علوم القرآن» للقطان ص٢٢٨.

المراد للعقل وتصويره بصورة المحسوس بحيث يكون نسبته للعقل كنسبة المحسوس إلى الحس، وتأتي أمثالُ القرآن الكريم مشتملةً على بيان تفاوت الأجر، وعلى المدح والذم، وعلى الثواب والعقاب، وعلى تضخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمرٍ أو رجاء أمرٍ قال تعالى: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾ [إبراهيم][1].

خامساً – الفرق بين القصة والمثل في القرآن:

لقد سبق تعريف المثل بإنه إبرازُ المعنى المجرد في صورةٍ حِسِّية تُكسبه روعةً وجمالاً. أما القصة فهي: حكاية واقعة تاريخية حقيقية كما كانت في زمنها على وجهِ الاعتبار والاتعاظ بأحداثِ الزمان التي هي جزءٌ من سنةِ الله الجارية في الكون.

من هذا ندرك أن القصة واقعةٌ حقيقيةٌ والمثلُ تقريب المعنى إلى العقل بأسلوبٍ بليغ جميل. وبالتالي فالأمثالُ ليست وقائع تاريخية بخلاف القصة القرآنية.

هذا وقد غلط قومٌ من المحسوبين على الأدبِ العربي حيث اعتقدوا أن قصص القرآن مجرد أمثال خيالية يُرادُ فيها إقناعُ الناس بحقائق ومفاهيم الدين الجديد، ثم تَوصَّلُوا إلى إنكارِ الكثير من النبوات السابقة وما ورد عنها في القرآن الكريم طالبينَ الشواهد التاريخية لتصدقها أو تنفيها كما زعم طه حسين في كتابه «الشعر الجاهلي» وغيره. وكأنَّ القرآنَ الكريم ليس من مصادر الحقائق التاريخية في هذا الكون!!! تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

---

(١) «البرهان» ج١ ص٤٨٦.

سادساً - أسئلة ومناقشات حول البحث:

١- تكلم عن قيمة الأمثال في الدين والأدب مع التوضيح والأدلة.

٢- عرف الأمثال القرآنية لغةِ واصطلاحاً.

٣- تكلم عن الأمثال الصريحة في القرآن مع مثالٍ واضح لها.

٤- ما هي الأمثال الكامنة؟ وما الفرق بينها وبين الصريحة مع مثالٍ لها.

٥- اذكر أربعةَ فوائد للأمثال مع التمثيل والتوضيح.

٦- ما هو الفرق بين القصة والمثل في القرآن الكريم؟ وضح ذلك.

المبحث التاسع عشر

أقسام القرآن الكريم

ويشتمل هذا المبحث على المسائل التالية:

١- تعريف القسم وأركانه.

٢- أنواع القسم.

٣- المُقْسَمُ به في القرآن الكريم.

٤- المقسم عليه في القرآن الكريم.

٥- أسئلة ومناقشات حول البحث.

أولاً - تعريف القسم وأركانه:

الأقسام في اللغة جمع قَسَم - بفتح السين - وهو الحلفُ واليمين، وفي الاصطلاح: ربطُ النفس بالامتناعِ عن شيءٍ أو الإقدام عليه بمعنى معظم عند الحالف حقيقةً أو اعتقاداً[١].

وأركان القسم ثلاثة:

١- الفعل المتعدي بالباء أو الواو أو التاء.

---

(١) «مباحث في علوم القرآن» للقطان ص٢٩١.

٢- المقسم به. وسيأتي تفصيله.

٣- المقسم عليه. وسيأتي تفصيله.

ومثال القسم المتحقق الأركان قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ ﴿٣٨﴾﴾ [النحل] فالركنُ الأول: فأقسموا، والثاني: بالله، والثالث: لا يبعث الله مَنْ يموت.

ثانياً - أنواع القسم:

القسم إمّا ظاهر، وإمّا مضمر.

فالظاهر: ما صرح فيه بالقسم والمقسم به، قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۙ ﴿٩٢﴾﴾ [الحجر].

والمضمر: هو ما لم يصرح فيه بفعلِ القسم والمقسم به، ويدل عليه اللام المؤكدة التي تدخلُ على جوابِ القسم كقوله تعالى: ﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران] أي: والله لَتُبْلَوُنَّ.

ثالثاً - المقسم به في القرآن الكريم:

يقسم الله تعالى بنفسه وببعض مخلوقاته الدالة عليه سبحانه وتعالى، فقسمه تعالى بنفسه كقوله ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء] وأكثر ما يقسم الله به في قرآنه مخلوقاته المختلفة قال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾﴾ [الشمس] وغيرها من الآيات المتضمنة أقساماً وهي لا تخفى. وعندما يقسم الله ببعض مخلوقاته فإنما هو توجيه لنا لنتفكر في عظمةِ هذه المخلوقاتِ، ونستدلَّ بها على خالقها سبحانه

وتعالى. ولله تعالى أن يقسم بما شاء مِنْ خَلْقه، أما نحنُ العباد فلا يجوز لنا أن نقسم إلا بالله وأسمائه وصفاته، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: مَنْ حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك[1]. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال: إن الله يقسم بما شاء من خلقه، وليس لأحدٍ أن يقسم إلا بالله[2].

وقال الإمام ابن القيّم رحمه الله: وهو سبحانه يقسم بأمورٍ على أمور وإنما يقسم بنفسه الموصوفة بصفاته وآياته المستلزمة لذاته وصفاته، وإقسامه ببعض المخلوقات دليلٌ على أنه من عظيم آياته، فعلى المسلم أن يَحْذَرَ من القسم بغيرِ الله وأسمائهِ وصفاته لما يترتبُ على ذلك من مخالفة أمر الله وتعظيم غيره سبحانه وتعالى.

رابعاً - المقسم عليه في القرآن الكريم:

القسم في الكلام إنما يكونُ لتأكيدِه وبيانِ أهميته ولفتِ الأنظار إلى حقيقته وكنهه، ولا يكونُ القسم في الأحوال الظاهرة العادية ودون مقتضى إليه، وإلا كان عبثاً ولغواً في الكلام.

قال ابن القيّم رحمه الله: والمُقْسَمُ عليه يراد بالقسم توكيده وتحقيقه فلا بد أن يكون مما يحسن فيه ذلك كالأمورِ الغائبة والخفية إذا أقسم اللهُ على ثبوتها[3].

والمقسم عليه في القرآن الكريم أنواع كثيرة منها:

---

(١) رواه الترمذي وحسنه وصححه الحاكم.

(٢) «الإتقان» للإمام السيوطي ج٢ ص١٣٤.

(٣) «التبيان في أقسام القرآن» لابن القيم.

١- أقسم الله على أصول الإيمان وأركانه، فقد أقسم الله على أنها حق يجب على الخلق معرفتها والإيمان بها قال الله تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝٢ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤﴾ [الصافات].

٢- وأقسم على أنَّ القرآن الكريم حق. قال الله تعالى: ﴿۞ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۝٨٠﴾ [الواقعة].

٣- وأقسم الله على أن الرسول ﷺ حق. قال الله تعالى: ﴿يس ۝١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤﴾ [يس].

٤- وأقسم أن الجزاء والوعيد حق. قال الله تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝١ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۝٢ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۝٣ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ۝٦﴾ [الذاريات].

٥- وأقسم على أحوال الإنسان وصفته وعاقبته. قال الله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾ [الليل] وقال تعالى: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ۝١ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ۝٢ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ۝٥ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ [العاديات][1].

وفي القرآن الكريم أقسام كثيرة، وقد أقسم الله على أحوال كثيرة حتى إن الإمام ابن القيم رحمه الله أفرد أقسام القرآن بالتأليف وكتب في ذلك كتاباً نفيساً هو «التبيان في أقسام القرآن» فليرجع إليه من أراد التوسع في هذا المبحث.

---

(١) وانظر «التبيان في أقسام القرآن» لابن القيم.

خامساً - أسئلة ومناقشات حول المبحث:

١- عرف القسم لغة واصطلاحاً.

٢- ما هي أركان القسم؟ اذكرها مع التمثيل.

٣- ما هي أنواع القسم؟ مَثِّلْ لها مع بيان الفرق بينها.

٤- تكلم عن المُقْسَمِ به في القرآنِ الكريم وهل يجوز لنا أن نقسم بما أقسم الله به من مخلوقاته؟ وَضِّحْ ذلك مع الأدلة.

٥- اذكر خمسةً من أحوالِ المقسم عليه في القرآن الكريم مع التمثيل لها.

المبحث العشرون

الجدل في القرآن الكريم

ويشتمل هذا المبحث على المسائل التالية:

١- تعريف الجدل.

٢- أساليب الجدل والاستدلال على الحقيقة في القرآن الكريم.

٣- آداب الجدل القرآني.

٤- أسئلة ومناقشات حول البحث.

أولاً - تعريف الجدل:

الجَدَلُ في اللغة: أصل اشتقاقه من الجَدْل - بسكون الدال - وهو شدة الفَتْل. قال ابن سيده: جَدلَ الشيءَ يجدله جدلاً أحْكَمَ فتله. فكأنَّ كلاًّ من المتجادلَيْنِ يريدُ فتلَ الآخرِ عن رأيه[١].

والجدل اصطلاحاً: قال أبو البقاء في كتاب «الكليات»: الجدل هو عبارة عن دفع المرء خصمه عن فساد قوله بحجةٍ أو شبهة. وهو لا يكون إلا بمنازعة غيره[٢].

---

(١) «مناهج الجدل في القرآن» للدكتور زاهر عواض الألمعي ص١٩.

(٢) المرجع السابق ص٢٠.

فالجدل القرآني إذن هو: براهينه وأدلته التي اشتمل عليها وساقها لهدايةِ الخَلْقِ وإلزام المعاندين في جميع ما هدف إليه من المقاصد التي يُرِيدُ تحقيقها وترسيخها في أذهانِ الناس من جميع أصول الشريعة وفروعها[1].

ثانياً - أساليب الجدل والاستدلال على الحقيقة في القرآن الكريم:

للجدل في القرآن الكريم أوجه متعددة أذكر بعضاً من أهمها في هذه التأملات مشيراً إلى ما وراءها من أساليب القرآن الكريم التي يدركها مَنْ عاش معه بتدبرٍ وتفكر وقلب خالٍ من الشبهات والأوهام والأباطيل.

١- الجدل على طريقة الحوار.

ويقصد بهذا النوع من الجدل العظة والعبرة والإرشاد لما هو أقوم من العقائد والأخلاق وذلك كحوار إبراهيم عليه السلام عندما قال فيما يحكي الله عنه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة].

إنه حوارٌ يَجتثُّ جذورَ الأحاسيس التي قد تخطر بالنفس البشرية حول حقيقة البعث والنشور ولئلا يستغرب الإنسان هذه الخواطر والمشاعر في نفسه ولا يجرؤ على إظهارها، فها هو أبو الأنبياء إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام يحاور فيها رَبَّهُ ويجيبه اللهُ عَزَّ وجل إجابةً حسية يراها بعينه ويسجلها القرآن الكريم درساً يتعظ به المؤمنون إلى قيام الساعة.

٢- عرض شبه الكافرين والرد عليها.

---

(١) المرجع السابق ص٢٠.

ونوع آخر من الجدل القرآني إنه يستعرض شُبَهَ الكافرينَ والمعاندين واعتراضاتهم الباطلة التي يَتشبَّثُونَ بها ويُفَنِّدُهَا ويرد عليها ويوضِّح عوارها وفسادها ويضع أصحابها أمام الحقيقة، فإما أن يتبعوها، وإما أن يظلوا هائمين على الأوهام.

مثال ذلك الرد على الكافرين في إنكار البعث بعد الموت قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ [يس].

قال المفسرون: نزلت هذه الآيةُ في أبيّ بن خلف جاء بعظم رميم وفتّهُ في وجه النبيِّ ﷺ وقال ساخراً: أتزعمُ يا محمد أنَّ الله يُحيينا بعد أن نصبح رفاتاً مثل هذا؟ فقال ﷺ: نعم يُحْيِيكَ ويدخلك النار[1] وقد ورد أنها في غير أبيٍّ نزلتْ ولكن المهم والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فتلك دعوى الكافرين وهذا رَدُّ الله عَزَّ وجل عليها ولا يحتاج الأمر إلى مزيدٍ من الشرح والإيضاح ولكن مجرد التأمل في قوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴿٧٩﴾﴾ [يس] كافٍ وشافٍ لمن كان له قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيد.

٢- السبر والتقسيم.

معنى السبر والتقسيم أنْ تُحصَر أوصافُ الموضوع الذي هو محل البحث وجزئياته وجميع الاحتمالات الواردة فيه ثم يُعادُ النظرُ في هذه الأوصاف ويرد عليها واحدة واحدة حتى يَسْلَمَ الوصفُ الصحيح منها وتتجلى فيه

---

(١) انظر «فتح القدير» للشوكاني ج٤ ص٣٨٣.

الحقيقة المطلوبة بوضوح تام.

ولا شك أن هذا المسلك من أهم أنواع الاستدلال وإقامة الحجة ومثاله قوله تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأنعام].

قال الإمام السيوطي رحمه الله: إنَّ الكفار لما حرّموا ذكورَ الأنعام تارة وإناثها تارةً أخرى رَدَّ اللهُ عليهم بطريقة السبر والتقسيم فقال: إنِ الخَلْقُ إلا لله تعالى خلق من كل زوجٍ مما ذَكَرَ ذكراً وأنثى فَمِمَّ جاء تحريمُ ما ذكرتم؟ - أي ما عِلَّتُه - لا يخلو إما أنْ يكون من جهة الذكورة[1] أو الأنوثة أو اشتمال الرحم الشامل لهما أو لا يدرى له علة وهو التعبديّ بأن أُخذ ذلك عن الله والأخذ عن الله إما بوحي وإرسال رسول أو سماع كلامه ومشاهدة تلقي ذلك عنه وهو معنى قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ﴿١٤٤﴾﴾ [البقرة]. فهذه وجوهُ التحريم لا يخرج عن واحدٍ منها والأول يلزم عليه أن يكون جميع الذكور حراماً، والثاني يلزم عليه أن يكون جميع الإناث حراماً. والثالث يلزمُ عليه تحريمُ الصنفين فبطلَ ما فعلوهُ من تحريم بعضٍ في حالة، وبعضٍ في حالة أخرى، لأنَّ العلة تقتضي إطلاق التحريم. والأخذ عن الله بلا واسطةٍ باطلٌ ولم يدعوه بواسطة رسول كذلك لأنه لم يأت إليهم رسولٌ قبل النبيِّ ﷺ، وإذا بطل جميع ذلك ثبت المدعى وهو أنَّ ما قالوه افتراء على الله وضلال. نعم إنه

---

(١) انظر «الإتقان» للسيوطي ج٢ ص١٣٦.

من يمعن النظر في كتاب الله تعالى يفقه كثيراً من الأسرار التي لا يفطنُ له البعيدون عن هدي الله ووحيه، فهذه طرقُ الحقيقةِ الناصعة وتلك الحجج اليقينية الواضحة التي خاطب بها القرآنُ الكريم هذه الأمةَ من يوم نزوله، والناس في جهل وعدم معرفة لطرقِ البحث العلمي والتي ما تزال مشعة إلى يومنا هذا ولن تزال كذلك إلى قيام الساعة ويخضع أمامها كل مدعي البحثِ والأصولِ العلمية الرتيبة.

٤- قياس الخُلْف.

وهو إثبات المطلوب بإبطال نقيضه لأنَّ النقيضين لا يجتمعان ولا يخلو الواقع من أحدهما وذلك كقوله تعالى في إثبات وحدانيته: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء].

وفساد الأمر الذي يقوم عليه اثنان كُلٌّ منهم يدعي أنه الأعلى أمر لا يشك فيه أحد.

٥- الاستدلال بالقصص القرآني.

وذلك كقصة إبراهيم عليه السلام وكيف جادلَ قومه لإبطال عبادة الأصنام والكواكب كما حكى الله عنه ذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأنعام] وكذلك ما يقصه اللهُ علينا من مواقفِ موسى عليه السلام مع فرعون ويوسف من صاحبي السجن وغير ذلك من القصصِ المعبر الذي سلك فيه الأنبياءُ عليهم الصلاة والسلام أقومَ الطرق لإقامةِ الحجة على أقوامهم، وعلينا أن نستفيد من تلك المواقف والحجج ما ندعمُ به أسلوبنا في الدعوةِ إلى الله تعالى وإقامة الحجة على الناس.

٦- **مطالبة الخصم بتصحيح دعواه.**

وذلك كدعوى اليهود بأنهم لَنْ تَمَسَّهُم النارُ إلا بقدر الأيام التي عبدوا فيها العجل فردَّ اللهُ عليهم بقوله: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [البقرة] وإذا انتقضت الدعوى وتبين فسادها فقد هزم صاحبها وخذل وتوضحت الحقيقة بعكس ما كان يدعيه.

٧- **إلزام الخصم بما يعترف به هو مما هو شاهد محسوس.**

وذلك كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الحج] وهل أقوم من ذلك حجة في بيان أحقية تَفَرُّدِ الله وحده بالربوبية والإلهية وأنَّ جميعَ مَنْ يدعون من دونه أحقر من أن يخلقوا ذباباً، بل إنْ يسلبهم الذبابُ شيئاً لا يستنقذوه منه!! نعم لقد ضعف الطالبُ والمطلوبُ، وحجة الله بالغة والحمد لله رب العالمين(١).

ثالثاً - آداب الجدل القرآني:

الأصل في الفهم الإسلامي أن الجدل مذمومٌ، وقد حذرنا النبيُّ ﷺ منه فقال: «ما ضَلَّ قومٌ بعد هدىً كانوا عليه إلا أُوتوا الجدل»(٢).

وقال ﷺ: «مَنْ ترك المراء وهو مُحِقٌّ بُنِيَ له بيتٌ في وسط الجنة، ومن

---

(١) انظر للتوسع في هذا البحث كتاب «مناهج الجدل في القرآن» للدكتور زاهر عواض الألمعي.

(٢) رواه الترمذي.

ترك المراء وهو مبطلٌ بُني له بيت في رَبَضِ الجنة، ومن حسن خلقه بني له بيت في أعلاها»[1].

وهذا النهيُ عن الجدل لما قد يؤدي إليه من الشحناء والبغضاء والأحقاد بين المسلمين. هذا هو الأصل في فهم المسلمين وتربيتهم وسلوكهم ولكن لما كان لا بد من بيان الحق وإيضاحه وإقامة الحجة عليه أبيح الجدل لهذا الغرض قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴿٤٦﴾ ﴾ [العنكبوت].

هذا وقد ذكر العلماء آداباً لا بد من مراعاتها أثناء الجدل وقد استنبطوا هذه الآداب من جدلِ القرآن الكريم وأسلوبه الرفيع في التربية والوصول إلى الحقيقة وكذلك من هديِ الرسولِ ﷺ ومن واقعِ سلف الأمة الأخيار وسلوكهم الطيب الطاهر العَفّ الكريم.

ومن هذه الآداب الأمور التالية:

١- أن يتعاون الفريقان المتناظران على معرفة الحق بأن يُبَصِّرَ كُلُّ واحدٍ منهما صاحبه بالنقاط التي تَخْفَى عليه، وأن يتمنى كلٌّ منهما أن يظهر الله الحق على يد صاحبه، ورحم الله الإمام الشافعي القائل: ما ناظرتُ أحداً إلا وأحببتُ أنْ يظهر الله الحقَّ على يديه.

ولا شك أنَّ هذا الأدبَ رفيع وجليل، وهو مطلوبٌ يوم تكون المناظرة بين المسلمين في أمرٍ معين يريدون الوصولَ إلى الحقِّ فيه، أما إن كان الخصم كافراً والدعوى التي هي محل البحث قضية الإيمان والكفر فواضح أن المسلم هنا يتمنى ويحب أن يُظْهِرَهُ اللهُ على خصمه ويعينه على إقامة

---

(١) رواه الترمذي.

الحجة، وهذا أمرٌ لا يخفى على الحاذق البصير.

٢- البعد عن التعصب.

ينبغي أن يكون عند المتجادلَيْن استعدادٌ للبحث عن الحقيقة أياً كانت، وليفترض كل من الطرفين أن الحق عند صاحبه وقد عَلَّمنا القرآنُ الكريم هذا الأدب بقوله: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٢٤﴾ [سبأ] أما إذا اعتقد كُلٌّ من الطرفين أن الحق عنده ولا مجال للتراجع عنه فهذا من الغرورِ والمكابرةِ التي نُهينا عنها وهو من علاماتِ اتباع الهوى. نسأل الله العفو والعافية.

٣- القول المهذب.

لا بد من التقيد بالقول المهذب والبُعْدِ عن الطعن والتجريح واحتقار الرأي الآخر مهما كنتَ جازماً بخطئه، وقد أرشدنا الله إلى هذا بقوله سبحانه: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ۝٤٦﴾ [العنكبوت] هذا مع أهلِ الكتاب فكيف مع المؤمنين؟

٤- التزام الطرق الصحيحة.

من آدابِ الجدلِ الإسلامي التزام الطرق الصحيحة في البحثِ وإثباتِ الحقيقة وقد وضع العلماءُ قاعدةً لذلك يجب مراعاتها لئلا تتشتت الأذهانُ وينزلق الطرفان في متاهاتٍ تُبعدهم عن الغاية. وهذه القاعدةُ هي «إنْ كنتَ ناقلاً فالصحة أو مدعياً فالدليل» وقد أرشدنا الله لهذا في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٦٤﴾ [النمل].

٥- المنطق السليم في الحوار.

ومن آداب الجدل ألا يطعن أحدُ الفريقين في أدلة الآخر إلا ضمن

الأمور المبنية على المنطق السليم، أما التهجم والتجريحُ بغير علمٍ فهذا عنوانُ الجهل والحماقة.

٦- قبول النتائج التي تؤدي إليها الأدلة الصحيحة.

إن كانت المجادلةُ للوصولِ إلى الحق فلا بد من قبولهِ في النهاية وإلا كانت المجادلةُ عَبَثاً لا يليقُ بالعقلاء.

٧- إخلاص النيّة.

لا بد من إخلاص النيّة لله تعالى وقصد إظهار الحق وأن يكون الأحب للمتجادلين الخلوة والخفية لأن هذا أصفى للذهن وأبعد عن الرياء، ومن أدب المجادل أنْ يكونَ كناشدِ الضالَّةِ لا يهمه أَوُجِدَتْ على يدهِ أم على يَدِ غيره.

٨- اختيار الوقت المناسب.

ومن آداب الجدل أنْ لا يتقدم إليه أحدٌ وقت تغير مزاجه لغضبٍ أو جوع أو مرض لما قد يحدث من آثار سلبية عند ذلك[1]. وأخيراً لا بدٍ للمجادل أن يضع نصبَ عينيه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت] والله أعلم.

رابعاً - أسئلة ومناقشات حول البحث:

١- عَرِّف الجدل لغة واصطلاحاً. وما معنى الجدل القرآني.

٢- تكلم عن الجدل بالحوار مع التمثيل والتوضيح.

---

(١) انظر «مناهج الجدل» للألمعي ص٤٣١.

٣- كيف كان القرآن يعرض شبه الكافرين ويرد عليها؟ وضح ذلك.

٤- تكلم عن السبر والتقسيم. معناه. مثال واضح له.

٥- اذكر ثلاثة مسالك للوصول إلى الحقيقة مع مثالٍ من القرآن لكلٍّ منها.

٦- اذكر آدابَ الجدلِ القرآني مع التوضيح الموجز لكلٍّ منها.

المبحث الحادي والعشرون

فضائل القرآن الكريم

ويشتمل هذا المبحث على المسائل التالية:

١- عظمة القرآن الكريم وهيبته ومكانته.

٢- فضل قراءة القرآن الكريم.

٣- آدابُ تلاوة القرآن الكريم وسماعه.

٤- الجهر والإسرار بقراءة القرآن الكريم.

٥- حكم القراءة بالقراءات الشاذة.

٦- أسئلة ومناقشات حول البحث.

أولاً - عظمة القرآن الكريم وهيبته ومكانه:

إن فضائل القرآن الكريم تفوقُ الحصرَ والعَدَّ، كيف لا وهو كتابُ رَبِّ العالمين للبشرية جمعاء في دورتها الأخيرة من الحياة وقد بلغت أعلى مراحل النضج والوعي البشري، فأنزل الله لها هذا الكتابَ العظيم ليوجهها ويرسم لها طريق الحياة الفاضلة ويقودها إلى شاطىء السلام في الدنيا وإلى دار السلام في الآخرة.

ومهما حاول العلماءُ أنْ يظهروا من عظمةِ هذا الكتاب فلا يأتون إلا

بقليل من كثير، والله تعالى هو القائل: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ [لقمان] ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الكهف] وقد وصف رسولُ الله ﷺ القرآنَ الكريم أبلغَ وصفٍ فقال: «كتاب الله تعالى فيه نبأُ ما قبلكم وخبرُ ما بعدَكم وحكم ما بينكم، هو الفصلُ ليس بالهزل، مَنْ تركه من جبارٍ قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضَلَّهُ الله، وهو حبلُ الله المتين، وهو الذكرُ الحكيم، وهو الصراطُ المستقيم، وهو الذي لا تَزيغُ به الأهواء ولا تلتبسُ به الألسنُ ولا تشبع منه العلماء ولا يَخْلق على كثرة الردِّ ولا تنقضي عجائبه»(١) وفي رواية: هو الذي لم تنته الجِنُّ، إذْ سمعته أنْ قالوا: إنا سمعنا قرآنا عجباً. مَنْ قال به صَدَقَ، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن تمسك به هُديَ إلى صراطٍ مستقيم. وهذا وصف القرآن في القرآن وفي كلام رسول الله ﷺ. وإنْ حلا لذي ريبٍ أنْ يقول: وماذا عساه محمدٌ أنْ يقول عن كتاب يدعو إليه غير هذا؟ فنقول له: اسمع يا هذا شهادات أعداء القرآن فيه.

يقول المستشرق الفرنسي الدكتور موريس في وصف القرآن الكريم: إنه ندوةٌ علمية للعلماء، ومعجم لغة للغويِّين، ومعلمُ نَحْوٍ لمن يريدُ تقويمَ لسانه، ودائرة معارف للشرائع والقوانين، وكل كتاب سماوي جاء قبله لا يساوي أدنى سورةٍ من سوره في حُسْنِ المعاني وانسجام الألفاظ، ومن أجل ذلك نرى رجالَ الطبقةِ الراقية في الأمة الإسلامية يزدادون تمسكاً بهذا الكتاب واقتباساً منه كلما ازدادوا رفعة في القدر ونباهة في الفكر(٢)

---

(١) أخرجه الترمذي.

(٢) «البرهان في تجويد القرآن» للأستاذ محمد الصادق قمحاوي ص٧٣.

تلك شهادة علمية من أكاديمي علمي.

واسمع معي إلى شهادةٍ أخرى لقائد عسكري إبان الحملة الإنجليزية على مصر في عام ١٨٨٢م عندما دخل الإنجليزُ مصرَ وحاولوا السيطرةَ على تلك الأرض الإسلامية أرض الأزهر الشريف ولكنهم ما إن اختلطوا بأهلها وعرفوا أخلاقهم ومُثُلهم ودستور حياتهم ما إنْ عرفوا ذلك حتى وقف المستر جلادستون رئيس الوزراء البريطانية يومها وحمل مصحفاً بيده وأشار لمن وراءه في مجلس العموم الإنجليزي قائلاً: إنه ما دام هذا الكتاب بأيدي المصريين فلن يَقرَّ لنا قرارٌ في تلك البلاد[1].

ولكن: كما يأسف الإنسان عندما ينظر إلى عظمة هذا القرآن الكريم ومدى تأثيره حتى في أعدائه، ثم ينظر إلى المسلمين اليوم فيجدهم قد نبذوه وراء ظهورهم واستبدلوه بنظمٍ باليةٍ مستوردة أنتجها فكر البشر المجبول بالأهواء المحكوم بالتجربة القاصرة، وقد نسينا المكانةَ التي ارتفع إليها أجدادنا عندما حَكّمُوا هذا القرآن في حياتهم فوصلوا إلى قمة الحضارة الإنسانية الإسلامية وتتلمذَ عليهم في حينها مَنْ نَستجديهم اليوم لنشحد منهم نفاياتِ أفكارهم ونظمهم السخيفة الماجنة.

ومع هذا فقد جَرَّبَ الناسُ في هذا العصر مختلف النظم والمبادىء والمذاهب البشرية غربية وشرقية ليبرالية وشيوعية اشتراكية وقومية فماذا جنوا؟ غيرَ الفرقةِ والضعف والتخلف حتى لقد أصبحنا عالةً على أعدائنا في لقمةِ العيش فضلاً عن السلاح والذخيرة. وكأنَّ الشاعر يصف حالنا عندما يقول:

---

(١) «شبهات حول الإسلام» للأستاذ محمد قطب حفظه الله ص١٣ ط دار الشروق.

كالعِيسِ في البيداء يَقْتلُها الظما   والماءُ فوقَ ظُهورها محمولُ

والذي يتحتم على شباب الأمة أن يحملوا مشعل هذا القرآن الكريم وينادوا الأمةَ بصوت عالٍ وحال مشفق أن عودة إلى الصواب إلى نهج الكتاب عودة إلى نظام الحياة الإسلامية المنزل ممن يعلم مَنْ خلق وهو اللطيف الخبير.

عودوا لدينكم يَعُد لكمُ الهَنَا   إنَّ الهنا بدينكم متوفِّرُ

ثانياً - فضل قراءة القرآن الكريم:

إن من فضل الله على هذه الأمة أنْ جعلَ تلاوةَ كتابه من أهم العبادات التي يتقرب بها المسلمُ إليه سبحانه وتعالى وذلك ليكون المسلمُ دائمَ الصلة وقويَّ الرابطة بهذا الكتاب العظيم فيزداد به تعلقاً وتمسكاً وله فهماً واستيعاباً.

وقد حفلت كتبُ السنة النبوية الشريفة بأقوال النبي ﷺ التي يحثنا فيها على قراءة القرآن الكريم وتدبره ويكشف لنا عن الثواب العظيم المترتب على ذلك؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما اجتمع قومٌ في بيتٍ من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه فيما بينهم إلا نزلت عليهم الرحمةُ وغشيتهم السكينة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده»[١].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الماهر بالقرآن مع السَّفَرةِ الكِرام البررة والذي يقرأ القرآن ويتتعتعُ فيه وهو عليه

---

(١) رواه مسلم.

شاق له أجران»[١].

وعن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب»[٢].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين»[٣].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: يقول الله تعالى: مَنْ شغله القرآنُ وذكري عن مسألته أعطيتهُ أفضلَ ما أُعطي السائلين وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضله على خلقه[٤].

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ قال: «يقال لصاحب القرآن اقرأ ورَتِّلْ كما كنتَ ترتلُ في الدنيا فإنَّ منزلتكَ عند آخرِ آية تقرؤها[٥].

ثالثاً - آداب تلاوة القرآن الكريم وسماعه:

إن على قارىء القرآن الكريم أن يستحضرَ عظمةَ الله تعالى ويستشعر أنه يكلم الله ويناجيه وأنَّ هذا الكلام مُوجَّهٌ إليه من ربه تبارك وتعالى فلا بد له من حالٍ خاصة أثناءَ التلاوة تليقُ بعظمة القرآن الكريم، وقد وضع العلماء رحمهم الله آداباً كثيرة لا بد من مراعاتها أثناء الحياة مع المصحف الشريف

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه الترمذي وقال حسن صحيح.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه الترمذي وقال حديث حسن.

(٥) رواه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح.

وسنمر في هذه التأملات على أهمها مما لا ينبغي التفريط فيه ومن ذلك:

١- **الوضوء.**

يستحب الوضوء لمن يقرأ القرآن الكريم، لأن رسولَ الله ﷺ كان يكره أن يذكر الله إلا على وضوء. هذا إنْ كان يقرأ غيباً مما يحفظه عن ظهر قلب أو نظراً في المصحف دون أن يمسه. أما لمسُ المصحف فلا يجوز بدون وضوء لقوله تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [الواقعة] ومذهبُ جمهور الفقهاء أنَّ من مدلولاتِ هذه الآية حرمة مَسِّ المصحف للمحدث حدثاً أصغر أو أكبر.

٢- **الخشوع والتدبر.**

ينبغي لقارىء القرآن أن يتدبر معانيه ويتفهم أحكامه قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء] وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص] ومن مظاهر التدبر ترك التشاغل عن القرآنِ الكريم بأيِّ شيءٍ من مسائل الدنيا واللهو والعبث.

قال الإمام الزركشي رحمه الله: تُكره قراءةُ القرآن الكريم بلا تدبر وعليه حُمِلَ حديث عبدالله بن عمرو: لا يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث. وقول ابن مسعود لمن أخبره أنه يقومُ بالقرآنِ في ليلة: أهذّاً كهذّ الشعر - والهَذُّ: السرعةُ في القراءة - وكذلك قوله ﷺ في صفة الخوارج: يقرؤون القرآن لا يجاوزُ تَراقيهم ولا حناجرهم[1]. ولو تذكَّرَ الإنسانُ وهو يقرأ القرآن أنه لو كلمه حبيبٌ وعزيز عليه فلم ينتبه له ولم يفهم مراده لعدَّ ذلك

---

(١) «البرهان» ج١ ص٤٥٥.

إهانةً له وإعراضاً عنه، فكيف بنا عندما نخاطب الله بكلامه ونحن لا نفقه ما نقول!! وعقولنا تسرح فيما تهوى النفس من الأغيار؟!!!

٣- البكاء عند تلاوة القرآن الكريم.

من ثمار الخشوع والتدبر عند تلاوةِ القرآن الكريم البكاء من خشية الله وهذا دأبُ رسولِ الله ﷺ وأصحابه الكرام. فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: اقرأ عليَّ القرآن، فقلتُ يا رسول الله: أقرأ عليكَ وعليك أُنزلَ؟ قال: إني أُحِبُّ أن أسمعه من غيري فقرأتُ عليه سورة النساء حتى إذا جئت لهذه الآية: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ [النساء] قال: حسبك الآن، فالتفتُ إليه فإذا عيناه تذرفان[١]. وعن أبي صالح قال: قدم ناس من أهل اليمن على أبي بكرٍ الصديق رضي الله عنه فجعلوا يقرؤون القرآن ويبكون، فقال أبو بكرٍ رضي الله عنه: هكذا كنا وفي رواية: هكذا كنا حتى قست القلوب[٢].

٤- التأدب بآداب القرآن الكريم.

إنَّ من أهم مقاصد التلاوة الفقه عن الله ومعرفة الطريق للوصول إلى رضاه سبحانه وتعالى ولا يكون ذلك إلا بالتخلق بأخلاقِ القرآن الكريم والتأدب بآدابه وإلا كان حجةً علينا يوم القيامة. عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: أنزل القرآن ليعملوا به فاتخذوا دراسته عملاً. إن أحدكم ليقرأ القرآن من فاتحته إلى خاتمته لا يسقط فيه حرفاً واحداً وقد أسقط العملَ به[٣].

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود.

(٢) انظر «فن الترتيل في أحكام التجويد» للأستاذ عبدالله توفيق الصباغ ص٢١ ط قطر.

(٣) «فن الترتيل» للصباغ ص١٦.

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: حاملُ القرآن حاملُ رايةِ الإسلام ينبغي له ألا يلهو مع مَنْ يلهو ولا يَسْهُو مع مَنْ يسهو، ولا يَلْغُو مع مَنْ يلغو تعظيماً لحق القرآن الكريم. وقد وصف الصحابة رضي الله عنهم بأنهم قرآن يمشي على الأرض.

فما لم نَتَّخِذْ سلَفَنا الصالحَ رضي الله عنهم قدوةً لنا ونفتح قلوبنا للقرآن الكريم وكلنا عزيمة وتصميم على صبغ حياتنا بتعاليمه وتوجيهاته وآدابه ما لم نفعلْ ذلك فلن نكون من أهلِ القرآن الذين يسعدون به في الدنيا والآخرة.

٥- حسن الاستماع والإصغاء.

ومن آدابِ سماع القرآن الكريم أنْ يحسن المستمعُ الإصغاءَ إليه ليتحقق له التدبرُ والتفكُّرُ في آياته فالمؤمنون حقاً هم الذين يجلون آيات الله ويقدرونها قدرها قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الأنفال].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ [الأعراف] ومما ينبغي الحذَرُ منه فتحُ المذياع أو التلفاز أو شريط المسجل على تلاوة القرآن الكريم في مجالس قد انشغلَ أهلُها بأحاديثهم ومصالحهم الخاصة، فهذا فيه تعريضُ القرآن الكريم لنوعٍ من الإهانة حيث يتلى ويجهر به بين أناسٍ هم عنه مُعرضِون وبغيره منشغلون. وأبشع من ذلك فتح الإذاعات والمسجلات على القرآن الكريم في الأسواق العامة والشوارع وكثيراً ما تكون المنكراتُ قائمةً والأصوات الصاخبة تعج بالأسواق وبين هذا الضجيج تسمع آيات الله تتلى وليس في القوم مُصْغٍ ولا شهيد إلا من رَحِمَ رَبُّكَ فأيُّ تفريطٍ أعظم من هذا بحق سماع القرآن الكريم ولا شك

أن الحرج هنا على مَنْ فتح المذياع وعرض القرآن لهذا الإعراض عنه فينبغي التنبه لهذا والحذر من الوقوع فيه ومهما كانت النية سليمةً فإن التفريط في مثل هذا الحال حاصل والله أعلم.

٦- عدم قطع القراءة لمكالمة الناس.

لا شك أنَّ قارىءَ القرآنِ يعيشُ مع أفضل كلام، وقد تقدم أنَّ من آداب التلاوة التدبر والتفهم والبكاء والخشوع، ومثل هذا الحال يتنافى مع قطع التلاوة لمحادثة الناس والانشغال معهم، وقد كره العلماء ذلك لما فيه من إيثار كلام الناس على كلام الله تعالى، وكان ابن عمر رضي الله عنه إذا قرأ القرآن لم يتكلم حتى يفرغ منه[١].

والإنسانُ منا يكرهُ إذا كان يكلمُ إنساناً آخر فأتى شخص ثالث وبدأ يكلمه، ويعد هذا من سوء الأدب، فكيف بأدبنا مع القرآن الكريم الذي نناجي فيه رَبَّ العالمين تبارك وتعالى؟!

٧- استقبال القبلة وحسن الهيئة.

ومن آداب التلاوة استقبال القبلة لأنَّ تلاوةَ القرآن الكريم عبادة، ويُسَنُّ في العباداتِ التوجُّهُ للقبلة لشرفها ومكانتها في قلب المسلم وعقيدته، كما يسن أن يكون القارىء على أحسنِ هيئةٍ من النظافة والرائحة الطيبة وحسن الجلسة التي تليقُ بمكانةِ القرآن الكريم ووقاره؛ فعن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أشرفُ المجالس ما استقبل فيه القبلة»[٢].

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه الطبراني وانظر كتاب «تلاوة القرآن المجيد» للشيخ عبدالله سراج الدين ص٧٢.

رابعاً - الجهر والإسرار بقراءة القرآن الكريم:

لقد ورد عن الصحابة رضي الله عنهم أنهم كانوا يجهرون ويحسنون أصواتهم في القرآن الكريم ويسمعهم النبيُّ ﷺ فيثني عليهم في ذلك. قال الإمام النووي رحمه الله: أجمع العلماءُ رضي الله عنهم من السلف والخلف من الصحابة والتابعين ومَنْ بعدهم من علماء الأمصار أئمة المسلمين على استحبابِ تحسينِ الصوت بالقرآن، وأقوالهم وأفعالهم مشهورة نهاية الشهرة[1].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: لقد أوتيت مزماراً من مزامير داود[2] وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال رسول ﷺ: «حَسِّنُوا القرآنَ بأصواتكم فإنَّ الصوت الحسن يزيد القرآن حسناً»[3].

نفهم من هذه الأحاديث وغيرها استحبابَ الجهرِ بالقرآن الكريم وتحسين الصوت به، ولكن وردت آثار أخرى تنهى عن الجهر في بعض الأحوال كما إذا كان الناسُ مجتمعينَ للصلاة أو غيرها وبدأ كُلٌّ منهم يقرأ ويجهر، فهنا قد يغلط بعضهم بعضاً ويقطع عليه تفكيره وتدبره؛ فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: اعتكف رسولُ الله ﷺ في المسجد فسمعهم يجهرون بالقراءة فكشفَ السِّتْرَ وقال: ألا كلكم مناجٍ ربه فلا يؤذينَّ بعضكم بعضاً ولا يرفع بعضكم على بعض في القراءة أو قال في الصلاة[4].

---

(١) انظر «التبيان في آداب حملة القرآن» للإمام النووي ص٦١.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه الدارمي.

(٤) رواه أبو داود والترمذي وغيرهما وانظر جامع الأصول ج٢ ص٤٦٠.

قال الإمام النووي رحمه الله: قال الإمام أبو حامد الغزالي وغيره من العلماء: وطريقُ الجمع بين الأحاديث والآثار المختلفة في هذا أنَّ الإسرارَ أبعدُ من الرياء فهو أفضلُ بحق مَنْ يخاف ذلك، فإن لم يخف الرياء فالجهرُ ورفع الصوت أفضل[1]، هذا وقد حَسَّنَ بعضُ العلماء الإسرار إن ملّ القارىء من الجهر والجهر إنْ مَلَّ من الإسرارِ، والأمر مرتبط بمدى التدبر والفهم، والله أعلم[2].

خامساً - حكم القراءة بالقراءات الشاذة:

القراءاتُ المتواترة الثابتة عن النبي ﷺ والتي يقرأ بها في العالم الإسلامي عشرُ قراءاتٍ معروفة مشهورة عند أهل العلم وما عداها من القراءات المنقولة يسمى القراءات الشاذة. كما تَقَدَّمَ ذلك مفصلاً في بحث الأحرف السبعة، والقراءات الشاذة هي ما فقدت شرطاً فأكثر من الشروط المعتبرة في القراءات المتواترة الثابتة عن النبي ﷺ وهي ثلاث شروط:

١- تواتر سندها إلى رسول الله ﷺ.

٢- موافقتها لخط المصحف العثماني ولو بوجهٍ من وجوه الأداء.

٣- موافقتها لوجهٍ معتبَرٍ من وجوه اللغة العربية الفصحى.

هذا والقراءات الشاذة يحرم القراءة بها عند جمهور أهل العلم. قال الإمام الزركشي: ولا تجوزُ قراءته بالشواذ، وقد نقل ابن عبدالبر الإجماعَ على ذلك[3].

---

(١) «التبيان» للنووي ص٥٨.

(٢) انظر «البرهان» للزركشي ج١ ص٤٦٤.

(٣) «البرهان» ج١ ص٤٦٧.

وقال الإمام النووي في «شرح المهذب»: لا تجوز القراءة في الصلاة ولا غيرها بالقراءات الشاذة لأنها ليست قرآناً لأنَّ القرآنَ لا يثبتُ إلا بالتواتر، والقراءاتُ الشاذة ليست متواترة، ومَنْ قال غير هذا فغالطٌ أو جاهل، فلو خالف وقرأ بالشاذ أنكر عليه قراءته في الصلاة وغيرها، وقد اتفق فقهاء بغداد على استتابةِ مَنْ قرأ بالشواذ، ونقل ابن عبدالبر إجماع المسلمين على أنه لا يجوز القراءة بالشواذ ولا يصلى خلف مَنْ يقرأ بها[1]. هذا وبالله التوفيق.

سادساً - أسئلة ومناقشات حول البحث:

١- تكلم عن عظمة القرآن الكريم ومكانته مستشهداً بالأدلة الشرعية وشهادات الأعداء فيه.

٢- ماذا جنت أمتنا من استيراد النظم البشرية؟ وما هو طريق خلاصها؟ وضح ذلك.

٣- تكلم عن فضل قراءة القرآن الكريم مع الأدلة.

٤- اذكر خمسة من آداب التلاوة مع الشرح والإيضاح الموجز، وما حكم قراءة القرآن ومَسِّ المصحف دون وضوء.

٥- تكلم عن البكاء عند التلاوة والتدبر والخشوع مع الأدلة.

٦- ما حكم قطع التلاوة لمكالمة الناس؟ وضح ذلك.

---

(١) وانظر معنى هذا النقل في «التبيان في آداب حملة القرآن» للإمام النووي ص٥٣.

٧- تكلم عن الجهر والإسرار في القراءة وأيهما أفضل، وَضِّحْ ذلك مع الأدلة.

٩- ما هي القراءات الشاذة؟ وما حكم القراءة بها؟ وضح ذلك.

المبحث الثاني والعشرون
الفواتح والخواتم لسور القرآن الكريم

١- أهمية هذا البحث.

٢- أنواع الفواتح.

٣- أنواع الخواتم.

أولاً - أهمية معرفة الفواتح والخواتم لسور القرآن الكريم:

* إنَّ القرآن الكريم كلام الله رب العالمين، وهو أبلغُ كلام سمعه البشرُ عبر حياتهم وعلى مَرِّ العصور وتَتابعِ الأيام، وقد اقتضت الحكمةُ الربَّانية أنْ يكون هذا الكلامُ باللغة العربية، وأنْ يُخاطبَ به - أول من يخاطب - العرب ليحملوا رسالته ويقدموها للعالمين ويكونوا بذلك شهداء على الناس جميعاً، وما كان الله ليخاطبَ قوماً بغير ما أَلِفُوا واستراحت لهٰ نفوسُهم وفِطَرُهم السليمة.

* ومن هنا فقد كان القرآنُ الكريم يجري في أسلوبه وطريقة خطابه على أساليب العرب، غير أنه أعلى شأناً وأرفع أسلوباً، وله تَمَيُّزه واستقلاله وتَفرُّده الذي أدهشَ البلغاءَ وحَيَّرَ أربابَ البيان وجعلَ الناس مُقِرِّين له بالتفرد والعُلُوِّ والإعجاز.

* وإن مما يهتم به العرب في بيانهم حسن الابتداء في الكلام لأنه أول ما يقرع السمعَ، وهذا أدعى لقبولِ السامع وإقباله وحُسْنِ استيعابه

للمعنى المراد.

* ومن هذا المبدأ تجد في أساليبِ العرب ما يسمى براعة الاستهلال وهي تعني أن يشتمل أول الكلام على ما يشيرُ إلى أساسِ المعنى المقصود بالحديث، وفي ذلك من الجمالِ والتشويق وبعثِ الاستعداد للفهم ما فيه.

* وكذلك اعتاد أهلُ الأدب والبيان أنْ يختموا كلامهم بخلاصات وإيجازات للمعنى الذي يتحدثون عنه تجعلُ المستمعَ لا يتشوفُ لما بعدها ولا يتطلع إلى جديدٍ آخر في الموضوع مع حُسْنِ الربط بين البداية والنهاية. وقد كان القرآن الكريم في فواتحه وخواتمه أبلغ مما وصل إليه البشر بل أبعد مما يطمحون إليه أو تُطيقه عقولُهم ومواهبهم المحدودة.

* ثم إنَّ البحث عن أسرار الفواتح والخواتم يأخذُ بيد القارىء لكلامِ الله إلى مزيدٍ من التأمل والتفكر والتدبر للآيات الكريمة، فيزداد فهمه لها وإدراكه لمراميها وتأثره بها، وتلك من أهم أهداف تلاوة الكتاب الكريم.

ثانياً - أنواع الفواتح:

لقد بحث العلماء في فواتح سور القرآن الكريم واستقصوا في بحثهم جميعَ السور الكريمة فوجدوا أنَّ لتلك الفواتح أنواعاً كثيرة وبحسب ما يناسب مواضيع السور ومضامينها، وقد اهتم العلماءُ بهذا النوع من علومِ القرآن الكريم حتى أفرده العلامةُ ابن أبي الأصبع بالتأليف، وكتابه «الخواطر السوانح في أسرار الفواتح». ولعل أهمها الأنواع التالية:

١- الافتتاح بالثناء على الله تعالى وتنزيهه والتسبيح له وتحميده بما يستحقُّ سبحانه.

وقد جاء الافتتاحُ بالحمد والثناء في سبع سور كريمة هي:

الفاتحة - والأنعام - والكهف - وسبأ - وفاطر - والفرقان - والملك.

كما جاء الافتتاح في التسبيح لله تعالى في سبع سور أيضاً وهي: الإسراء - الحديد - الحشر - الصف - الجمعة - التغابن - الأعلى.

٢- الافتتاحُ بالأحرف المُقَطَّعة والتي تُشيرُ إلى أنَّ القرآن الكريم مركَّبٌ من هذه الأحرفِ وأمثالها وهي مبنى كلام العرب وبيانهم، ومع ذلك فقد عجزوا عن الإتيان بمثل سورةٍ من سور هذا القرآن مما يؤكد إعجازه وأنه لا ينبغي أن يكون كلام بشر. ومن هنا فإنك تجد الآيات التي تردُ بعدَ الأحرفِ المقطَّعة تكون دائماً متحدثةً عن القرآن الكريم وصفاته والتذكير بأنه تنزيلٌ من الله رب العالمين. وهذا المعنى هو أصحُّ ما قاله المفسرون عن الأحرف المُقَطَّعة التي افتتحت بها «٢٩» تسعة وعشرون سورة من القرآن الكريم.

ومما يجدرُ ذِكْرُهُ أنَّ بعض العلماء جمع هذه الأحرف في جملة مفيدة فإذا بها تصفُ القرآنَ الكريم أبلغَ وصفٍ، وتلك الجملة هي: «نَصٌّ حكيم له سِرٌّ قاطع».

ومَنْ يتدبر آيات الله يجد فيها عجباً لا ينقطع وراحةً وسكينة لا تنفد.

٣- الافتتاح بالنداء، وفيه ما فيه من لفتِ الانتباه وتحفيزِ الحواس للاستقبالِ، وافتتحت به عشرُ سُورٍ من القرآن الكريم هي: الأحزاب - الطلاق - التحريم - المزمل - المدثر.

وكان النداء في هذه السور للنبيِّ ﷺ. وجاء النداء للأمة في خمس سور أخرى هي: النساء، المائدة، الحج، الحجرات، الممتحنة.

٤- الافتتاح بالجمل الخبرية، وغالباً ما تكون السور بعدها يغلب عليها

الأخبار والأحداث وذلك كسورة الأنفال - والتوبة - والمؤمنون - وغيرها..

٥- الافتتاح بالقَسَم ويغلبُ ذلك في السور المكية، وهو جرى على عادة العرب في تأكيد الكلام والاهتمام به. وقد جاء ذلك في خمسة عشر سورة هي: الصافات - البروج - الطارق - النجم - الفجر - الشمس - الليل - الضحى - العصر - الذاريات - المرسلات - الطور - التين - النازعات - العاديات.

٧- الافتتاح بأدوات الشرط، وفيها حَثٌّ على التدبُّرِ وإدراك الربط بين الشرط والجواب. وقد جاء ذلك في سبع سور من القرآن الكريم هي: الواقعة - المنافقون - التكوير - الانفطار - الانشقاق - الزلزلة - النصر.

٨- الافتتاح بالاستفهام ولا يَخْفى ما فيه من الحَثِّ على الاهتمام بما بعده وجاء ذلك في ست سور أيضاً وهي: النبأ - الإنسان - الغاشية - الشرح - الفيل - الماعون.

٩- الافتتاح بالدعاء وهو نوع من الإثارة والتنفير عن أحوال وأوصاف وأناس يُدْعى عليهم، وكيف إذا جاء الدعاء من الله تعالى؟ وافتتح بهذا النوع ثلاث سور هي: المطففين - الهمزة - المسد.

١٠- الافتتاح بأسلوب التعليل وفيه تذكير بالجميل لمن يغفل عنه أو يتغافل وقد جاء ذلك في سورة قريش.

ثالثاً - أنواع الخواتم لسور القرآن الكريم:

إن خواتم سور القرآن الكريم ليست أقلَّ شأناً من فواتحه في بيانها وجمالها وهو الكتابُ العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من

خلفه، وقد أُحكمتْ آياتهُ كلها افتتاحاً وختاماً، ولو كان من غير عند الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً.

ولقد جاء ختام السور الكريمة على أنواع وأحوال أهمها:

١- الختم بالدعاء، كما جاء في آخر سورة البقرة.

٢- الختم بالوصايا، كما جاء في آخر سورة آل عمران.

٣- الختم ببيان الفرائض وحقوق الأحياء في مال الأموات، كما جاء في آخر سورة النساء.

٤- الختم بتعظيم الله والثناء عليه كما في آخر سورة المائدة.

٥- الختم بالوعد والوعيد والتخويف من الله تعالى كما في آخر سورة الأنعام.

٦- الختم بالحَثِّ على العبادة لله تعالى كما في آخر سورة الأعراف.

٧- الختم بالحثِّ على الجهاد في سبيل الله كما في آخر سورة الأنفال.

٨- الختمُ بمدح الرسول ﷺ والثناء عليه وبيان حرصه ورحمته بالمؤمنين كما في آخر سورة التوبة.

٩- الختم بالوصية بالتقوى في آخر آية نزلت من القرآن الكريم وهي قوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾ [البقرة].

١٠- الختمُ بالتذكير بفضل الله ونصره للمؤمنين وحَثّهم على شكر الله وحمده والتسبيح بحمده. وذلك في آخر سورة نزلت من القرآن الكريم

كاملة وهي سورة النصر قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ [النصر].

وهكذا جميعُ سورِ القرآن الكريم لو دَقَّقَ القارىءُ النظرَ فيها وتأمل وتدبر معانيها لوجد فيها غاية الجمال والجلال والتناسب مع حال السورة وما جاء فيها من بيان، واللهُ يعطي الفضلَ والفهمَ مَنْ يشاء من عباده، فاللهم لا تَحْرِمنا من فضلكَ وإحسانك يا ربَّ العالمين.

المبحث الثالث والعشرون

المناسبات بين السور والآيات القرآنية

١- معنى المناسبة.

٢- أهمية معرفة المناسبات.

٣- أسباب المناسبة بين السور والآيات.

٤- أنواع المناسبة بين السور والآيات.

أولاً - معنى المناسبة:

المناسبة في اللغة معناها المشاكلةُ والمقاربةُ كما جاء في «القاموس المحيط» وغيره في الاصطلاح: جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض. ذكر ذلك الإمام السيوطي رحمه الله في كتابه «الإتقان في علوم القرآن» ج٢ ص٩٧٧.

ثانياً - أهمية معرفة المناسبات:

قال الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله في تفسير سورة البقرة: ومن تَأَمَّلَ لطائف نظم هذه السورة وفي بدائع ترتيبها علم أَنَّ أَثرَ القرآن كما أنه معجزٌ بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه فهو معجز أيضاً بسبب ترتيبه ونظم آياته، ولعل الذين قالوا: إنه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك إلا أني رأيتُ جمهورَ المفسرين معرضين عن هذه اللطائف غير منتهين

لهذه الأسرار.

هذا ومَنْ قرأ في تفسير «في ظلال القرآن» للشهيد سيد قطب رحمه الله فإنه سيدرك مدى اهتمامه رحمه الله بهذا النوع من المناسبات بين السور والآيات وعلى نحوٍ قد لا يكون سُبِقَ إليه من قبل، حيث يقدم للسورة بمقدمة شاملة يذكر أهم موضوعاتها وحسن ترابط معانيها ودروسها، ثم يقسم السورة إلى دروس بحسب قوة التناسب بين الموضوعات، ثم يربط بين كل درس مع ما بعده وما قبله، ثم في ختام السورة غالباً ما يلخص أهم الدروس والعبر منها، ثم في بداية السورة التي تليها يوضح الصلةَ بين السورتين والرابطَ بينهما على نحو ترى الكتابَ العزيز فيه على غايةٍ من حُسْنِ الترتيب والنظم وجمال البيان وعظمة المتكلم به سبحانه وتعالى.

وكذلك الشيخ سعيد حوى رحمه الله فقد جعل المناسبات بين السور والآيات القرآنية والوحدة الموضوعية في القرآن الكريم أساساً ومرتكزاً لتفسيره القيم الذي سماه «الأساس في التفسير» وبلغ أحد عشر مجلداً كبيراً.

ولا عجب في ذلك فكل مَنْ يتملَّى آيات الله وكلماته ويتدبر أسرارها بخشوعٍ وحضورِ قلبٍ وصفاء نفس وإخلاص سريرة فقد يفتح الله عليه من معانيها بما لا يرى مثله الغافلون الذين قَسَتْ قلوبهم وسيطرت عليها الشهوات والشبهات.

وقد ذكر الإمام السيوطي رحمه الله في كتابه «الإتقان» أن جماعة من العلماء أفردوا المناسبات بالبحث والتأليف منهم: أبو جعفر بن الزبير وكتابه «البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن» والشيخ برهان الدين البقاعي وكتابه «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» وقد ألف فيه السيوطي نفسه

كتابين هما «أسرار التنزيل»، و«تناسق الدرر في تناسب السور». فجزى الله الجميع خيراً على جهودهم ورزقنا الاستفادة مما خَلَّفُوه لنا من علمٍ وتراث كريم.

ثالثاً - أسباب التناسب بين السور والآيات:

لقد ذكر العلماء الذين كتبوا في هذا الباب أسباباً كثيرة تقتضي التناسب بين آيات الكتاب العزيز وسوره ومن أهم هذه الأسباب ما يلي:

١- التنظير، فإن إلحاقَ النظيرِ بالنظيرِ من شأنِ العقلاء وهو دأبُ أهلِ الفصاحة والبيان، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦﴾ [الأنفال].

قال الإمام السيوطي رحمه الله في بيان المناسبة بين الآيتين هنا: فليمض الرسولُ ﷺ في قسم الغنائم على كره من أصحابه كما مضى بالخروج بهم للعير والنفير على كره منهم.

٢- المقابلة والموازنة بين المتضادين من المعاني والصفات. وذلك كطريقة القرآن الكريم المطردة في ذكر صفات الجنة مقابلة لأوصاف النار، وذكر المؤمنين المتقين لجانب ذكر الكافرين والمشركين، وهذا من طرائق القرآن التربوية، وفيه تشويقٌ لقارىء الكتاب أنْ يتحلَّى بالأوصافِ الكريمة ويبتعد عن ضدها، ويرجو الجنةَ وما فيها ويتعوذ من النار وأهلها وما فيها، وبضدها تَتميزُ الأشياء، وفي الليلةِ الظلماءُ يُفتقَدُ البدر.

٣- حسن التخلص، وهو الانتقال مما ابتدأ به الكلام إلى المقصود على وجهٍ سهلٍ يختلسه اختلاساً بحيث لا يشعر السامع بالانتقال بين المعنيين

لشدة التحامهما ببعضهما. ومن أمثلة ذلك، قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۝٨٧ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩ ﴾ [الشعراء].

فتأمل كيف انتقل الكلام من الدعاء والرجاء إلى أوصاف يوم البعث والجزاء الذي هو المقصد للنجاة وبأسلوبٍ سهلٍ جميل وكأنَّ القارىء لم يغادر ساحة الدعاء بعد.

٤- حسن الطلب. ومعناه أن يقدم بين يدي ما يريد الوصول إليه وسيلة له تناسب غرضه وهذا من أدب الخطاب، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ ﴾ [الفاتحة].

ألا ترى كيف يعلمنا الله تعالى الأدب مع ذاته وحسن دعائه ورجائه حيث قدم حمده والثناء عليه بين يدي طلب الهداية منه إلى الصراط المستقيم، وهل في دنيا الإيمان والكمال أجمل من الأدب مع الله الخالق المبدع جل جلاله.

رابعاً - أنواع المناسبات بين السور والآيات:

١- المناسبة بين فاتحة السور وخاتمتها:

ومن أمثلته بداية سورة القصص وخاتمتها. فقد افتتحت السورة بقصة موسى عليه السلام ونُصْرتهِ وخروجه من وطنه إلى أن قال بعد اطمئنانه على نجاته ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ۝١٧ ﴾ [القصص] ثم ختمت السورة الكريمة بأمر النبي ﷺ أن لا يكون ظهيراً للكافرين، قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوا أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ

﴿ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [القصص].

وكان هذا التوجيه الرباني للنبيِّ ﷺ بعد وعده بالعودة إلى مكة التي أُخرجَ منها كما وعد سبحانه أمَّ موسى برده إليها في بداية السورة قال تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾ [القصص].

ومن عرف أن معظم القصص القرآني كان تسليةً للنبيِّ ﷺ وتثبيتاً لفؤاده أمام أذى قومه وعنادهم أدرك كثيراً من المناسبات في ثنايا الآيات وسياقها، إنَّ في ذلك لعبرةً لمن كان له قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيد.

٢- المناسبة بين فاتحة السورة وخاتمة السورة التي قبلها:

ومن أمثلة ذلك افتتاح سورة البقرة ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة] الآيات بعد ختام سورة الفاتحة الذي كان دعاء بالهداية إلى الصراط المستقيم فكأن الله تعالى يبين لنا أنَّ الهدايةَ للصراط المستقيم تكونُ بذلك الكتابِ الذي لا ريبَ فيه هدى للمتقين.

وكذلك آخر سورة القمر وفيها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر]. ويجيء بعدها مباشرة سورة الرحمن علم القرآن.. وما فيها من أوصاف الجنة ونعيمها وما أعد الله فيها لأهلها المتقين.

حقاً إنه لا يخفى على المتأمل شدة التناسب بين السورتين حتى كأنهما وحدة متكاملة تصورُ حقيقةً واحدة ذات سمات متعددة.

٣- المناسبة بين أسماء السور ومقاصدها:

إن المتأمل المتدبر لكتاب الله لا بد أنه سيدرك التناسبَ والتلاحمَ بين

أسماء السور القرآنية والمقاصد الرئيسية لتلك السور، والأمر يحتاج فقط إلى أن نفتح قلوبنا قبل أن نفتح مصاحفنا ثم نلقي السمعَ لآيات الله التي نتلوها وعندها يكون الجواب ما يحسه من فعل ذلك أمامَ كُلِّ سورةٍ من السور الكريمة. ويحرم من ذلك الغافلون، اللهم لا تجعلنا منهم وخُذْ بأيدينا وقلوبنا إليك وفَقِّهنا أسرارَ كتابك يا أرحمَ الراحمين.

المبحث الرابع والعشرون
الوجوه والنظائر في القرآن الكريم

١- معنى الوجوه والنظائر.

٢- أهمية هذا البحث.

٣- أنواع الوجوه.

٤- أنواع النظائر.

٥- فوائد معرفة الوجوه والنظائر.

أولاً - معنى الوجوه والنظائر:

الوجوه: جمع وجه، ومعناه في اللغة اللفظ المشترك الذي يستعمل في عدة معان. والنظائر: هي الألفاظُ المتواطئة، أي: المتوافقةُ في المعنى.

ثانياً - أهمية هذا البحث في علوم القرآن:

لقد عَدَّ بعض العلماء هذا الباب من أنواع الإعجاز القرآني حيث الكلمة الواحدة تنصرف أحياناً إلى عشرين معنى أو أكثر ولا يوجد في كلام البشر على العادة.

وقد ذكر الإمام مقاتل رحمه الله حديثاً مرفوعاً للنبي ﷺ وفيه: «لا يكون الرجل فقيهاً كل الفقه حتى يرى القرآن وجوهاً كثيرة». قال الإمام

السيوطي: أخرجه ابن سعد عن أبي الدرداء موقوفاً[1].

وعن ابن عباس رضي الله عنه أن علياً بن أبي طالب رضي الله عنه أرسله إلى الخوارج فقال: اذهب إليهم فخاصمهم ولا تحاجهم في القرآن فإنه ذو وجوه ولكن خاصمهم بالسنة.

وفي رواية أن ابن عباس قال: يا أمير المؤمنين أنا أعلمُ بكتابِ الله منهم في بيوتنا نزلَ، قال: صدقتَ ولكنَّ القرآن حمال ذو وجوه تقولُ ويقولون ولكن خاصمهم بالسنن فإنهم لن يجدوا عنها محيصاً، فخرج إليهم فخاصمهم بالسنن فلم تبق لديهم حجة[2].

وقد ألف في هذا الباب كثيرون منهم ابن الجوزي والدامغاني، وابن فارس وغيرهم رحمهم الله جميعاً.

ثالثاً - أنواع الوجوه في القرآن الكريم:

إن للوجوه - الألفاظ المشتركة بين معان متعددة - في القرآن الكريم أنواعاً كثيرة وأمثلة عدة منها:

١- كلمة الهدى وتأتي على وجوهٍ عَدَّ السيوطيُّ منها تسعة عشر وجهاً ومنها:

الثبات. قال تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ ﴾ [الفاتحة] أي: ثَبِّتْنَا عليه.

البيان. قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۝٥ ﴾ [البقرة].

---

(١) «الإتقان» ج١ ص٤٤٦.

(٢) انظر «الإتقان» ج١ ص٤٤٦.

الدين. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران].

الدعاء. قال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [الرعد]، وقال: ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ [الأنبياء].

الرسل. قال تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى ﴾ [البقرة].

القرآن. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [النجم].

السنة. قال تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام].

٢- كلمة السوء. وتأتي على معان منها:

الشدة. قال تعالى: ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ [البقرة].

الزنا. قال تعالى: ﴿ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا ﴾ [يوسف].

البرص. قال تعالى: ﴿ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ [القصص].

العذاب. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [النحل].

الشرك. قال تعالى: ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ﴾ [النحل].

٣- كلمة الصلاة. وتأتي على معان كثيرة منها:

الصلوات الخمس. قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [البقرة].

صلاة العصر خاصة. قال تعالى: ﴿ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [المائدة].

صلاة الجمعة خاصة. قال تعالى: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ ۝٩﴾ [الجمعة].

الدعاء. قال تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۝١٠٣﴾ [التوبة].

الدين. قال تعالى: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ ۝٨٧﴾ [هود].

القراءة. قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ۝١١٠﴾ [الإسراء].

٤- كلمة الرحمة. وتأتي على وجوه منها:

الإسلام. قال تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۝٧٤﴾ [آل عمران].

الإيمان. قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ ۝٢٨﴾ [هود].

الجنة. قال تعالى: ﴿فَفِي رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١٠٧﴾ [آل عمران].

النعمة. قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ ۝١٠﴾ [النور].

الرزق. قال تعالى: ﴿خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ ۝١٠٠﴾ [الإسراء].

النصر والفتح. قال تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۝١٧﴾ [الأحزاب].

٥- كلمة الفتنة. ووردت على وجوه منها:

الشرك. قال تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۝١٩١﴾ [البقرة].

الإضلال. قال تعالى: ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۝٧﴾ [آل عمران].

القتل. قال تعالى: ﴿أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۝١٠١﴾ [النساء].

الإثم. قال تعالى: ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۝٤٩﴾ [التوبة].

رابعاً - أنواع النظائر في القرآن الكريم:

وللألفاظ المتناظرة في المعنى رغم تعدد وتباعد ورودها أمثلة كثيرة في القرآن الكريم ومن أهمها ما يلي:

١- قال ابن فارس في كتاب «الأفراد»: كل ما في القرآن من كلمة «الأسف» فمعناه الحزن إلا ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الزخرف] فمعناها: أغضبونا.

٢- البروج. ومعناها الكواكب إلا في قوله تعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النساء]. فمعناها هنا القصور الطوال الحصينة.

٣- حسبان. ومعناها العدد إلا قوله تعالى: ﴿ حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الكهف] فهو العذاب.

٤- ريب. ومعناها الشك إلا في قوله تعالى: ﴿ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الطور]. فتعني حوادث الدهر.

٥- يأس. معناها القنوط إلا في قوله: ﴿ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴿٣١﴾ ﴾ [الرعد]. فمعناها: العلم[1].

خامساً - فوائد معرفة الوجوه والنظائر في القرآن الكريم:

١- التعرف على سعة معاني القرآن الكريم وتناسب آياته وكلماته.

---

(١) وليراجع من أراد التوسع في هذا البحث كتاب «الإتقان» للسيوطي ج١ ص٤٤٥-٤٦٠ فيه المزيد من الأمثلة والفوائد الجليلة.

٢- التعرف على فقه اللغة العربية وحسن أسلوبها وتنوع تعابَيرها ودلالاتها.

٣- سعة الأفق عند طالب العلم والعالم وذلك عندما يعرف هؤلاء أن للكلمة الواحدة معان متعددة، فلا ينبغي للإنسانِ حينئذٍ أنْ يحصرَ نفسه بمعان محددة ودلالات ضيقة. ويحث هذا الحال طلاب العلم على مزيدٍ من البحث والتأمل للوقوف على مرامي الآيات الكريمة ومعانيها الجليلة.

٤- تعويد طالب العلم على إعمال عقله وفكره في الاستنتاج والاستنباط وربط النظائر بأمثالها من الألفاظ والمعاني وذلك عندما يرى القارىء لكتاب الله أن آيات كثيرة وردت في مناسبات متعددة ولها جميعاً معنى واحد أو يلاحظ أن كلمة واحدة جاءت بمعان مختلفة متباينة.

٥- الحصول على مَلَكة بيانية عالية من خلال الإلمام بأنواع الوجوه والنظائر حيث بإمكان طالب العلم والعالم أن يتصرف باللفظ الواحد فيصرفه إلى معان متعددة أو يتحدث عن المعنى الواحد بألفاظ مختلفة كذلك.

٦- التواضع. وذلك عندما يرى العلماء تلك المعاني الكريمة في كتاب الله تعالى وتلك الدلالات المتنوعة والألفاظ المتناظرة، فإنَّ الإنسان العاقل ليطامن من نفسه ويعرف قدرها ويدرك أنَّ بينه وبين استيعاب العلم بوناً شاسعاً فيتواضع لله ويتخلق بأخلاق العلماء الربانيين الذين يفقهون قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء].

٧- احترام الرأي الآخر. إن معرفة الوجوه والنظائر القرآنية تجعل أهل العلم يحترمون الآراء المتعددة في القضية الواحدة طالما أدركوا أن الكلمة الواحدة لها معان كثيرة في كتاب الله تعالى. وعندها عليهم أن لا يتعصبوا

لآرائهم ولا يضيقوا ذَرْعاً بآراء الآخرين وأفهامهم لاحتمال صحة تلك الآراء ووجود ما تستند إليه من اللغة وطرائق الاجتهاد. ولعل تلك من أهم فوائد معرفة هذا العلم عند مَنْ يتأمل ويفقه أسرار القرآن العظيم وأساليبه، والله أعلم.

المبحث الخامس والعشرون

غريب القرآن الكريم

١- تعريفه.

٢- أهميته.

٣- آداب البحث فيه.

٤- مظانه.

٥- طرائق البحث في كتب غريب القرآن ومفرداته.

أولاً - تعريف غريب القرآن:

الغريب في اللغة: مُفْرد، وجمعه غُرباء وهم الأباعدُ كما في القاموس. وفي الاصطلاح: هو الألفاظ الغريبة التي لم تتضح دلالتها على المعنى بشكل ظاهر.

ثانياً - أهمية البحث عن غريب القرآن الكريم:

عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه. أخرجه البيهقي، وعن ابن عمر رضي الله عنه مرفوعاً: من قرأ القرآن الكريم فأعربه كان له بكل حرفٍ عشرون حسنة، ومن قرأه من غير إعراب كان له بكل حرف عشر حسنات. قال الإمام السيوطي في الإتقان ج١

ص٣٥٤: والمراد بإعرابه معرفة معاني ألفاظه وليس المراد به الإعراب المصطلح عليه عند النحاة وهو ما يقابل اللحن لأن القراءة مع فقده ليست قراءة ولا ثواب فيها..

ثالثاً - آداب البحث عن غريب القرآن الكريم:

إن أهم آداب البحث عن غريب القرآن الكريم التثبت وعدم القول فيه بغير علم، وهذا لا يكون إلا عند مَنْ رزقه الله التقوى وهدى قلبه وعرف قدر نفسه، ولقد سئل أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ٣١﴾ [عبس] ولم يكن يعرف معنى «أباً» فقال: أيُّ سماء تظلني وأي أرض تقلني إنْ قلتُ في كتابِ الله ما لا أعلم.

وأخرج ابن جرير الطبري عن سعيد بن جبير رضي الله عنه أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا ١٣﴾ [مريم] فقال: سألت عنها ابن عباس فلم يجب فيها شيئاً. فلئن كان ابن عباس رضي الله عنه الذي لقب بترجمان القرآن لا يجيب عن بعض الكلمات الغريبة في هذا الكتاب، فماذا على كلٍّ منا إنْ حذر وتَحفَّظ كثيراً وكثيراً جداً قبل أنْ يُجيبَ عما يسأل عنه من معاني كلام الله؟ بل هو الواجب على كل مسلم تجاه كتاب الله تعالى.

رابعاً - مظان البحث عن غريب القرآن الكريم:

ليس غريب القرآن الكريم مستعصياً على الحل، ولا هو من قبيل المتشابه الذي يرى بعض العلماء أنه مما استأثر الله بعلمه. وإنما هو ألفاظ حفت بها الغرابة لكونها مشتركة بين معان متعددة أو لقلة استعمالها في ألسنة الناس ومخاطبتهم، وقد يكون الغريب نسبياً بحسب مواهب الناس وثقافاتهم، فما هو غريب عند بعضهم قد لا يكون غريباً عند آخرين، والمهم أننا اليوم في زمن اتسعت فيه المعارف وكثرت فيه المراجع العلمية

وسهل على مُحِبِّ العلم الوصول إلى بغيته سواء بالتلمذة على العلماء أو بالبحث في المصادر والمراجع العلمية. وبالتالي لم تعد مشكلةُ غريبِ القرآن قائمةً إلا عند أقوام زهدوا بالعلم واستسلموا لحياة الغفلة واستمرؤوا مصاحبة الشهوات والانهماك في مستنقع الترف والاهتمامات الصغيرة السفسافة، أما مَنْ شَمَّرَ عن ساعد الجد فإنَّ الوصول للهدف يسير على مَنْ يسره الله عليه وصدق في الطلب.

لا تقــولـــوا ذهبــت أربـابــه   كل من سار على الدرب وصل

وأشير هنا إلى أهم مظان البحث عن غريب القرآن لإيضاحه وإزالة غربته:

١- الرجوع إلى العلماء الربانيين فهم أصل المعرفة ومنبع العلم، وعنهم تُؤخَذُ معالم النجاة وسبل الهداية، وبهم يستبصر عن الصراط المستقيم إذا حلكت الظلمات وعَمَّت الشُّبهاتُ، وليس شفاء العي إلا في السؤال.

٢- الرجوع إلى كتب التفسير المعتمدة ففيها البيان والإعراب عن كل مجمل وغريب في الكتاب.

٣- الرجوع إلى أشعار العرب ودواوينهم فإنَّ القرآنَ الكريم نزل بلغتهم ولسانهم. قال الإمام السيوطي في «الإتقان»: قال أبو بكر بن الأنباري: قد جاء عن الصحابة والتابعين كثيراً الاحتجاج على غريب القرآن ومشكله بالشعر وأنكر جماعة - لا علم لهم - على النحويين ذلك، وقالوا: إذا فعلتم ذلك جعلتم الشعرَ أصلاً للقرآنِ والحديث. قال: وليس الأمر كما زعموا من أنَّا جعلنا الشعرَ أصلاً للقرآن، بل أردنا نبين الحرف الغريب من القرآن بالشعر لأن الله تعالى قال: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴿٣﴾ ﴾ [الزخرف]. وقال: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [الشعراء].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الشعر ديوان العرب فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفةَ ذلك منه.

وعن ابن عباس أيضاً أنه كان يسأل عن القرآن فينشد فيه الشعر[1].

وقد نقل الطبراني في «معجمه الكبير» حديث نافع بن الأزرق مع ابن عباس عندما سأله عن كثيرٍ من غريبِ القرآن فيجيبه ابن عباس فيقول ابن الأزرق: وهل تعرف العربُ ذلك؟ فيقول ابن عباس: نعم وينشد من أشعار العرب ما يؤكد المعنى الذي فسر به الكلمة الغريبة من القرآن[2].

٤- الرجوع إلى الكتب التي أفردت غريب القرآن الكريم بالتأليف وأهمها وأشهرها كتابان مطبوعان متوافران في المكتبات وهما:

مفردات ألفاظ القرآن الكريم: للراغب الأصفهاني رحمه الله.

.معجم غريب القرآن الكريم: لمحمد فؤاد عبدالباقي رحمه الله.

خامساً - طرائق البحث في كتب غريب القرآن ومفرداته:

١- منهج مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني:

لقد تتبع الإمام الراغب الأصفهاني رحمه الله الكلمات الغريبة في القرآن الكريم وعلى طريقة المعاجم اللغوية - طريقة «مختار الصحاح» - وترتيب

---

(١) انظر «الإتقان في علوم القرآن» للسيوطي ج١ ص٣٨٢ تحقيق د. مصطفى البغا.

(٢) المرجع السابق مع «معجم غريب القرآن» لمؤلفه محمد فؤاد عبدالباقي ص٢٤٣ إلى ٢٩٢.

«القاموس المحيط» - فبيَّنَ معاني تلك الكلمات وفَسَّرَ الكثير منها تفسيراً شاملاً، ثم هو يذكر جميع المفردات الواردة في القرآن الكريم عند كل مادة لغوية فمثلاً كلمة «حق» يستعرض جميع مفردات هذه الكلمة من الآيات المختلفة التي ينبني على ذكر تلك الكلمة فيها اختلافٌ عن معنى سابق لها، ويشرح معاني تلك الكلمات شرحاً وافياً وربما ذكر فوائد واستنباطات لغوية وتفسيرية وعقدية وفقهية وبأسلوب سهل ميسر مُحَبَّب لكلِّ راغبٍ في العلم والمعرفة. ويعد كتاب الراغب هذا من أهم الكتب في هذا البيان وقد طبع محققاً وبلغ ٧٢٨ صفحة من القطع الكبير. نفعنا الله والمسلمين بما فيه من العلوم والحكم.

٢- منهج معجم غريب القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقي رحمه الله:

إن للكاتب المعروف الأستاذ محمد فؤاد عبدالباقي رحمه الله جهوداً مشكورة في خدمة القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فمن المعجم المفهرس لألفاظ القرآن إلى المشاركة في المعجم المفهرس لألفاظ الحديث إلى ترتيب بعض الصحاح وترقيمها بصورة تساعد على سهولة الرجوع إليها وآخر ما رأيت له رحمه الله كتابه القيم الذي سماه «معجم غريب القرآن الكريم» وقد استخرج فيه الكلمات الغريبة من القرآن الكريم وعمد إلى بيان معانيها بطريقة لم يسبق إليها فيما نعلم، وهي استخراجُ تلك المعاني من صحيح الإمام البخاري رحمه الله، ثم رتب هذه الكلمات ومعانيها على طريقة المعاجم اللغوية فكان عملاً جليلاً نسأل الله أن يثيبه عليه أحسن الثواب. وها هو يعبر عن طريقته في مقدمة كتابه المذكور فيقول: فما أحراني أنْ أعكفَ على الصحيح وأَتقصَّى كلماته كلمة كلمة فأتصيد منها الحرف الغريب فأرصده في جزازة حتى إذا أوفيتُ على الغاية من

الاستقصاء والتحري وتكاملت الجزازاتُ أقبلتُ عليهن أرتبهن وأنظمهن حسبَ أوائلِ حروف المادة التي منها اللفظة الغربية، ثم ها أنذا أُبَوِّبها ثم أضع النماذج المتعددة لها حتى ارتضيتُ أخيراً النموذجَ والمثال الذي يراه القارىء لهذا المعجم إ.هـ مقدمة الكتاب للمؤلف.

هذا والله نسأل أن ينفعنا بعلم مَنْ سبقنا ويرزقنا حُسْنَ التأسي بهم في خدمة القرآن الكريم والتخلق بآدابه إنه تعالى قريب مجيب.

والله أعلم

المبحث السادس والعشرون

إعراب القرآن الكريم

١- معنى الإعراب.

٢- أهميته وأشهر ما ألف فيه.

٣- قواعد هامة يجب مراعاتها عند إعراب القرآن الكريم.

أولاً - معنى الإعراب:

الإعراب في اللغة: الإفصاح، ويقال: أعرب بحجَّتِه إذا أفصحَ بها ولم يتق أحداً[١].

وفي الاصطلاح: قال الشريف الجرجاني في التعريفات: الإعراب هو اختلاف آخر الكلمة باختلاف العوامل لفظاً أو تقديراً[٢].

ثانياً - أهميته وأشهر ما ألف فيه:

قال الإمام السيوطي رحمه الله في «الإتقان»: أخرج ابن عبيد في «فضائله» عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: تعلموا اللحن والفرائض والسنن كما تَعلَّمون القرآن.

---

(١) انظر «مختار الصحاح» مادة عرب.

(٢) انظر «التعريفات» للجرجاني ص٣٦٠ مادة عرب.

وعن يحيى بن عتيق قال: قلت للحسن: يا أبا سعيد الرجلُ يتعلمُ العربيةَ يلتمس بها حسن المنطق ويقيمُ بها قراءته؟ قال الحسن: يا ابن أخي فتعلمها فإنَّ الرجلَ يقرأ الآية فيعيا بوجهها - يعجز عن فهمها - فيهلك فيها[1].

ومن هنا فقد اهتم العلماء قديماً وحديثاً بإعراب القرآن الكريم وأفرده كثيرون بالتأليف، وأشهر الكتب المؤلفة في إعراب القرآن الكريم:

١- إعراب القرآن الكريم للإمام أبي جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس رحمه الله المتوفى ٣٣٨هـ ويقع كتابه هذا في ستة مجلدات متوسطة الحجم.

٢- مشكل إعراب القرآن الكريم للإمام مكي بن أبي طالب رحمه الله المتوفى عام ٤٣٧هـ. وقد أعرب في كتابه هذه الكلمات المشكلة والتي يكتنفها الغموضُ وأعرضَ عن الكلماتِ الواضحة التي لا إشكالَ فيها، والكتابُ مطبوع ومحقق في مجلدين كبيرين.

٣- إعراب القرآن الكريم وبيانه، ومؤلفه كاتب معاصر سوري ثم حمصي وهو الشيخ محي الدين الدرويش حفظه الله وقد بلغ كتابه عشر مجلدات كبيرة. نفعنا الله به والمسلمين.

٤- وتفسير الإمام أبي حيان مشحون بالإعراب ومتميز به، فجزى الله الجميع خيراً ونفعنا بعلومهم.

---

(١) انظر «الإتقان في علوم القرآن» للإمام السيوطي ج١ ص٥٧٥.

قواعد هامة يجب أن تراعى عند إعراب القرآن الكريم:

إن إعراب القرآن الكريم بمثابة التفسير له، والعلمُ بالإعراب شرطٌ لازم لكل من يرغب في التفسير، ومن هنا وضع العلماءُ قواعدَ تجب مراعاتها عند إعراب القرآن الكريم لئلا يقع المعرب في الخطأ بحق كلام الله تبارك وتعالى، وأهم هذه القواعد ما أشير إليه فيما يلي بإيجاز واختصار.

١- فهم معنى الكلام المراد إعرابه.

يجب على المعرب أن يفهم ما يريد إعرابه قبلَ الإعراب لأنَّ الإعراب فرع المعنى.

قال شيخُ النُّحاةِ في عصره ابن هشام رحمه الله: وقد زَلَّتْ أقدام كثير من المعربين راعوا في الإعراب ظاهر اللفظ ولم ينظروا في موجب المعنى. فمثلاً قوله تعالى: ﴿ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ﴿٢٨﴾ ﴾ [آل عمران] فكلمة تقاة إن كانت بمعنى الاتقاء فتعرب مصدراً أي مفعولاً مطلقاً، وإن كانت بمعنى متقى - أي: أمراً يجبُ اتقاؤه - فتعرب مفعولاً به، وإن كانت بمعنى جمعاً معيناً كرماة أُعربت حينئذٍ حالاً.

وكذلك كلمة «أحوى» من قوله تعالى: ﴿ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ [الأعلى] فإن أُريد بها الأسود أعربت صفة للغثاء.. وإن أريد بها شدة الخضرة أعربت حالاً من المرعى.

٢- تجنب الأمور البعيدة والأوجه الضعيفة واللغات الشاذة. وذلك لئلا يقع التكلُّفُ والتمحُّلُ في بيان معاني مفردات القرآن الكريم وصياغته المعجزة، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأحزاب] فقد أخطأ مَنْ قال أن أهل منصوبة على الاختصاص وذلك

لضعفِ ورودِ المنصوب على الاختصاص بعد ضمير المخاطب، والصواب أنْ تُعربَ منادى أي: يا أهل البيت.

٣- استيعاب جميع الأوجه الجائزة في الإعراب. وذلك أن بعض الكلمات يتعدد إعرابها بناء على توجيه معناها أو بناء على تقدير محذوف قبلها، وقد يختلف هذا المقدر أيضاً، فإذا لاحظ المعرب تلك الأوجه فيكون قد أغنى الكلمة والجملة القرآنية ووسع مدارك المتعلمين في فهمها واستيعابها.

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ ۝٣﴾ [البقرة]. فكلمة «الذين» يجوز أن تعرب بدلاً من المتقين، ويجوز أن تعرب مفعولاً لفعلٍ محذوف تقديره أعني، ويجوز أن تعرب خبراً لمبتدأ محذوف تقديره هم الذين.

٤- مراعاة النظير. ويراد به أن المعرب قد يخرج كلاماً على وجه معين ويعربه بناء على هذا الوجه ويكون لهذا الكلام نظير في مكانٍ آخر لو رُوعيَ هذا النظير لاختلف الإعراب عما سبق فلا بد حينئذ من مراعاة النظير مسبقاً. ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة]. فقد أخطأ من وقف على «ريب» وأعرب «فيه» جاراً ومجروراً في محل رفع خبر مقدم و«هدى» مبتدأ مؤخر.

ووجه الخطأ هنا أن لهذه الآية نظيراً في مكان آخر وهو يخالف هذا الإعراب وذلك في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [السجدة]. فقد امتنع هنا الوقف على كلمة «ريب» لأننا لو فعلنا وبدأنا بكلمة: فيه من رب العالمين، لصار المعنى فاسداً. ومراعاة لهذا النظير يَتعيَّنُ علينا الوقوف في آية البقرة على كلمة «فيه» وجعلها

خبراً للا التي هي لنفي الجنس والعاملة عمل إن والله أعلم.

٥- مراعاة رسم المصحف العثماني: وذلك بحيث لا يعرب إعراباً لا يتفق معه ومثاله قوله تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾ [الإنسان]. فكلمة سلسبيلاً أخطأ مَنْ أعربها جملة طلبية أي سل فعل أمر وسبيلاً مفعول به منصوب، لأن هذا الإعراب يخالف الرسم العثماني؛ بل ويخالف صحة النظم والسياق أيضاً.

٦- عدم الخروج عن الأصل الظاهر لغير مقتض، لما في ذلك من التكلف الذي يفسدُ جمالَ الكلمة ومعناها. ومثاله قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴿٢٦٤﴾﴾ [البقرة].

فقد أخطأ مكي بن أبي طالب رحمه الله عندما جعل الكاف في كلمة كالذي نعتاً لمصدر تقديره: إبطالاً كإبطال الذي.. والصواب كونه حالاً أي: لا تبطلوا صدقاتكم مشبهين الذين ينفق ماله رئاء الناس. والله أعلم.

٧- الإلمام بالعربية وقواعدها وتصاريفها المختلفة، وذلك لئلا يقع في وجوه ضعيفة من اللغات واللهجات الشاذة الغريبة ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأنفال] فقد أخطأ من جعل الكاف من كلمة «كما» قسماً لأنها لا تعرف بهذا المعنى عند أهل اللغة، ولا تُشبه واوَ القسمِ المعروفة، والصحيحُ في إعرابها أنها حرفُ جَرٍّ، وهي ومجرورها في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره، هذا الحال - تنفيلك الغزاة وقسمك الغنائم بينهم وكراهيتهم لذلك - كإخراجك من بيتك للحرب وهم كارهون

لذلك[1]. والله أعلم.

وبعد، فإن إعراب القرآن الكريم وتفسيره وبيانه وفهمه يعتمدُ في أساسه على حُسْنِ التدبر والتأمل لهذا الكتابِ العظيم، فعلى قَدْرِ تدبر القارىء يفتح الله عليه من المعاني والأسرار، وكلامُ الله لا حصرَ لمعانيه ولا حَدَّ لها، ومَنْ يُؤْتَ الحكمةَ فقد أُوتيَ خيراً كثيراً، واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم.

هذا وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

---

(١) انظر «الإتقان» للسيوطي ج١ ص٥٧٥ وما بعدها لتطلع على مزيد من التفاصيل عن إعراب القرآن.

الخاتمة

خواطر قرآنية

١- التأثر بآيات القرآن الكريم.

٢- حق القرآن الكريم على أهله.

٣- كيف تَلقَّى الصحابةُ رضي الله عنهم القرآن الكريم.

٤- الاعتزاز بالقرآن الكريم.

٥- أمة القرآن الكريم.

٦- الإسلام دين الفطرة.

٧- من هم أهل القرآن الكريم.

٨- يسر الإسلام وسماحته.

٩- الصراط المستقيم.

١٠- الهدايةُ في القرآن الكريم.

١١- العدلُ والإنصاف عند جيل القرآن الكريم.

١٢- التعاون على البر والتقوى.

١٣- مسؤولية الشباب المسلم نحو القرآن الكريم.

تلك خواطر ونبضات قلب أمليتها على طلابي في لحظاتِ صفاءٍ أثناء دروسِ القرآن الكريم وأثبتها كما جاءتْ لعلَّ فيها ذكرى تنفع المؤمنين.

أولاً - التأثر بآيات القرآن الكريم:

إن إلفةَ الإنسان لعملٍ من الأعمال قد تجعلُ هذا العمل هَيِّناً على نفسه وتقلل من قدرِ العمل من عنده. وهذا أمرٌ يجب التنبه إليه ممن يعيش مع القرآن الكريم تعلماً وتعليماً فإلفةُ القرآن الكريم والحياة الطويلة معه يجب أنْ تزيدَ من قدره ومكانته في قلوبنا بما نتلو من آياته التأثر اللائق بحملة القرآن فنرجو رحمة الله عند آية الرحمة ونخاف من عذاب الله عند آية العذاب ونتشوق للجنة عند ذكرها، وهكذا حتى نقومَ بحقِّ القرآن علينا ولا نكون ممن يسمعون آيات الله وهم عنه معرضون لا سمح الله.

ثانياً - حق القرآن الكريم على أهله:

لقد أنزل الله عز وجل القرآنَ الكريمَ هدى للناس وهو المعجزةُ الخالدة إلى قيام الساعة، به يهتدي الخَلْقُ إلى ربهم، وبه يعرفون سر وجودهم، وعلى هَدْيِهِ يعمرون حياتهم ويزكون أنفسهم ويطهرونها من كل خُلُقٍ ذميم، والقرآن الكريم يعطينا التصور الصحيحَ الصادق عن الكون والإنسان والحياة بدءاً ونهاية، ويرسم لنا منهاجاً متكاملاً للحياة ومتطلباتها الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية والإدارية والسياسية والفردية والجماعية مراعياً في ذلك كله الطبيعة البشرية وقدرات الناس وطاقاتهم، وقد أنزل القرآن الكريم لا ليبين هذا فقط وإنما ليبني الحياةَ فوق تلك الأسس والمبادىء وهذا الأمر لا يكون إلا إذا حملَ القرآنَ الكريم جيلٌ من الناس عن عقيدةٍ وخلق وفهم فطبقوه ودعوا إلى تعليماته السمحة وعندها تزدهر الحياة وتنمو ويعلو شأن الناس وتسعد البشرية في ظلال القرآن الكريم ورحاب

الإيمان الطاهرة.

أيها الشباب المسلم: هذا هو القرآن الكريم وهذا حَقُّه عليكم وأنتم المُرشَّحون للقيام بالرسالة الخالدة فاعرفوا واجبكم وقوموا بحقِّ القرآن الكريم عليكم ولا تكونوا من الغافلين.

ثالثاً - كيف تلقى الصحابة رضي الله عنهم القرآن الكريم:

لقد بعث الله رسوله محمداً ﷺ ليدعو الناس إلى الله ويخوفهم من عذاب الله ويبين لهم دين التوحيد الخالص بعد أنْ عَمَّت البشريةَ ضلالات وجهالات من الشرك وفساد الأخلاق.

فقام رسول الله ﷺ بأمر ربه وبَلَّغَ الناسَ كلام الله تعالى وهديه فتفتحت القلوب الخيّرة إلى دعوة الإسلام وتلقّي أحكام الله تعالى وهدي نبيه بلهف وشوق وحب، وعرف أولئك الأصحاب رضي الله عنهم أن دخولهم في هذا الدين يطلبُ منهم أن يغيّروا واقعهم ومجرى حياتهم على ضوء هديه، وبدأ القرآن الكريم يبني فيهم حياةً جديدة وهم يقطعون حبال الجاهلية ويوصلون حبالَ الإسلام ويقرؤون الآيةَ من كتاب الله تعالى لا يتجاوزونها حتى يعرفوا حلالَها وحرامها ويطبقوها على أنفسهم ثم ينتقلون إلى غيرها. وهكذا وُصِفَ الصحابةُ رضي الله عنهم بأنهم قرآن يمشي على الأرض.

لقد غَيَّرَ القرآنُ الكريم ما بأنفسهم وكان مُوجِّهاً لكل عملٍ من أعمالهم فتغيرت أحوالهم بعد ذلك فأصبحوا قادةَ الرَّكْبِ ورواد حضارة إسلامية لم يعرف التاريخ لها مثالاً من قبل.

أيها الشباب المسلم:

هذا هو الطريق وأولئك هم الرجال.

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جريرُ المجامعُ

فلنتخذهم قدوةً لنا ولْنسِرْ على دربهم لعلَّ الله تعالى أن يكرمنا كما أكرمهم.

رابعاً - الاعتزاز بالقرآن الكريم:

ينبغي لِحَمَلَةِ القرآن الكريم أنْ يعتزوا به ويشعروا بأنَّ معهم من الهدى والحكمة والعلم ما ليس عند غيرهم وأنهم بما معهم من تعاليمِ هذا الكتاب العظيم يملكون رسمَ منهاجٍ واضح لسعادة البشرية وخلاصها من شقائها واضطرابها وجاهليتها.

إنَّ أهلَ القرآن الكريم وحدهم الذين يستطيعون أن يحلوا مشاكلَ النفس الإنسانية والأزمات الخلقية والاجتماعية، فهم سابقون ومتقدمون على الناس جميعاً في هذه المجالات التي لا يعرفها حقاً غيرهم ولا تصلح البشرية بغيرها، والواقع أكبر شاهد على ذلك. ورسولُ الله ﷺ يقول: مَنْ أُوتيَ القرآنَ وظَنَّ أن غيره أوتي خيراً منه فقد حقرَ عظيماً وعظم حقيراً.

ايها الشباب المسلم:

هذه مكانتكم فكونوا أعزاء بالقرآن الكريم ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين.

خامساً - أمة القرآن الكريم:

قال الله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴿١١٠﴾ ﴾ [آل عمران].

تلك مواصفات أمة القرآن الكريم وهذا دورها في العالمين إنها خير أمة

مهمتها القيام على الناس وقيادتهم إلى أفضل سبيل.

حقاً لقد تحققت أمةُ القرآن بأخلاقها وقامت بمهمتها واعترف العالم لها بمكانتها طائعاً أو مكرهاً. حدث هذا كله يوم كان القرآن الكريم منهجها ودستورها، ويوم كانت الأمة الإسلامية تترجم القرآنَ الكريم إلى حركةٍ واقعية وسلوكٍ تصبغ به سيرها في الحياة.

أما الآن.

وبعد أن تخلت هذه الأمة عن تلك الأخلاق وبدأت تلهثُ وراء النظريات البشرية المستوردة فقد تغيرت مكانتها بتغير مواصفاتها والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد] فذلَّت الأمةُ الإسلامية بعد عِزٍّ وضعفت بعد قوةٍ وصارت ذنباً بعد أن كانت رأساً.

كم صرفتنا يَدٌ كنا نصرفها وبات يملكنا شعبٌ ملكناه

أيها الشباب المسلم:

إن خسارة أمتنا عظيمة وفادحة وهي لا تزالُ ترتكسُ في هبوطٍ مدمر ومخزٍ ولا بد لها من إنقاذ ولا بد لها من بعث جديد ولا بد لها من رواد صادقين ومخلصين يُبَصِّرونها كيف تستيقظ من غفلتها وتتطلع إلى مهمتها ودورها في الحياة.

وسبيل الخلاص ما زال موجوداً واضحاً، إنه القرآن الكريم إنه هذا الإسلام العظيم، فكونوا أنتم أيها الشباب أولئك الرواد الذين يعيدون للأمة مجدها العريق ومكانتها المرموقة.

عودوا لدينكم يَعُدْ لَكمُ الهنا إنَّ الهناء بدينكم متوفر

سادساً - الإسلام دين الفطرة:

قال الله تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [النساء].

إن أهم خصائص هذا الدين أنه دين الفطرة، فالله عز وجل هو الذي خلق الإنسان ويعلم سبحانه قدرات البشر وطاقاتهم ومواهبهم وميولهم ونوازع الخير والشر فيهم، وقد شرع الله عز وجل لنا من الأحكام ما يتناسب مع فطرتنا التي فطرنا عليها، قال سبحانه: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك] فالإسلامُ وحده هو الذي يصلح النفس البشرية لأن خالق هذه النفس وآمرها واحدٌ هو الله سبحانه وتعالى فلا قهرَ ولا أغلالَ ولا تعقيدَ في الإسلام.

أما بقية النظم البشرية التي تحاول وضعَ تشريعٍ للناس فأصحابها يجهلون طبيعةَ النفس البشرية وما فطرت عليه ولذلك ما استطاعوا ولن يستطيعوا أن يأتوا بنظام يصلح البشرية، وكل ما أتوا به إنما هو إفساد للفطرة وتعقيد للنفس وكبتٌ لها وطريق الخلاص الوحيد هو هذا الدين قال تعالى: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةًۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [البقرة].

سابعاً - مَنْ هم أهل القرآن الكريم:

قال رسول الله ﷺ: «يُؤتَى يومَ القيامة بالقرآن الكريم وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا تقدمه سورة البقرة وآل عمران تحاجَّان عن صاحبهما»[1] من خلال هذا التوجيه النبوي الكريم نفهم أن أهل القرآن الكريم هم الذين يعملون به ويتحركون في الحياة على ضوئه وهديه. وليس أهله الذين

(١) رواه مسلم والترمذي.

يحسنون قراءته وترتيله ويحفظونه من أوله إلى آخره عن ظهرِ قلبٍ وقد أسقطوا العملَ به. قال ابن عمر رضي الله عنه: كان أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن فلا يتجاوز الآية حتى يعلمَ حلالَها وحرامها ويعمل بها، وقد أتى على الناسِ زمانٌ يُؤتى أحدهم القرآنَ قبلَ الإيمان وإن أحدهم ليقرأ القرآن من فاتحته إلى خاتمته ولا يسقط منه حرفاً واحداً وقد أسقطَ العملَ به أو كما قال. فحاملُ القرآن يحملُ شرفاً عظيماً يجب أن يقدره قدره فلا ينبغي أن يلهو مع مَنْ يلهو ولا يغفل مع من يغفل، ويجب على حامل القرآن أن يتميز بين الناس بأخلاقهِ وسلوكه وآدابه وإلا فسيكون القرآنُ شاهداً عليه يوم القيامة أنه ضيعه وهجره ولم يقم بحقه.

أيها الشباب المسلم:

أنتم حَمَلَةُ القرآن فكونوا من أهله بحق وقوموا بحقه ولا تكونوا من الغافلين.

ثامناً - يسر الإسلام وسماحته:

قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء] إن من أبرز خصائص هذا الدين السماحة واليسر ورفع الحرج. تقول عائشة رضي الله عنها: ما خُيِّر رسول الله بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً[١] ويقول تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة] وهكذا منهج الإسلام في التربية وتنشئة المجتمع المسلم وتكوين الأمة المتحابة القوية فلا تعقيد في الأمور ولا تشديد على

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وأحمد.

الناس بل السماحة واليسر والعفو والتجاوز عن الأخطاء والهفوات وباب التوبة مفتوح للمذنبين والتحضيض عليها في غير ما آية من كتاب الله وكثير من التوجيهات النبوية الكريمة.

هذا هو منهج الإسلام فماذا عند الآخرين؟ ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً؛ فالبشر يجهلون النفس البشرية ويجهلون السبل التي تصلحها أو تفسدها. فعندما يحيد الناس عن منهج الله يهيمون على وجوههم ويتخبطون خبط عشواء في سيرهم وعلاقاتهم مما يأتي في النهاية بدمار المجتمعات وخرابها وتعقيد الحياة ومرارة العيش فيها كما هو واقع الآن في المجتمعات التي تحكمها الجاهلية الحديثة.

لقد وصل الإنسان الغربي اليوم إلى مستوى عالٍ في المجالات التقنية والتكنولوجية الحديثة فاكتشف الكهرباء وحطم الذرة وصعد إلى القمر وسكن ناطحات السحاب ولكنه عاد ينتحر ويبني المستشفيات الكثيرة للأمراض النفسية والعقلية لأنه لم يجد في نفسه السعادة والطمأنينة والاستقرار. فالحضارة الأوروبية الحديثة تقف على حافة الانهيار لأن النفوس التي بنَتْها قد خربت ومرضت والعالم اليوم يتطلع إلى سبيل الخلاص خلاص النفس الإنسانية من الكبت والعقد والانهزام والأمراض الفتاكة التي تعصف بالمجتمعات ولن تجد البشرية طريقاً للخلاص إلا في رحاب الإيمان وظلال القرآن الذي رفع شعاراً تربوياً عظيماً في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ۝١٨٥﴾ [البقرة] يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً.

أيها الشباب المسلم:

تلك حاجة البشرية اليوم وأنتم المرشحون للإنقاذ فاعرفوا واجبكم

وأعدوا أنفسكم لحملَ الرسالة فالعالم بالانتظار للأيدي المتوضئة والقلوب المستنيرة لتأخذ بيديه وتمنحه السعادة والطمأنينة والاستقرار.

تاسعاً - الصراط المستقيم:

قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام].

جاء عن النبي ﷺ أنه خطَّ لأصحابه خطاً مستقيماً وعلى جوانبه خطوط معوجة ثم أشار إلى الخط المستقيم وتلا هذه الآية: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا﴾ ثم قال مشيراً إلى الطرق المعوجة: إن على رأس كل طريق من هذه الطرق شيطان يدعو إليه.

إنَّ المتأمل في هذه الحياة والبصير بأحوالها واجد طُرُقاً كثيرة ومذاهبَ مختلفة ومناهج متباينة ولكلٍّ منها دُعاتهُ ومروِّجُوه حتى يحار الإنسان العادي لمن يسمع ومن يجيب، وأيّ طريقٍ يسلك في حياته. أما المسلم الحَقُّ فهو على نورٍ من ربه ولا يشك أبداً أن طريق الحق واحد لا ثاني له وهو الصراط المستقيم صراط الله الذي يعلم مَنْ خلق وهو اللطيفُ الخبير. إنه صراطُ الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين وحَسُنَ أولئك رفيقاً. إنه الطريقُ الذي رسمه رسولُ الله ﷺ بأقواله وأفعاله وأحواله وتربَّتْ عليه أجيالُ السلف الصالح فكانوا خيرَ أمةٍ أُخرجت للناس، ونشروا بين البرية سعادةً وطمأنينة لم يتذوق الناسُ مِثْلَها من قَبْلُ إلا في هدي الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام. هذا هو الصراط المستقيم وتلك معالم آثاره وثمراته.

أما غيرهُ من مذاهبِ البشر وأفكارهم وطرقهم وأحزابهم فهي الطرق المعوجة التي على رأسِ كُلٍّ منها شيطانٌ يدعو إليه مهما اختلفت التسميات

والألقاب غربيةً كانت تلك المناهج أم شرقية، يمينيةً كانت أو يسارية قومية أو عنصرية شيوعية أو اشتراكية عربية أو عجمية أم غير ذلك جميعاً. إنها كُلُها سُبُلُ ضلالٍ وانحراف أدت إلى فسادِ النفوس والقيم والأخلاق وعَكَّرت صفو الحياة على أهلها وأسالت دماءً ما تزالُ تنزفُ في صراعاتٍ حمقى وغرورٍ طائش ركضاً وراء شهوةِ الزعامة والتسلط على عباد الله.

نعم يا أحبة.

هذه الدنيا تموجُ من حولنا وتتصارع فيها المبادىء الهدامة ونحنُ المسلمين على بصيرةٍ من طريقنا وعلى ثقةٍ من صحة هذا الطريق وأنه وحده يؤدي إلى النجاة والعزة والكرامة في الحياة الدنيا والآخرة. لذلك نطلبُ من الله تعالى كل يوم مرات ومرات ضارعين إليه في خشوع وابتهال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة].

اللهم إنَّا آمنا بكَ وحدك وكفرنا بما كانوا به يشركون. اللهم ثَبِّتنا بالقولِ الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة يا رب العالمين. وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

عاشراً - الهداية في القرآن الكريم:

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧١﴾ [الأنعام].

وقال تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ۝١٧﴾ [الكهف].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ [الشورى].

إن الهداية في القرآن الكريم لها معنيان أساسيان:

الأول: هداية القلب وتحويله من الكفرِ إلى الإيمانِ ومن الضلال إلى الهدى.

الثاني: هداية البيان والدلالة والدعوة إلى سُبُلِ الحق.

أما المعنى الأول فهو ملكٌ لله تعالى وحده فقلوبُ العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يُقَلِّبها كيف يشاء، فَخَلْقُ الهدايةِ في قلب الإنسان أمرٌ لا يملكه إلا الله سبحانه وتعالى، قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص].

أما المعنى الثاني: البيان والتوضيح والدعوة إلى سبل الخير فقد بيَّنَ الله ذلك أحسنَ بيان وأكمله كما كلف الله رسله من البشر وأتباعهم من بعدهم بأنْ يقوموا بهذه المهمة ويكونوا دُعاةَ خيرٍ وأمن وسلام يهدون الخَلْقَ إلى الخالق ويُوضِّحون الصراطَ المستقيم ومعالمه وحدوده للناس وهذا ما يقوله الله لرسوله ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى] أي: تدل وتُوضِّحُ وتدعو. ولا مُنافاةَ بين هذا وبين الآية السابقة، إنك لا تهدي من أحببتَ، فتلك هدايةُ قلبٍ وهذه هدايةُ دعوةٍ وبيان.

وقد اقتضت سنة الله في هذا الكون أنْ يمنحَ الهداية لمن طلبها وتوجَّه إليها بصدق قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت] وقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الليل].

كما اقتضت سنته تعالى أن يحجب الهداية عَمَّنْ تنكَّبَ الطريقَ واتبع

هواه ولم يتوجه إلى الله تعالى طالباً منه الهداية والتوفيق، قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ [الليل].

وقال تعالى: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [الشمس].

أيها الشباب:

من هذا نعلم أنَّ من مَهمَّات رسولنا ﷺ بيان طريق الحق والدعوة إليه وهي مهمتنا أيضاً قال تعالى: ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف] وقال سبحانه: ﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [فصلت] فلنتلمس سُبُلَ الهداية من كتاب الله تعالى وهدي رسولِ الله ﷺ ولنتوجه إلى الله بصدق أنْ يهديَ الناسَ على أيدينا، فقد قال الرسولُ ﷺ: «لأَنْ يَهديَ اللهُ بك رجلاً واحداً خيرٌ لك مما طلعت عليه الشمسُ» أو كما قال ﷺ. وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

حادي عشر - العدل والإنصاف عند جيل القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المائدة] وقال سبحانه: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [النحل] إنَّ من أهمِّ خصائص هذا الدين العدلُ والإنصافُ ووضع الموازين بالقسط بين الناس، فالقريب والبعيد والكبير والصغير والأبيض والأسود والعربي والعجمي والحاكم والمحكوم والقويُّ والضعيف والغني والفقير والرجل والمرأة كُلُّ أولئك أمامَ شرعِ الله سواء، فلا تمييزَ لأحدٍ ولا حصانة لذي جاهٍ أو سلطان، ولن يفلت من عدالة

الإسلام أحد مهما كان كبيراً ولن يحرم من إنصاف الإسلام أحدٌ مهما كان مجهولاً بين الناس. وهذا رسولُ الله ﷺ يعلنها صريحةً واضحة قوية يومَ سَرقت المرأةُ المخزومية وحاول بعضُ الناس أن يتشفع بها لتنجو من العدالة لِمَا لها مكانةٍ وشرف فيغضب رسول الله ﷺ ويقول: إنما أهلكَ مَنْ كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرَقَ فيهم الشريفُ تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيفُ أقاموا عليه الحد، والذي نفسي بيده لو أنَّ فاطمةَ بنت محمد سرقت لقطعت يدها. وهذا الصدِّيقُ رضي الله عنه يسيرُ على الدرب نفسه ويقول في أول يومٍ من خلافته: القويُّ فيكم عندي ضعيفٌ حتى آخذَ الحقَّ منه والضعيف فيكم قوي حتى آخذ الحق له.

والمتتبع لصفحات قضائنا الإسلامي المجيد يجد فيه عجائب من العدل والإنصاف بين الناس، فلَكَمْ قضى حُكَّامُ المسلمين على أمرائهم بل وعلى خليفتهم أحياناً لصالحِ بعضِ اليهود الذميين في الدولة، وما قضاء شريحٍ على أمير المؤمنين عليٍّ لصالح اليهودي في درع بيده. ما هذا منا ببعيد. إنه المنهجُ الحَقُّ، إنه التطبيقُ الكامل لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ﴿٨﴾﴾ [المائدة] أي: لا يحملنكم بُغْضُ قومٍ على ألا تعدلوا في الحكم، اعدلوا هو أقربُ للتقوى.

بمثل هذه المبادىء، بمثل هذه القيم ضرب الإسلام بجرانهِ في الأرض وسادَ الأمنُ والحبُّ والتعاون في المجتمع الإسلامي الراشد، وكنا يومها خيرَ أمة أُخرجت للناس وهُداةَ رَكْبِ البشرية إلى بَرِّ الأمان والسعادة والاطمئنان. ويومَ تَخلَّينا عن تلك القيم وضَيَّعنا هذه الأصولَ والمفاهيم ضعنا وفقدنا خصائصنا ومكانتنا في الأرض وأصبحت أحوالنا يُرْثَى لها وقامت للظلم دولته وفقد الإنصاف والمساواة والرحمة بين الناس وانتشر الفساد وعَمَّت الجرائم وماعت الأخلاق عند الكثيرين من مرضى القلوب

والنفوس ولم يَبْقَ للحياةِ طعمها ولا لذتها في مجتمعات لا يُنْصَرُ فيها الضعيف ولا يحكم فيها بالعدل والحق والقسط بين الناس.

أيها الشباب:

كذلك كنا بالأمس وهكذا أصبحنا اليوم والأملُ بالله عز وجل ثم فيكم أن تُوقِظُوا هذه الأمة وتُعيدوها إلى رُشْدها ومكانتها العظيمة التي كانت عليها وهذا يقتضي منكم أنْ تَستعينوا بالله أولاً وتُخْلِصُوا له القصدَ وتعمقوا الصلة به سبحانه وتعالى وأنْ تُشَمِّروا عن ساعدِ الجد وتَحملوا هَمَّ هذه الأمة وأحزانها وتبيعوا وقتكم ونفوسكم لله دُعاةً في سبيله مجاهدين لرفع راية الحق وإقرار العدل والإنصاف في الأرض قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت] وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

ثاني عشر - التعاون على البر والتقوى:

قال الله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢﴾ ﴾ [المائدة] وقال ﷺ: «واللهُ في عونِ العبد ما كان العبدُ في عون أخيه».

إن من أهم مواصفات المجتمع الإسلامي التعاون على البر والتقوى، فالفرد في هذا المجتمع عنصرُ خيرٍ وعطاء وتعاون وبناء يُحبُّ لإخوانهِ ما يحب لنفسه ويقدم لهم العون كما يحب منهم أن يعاونوه.

ويحثنا الله في هذه الآية الكريمة على أنْ نكونَ إيجابيين في هذا المجتمع نفعلُ البر ونعاونُ عليه ونجتنب العدوان وندعو إلى اجتنابه، وإنَّ مجتمعاً تسوده المحبةُ والتعاونُ لهو مجتمعٌ فاضل، وإنَّ الرسول ﷺ

ليبشرنا بأنَّ الله عز وجل في عون العبد ما دام هذا العبد في عون أخيه، وتلك عناية كبرى من الله تعالى وجزاء عظيم للمتعاونين على البر والتقوى.

أيها الأخوة.

فلنكن متحابين متعاونين يهتمُّ بعضُنا بمصالح بعض ويقضي بعضنا حاجات بعض حتى نكونَ متحققين بمواصفاتِ المجتمع المسلم الخيّر الصادقِ الصالح، ولا خيرَ فيمن لا يُرْجَى بِرُّه ويُتَّقى شَرُّه، والمسلم آلفٌ مألوف ولا خيرَ فيمن لا يألفُ ولا يُؤلَفُ وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

ثالث عشر - مسؤولية الشباب المسلم نحو القرآن الكريم:

القرآن الكريم هو المنهج الذي سار عليه سلفنا الصالح رضي الله عنه فوصلوا إلى قمة الحضارة الإنسانية السامية وكانوا به أساتذةَ الدنيا وهُداةَ البشرية، وشهدت الحياةُ معنى العدالةِ والحقِّ والحرية والرحمة على كافة المستويات ولجميع رعايا المجتمع الخاضع لهذا الدين، وإن أمتنا اليوم لتعاني من مختلف أنواع الضياع والذلِّ والتفكُّكِ والتمزق، ففي كل ناحية ملك وسلطان والأمر كما قال بعضهم:

أنَّى اتجهتَ إلى الإسلام في بلدٍ   تجده كالطيرِ مقصوصاً جناحاه

وقد قضت أمتنا في القرن الماضي أتعسَ أيام حياتها وهي تلهثُ وراء الشرق والغرب تَستجدي النُّظُمَ والمبادىء ولم يَنَلْها إلا الشقاءُ والهوانُ ولم تجد إلا التَّحكُّمَ والاستعباد من الدول الكبرى.

والآن وبعد أن أشرفت السفينةُ على الهلاك جديرٌ بنا أن نرفع أبصارنا إلى الأعلى نتبصر شاطىء السلام وما هو منا ببعيد، ولا يحتاج الأمرُ إلا

إلى وقفةٍ صادقة وشجاعة نُعلن فيها مختارينَ أننا برآء من التبعية للشرق والغرب ونقرر أن نسير على هدى الله في كتابه وفي سنة رسوله ﷺ مقتفينَ آثارَ سلفنا الصالح رضي الله عنهم متفتحين لكلِّ جديد نأخذُ خيرَهُ وننبذُ شره وعندها ستعودُ المياه إلى مجاريها وسيرجعُ العالم مقراً لنا بالسيادة والعرفان.

والأملُ بالله عز وجل وحده ثم فيكم يا شبابَ الإسلام أنْ تتوضَّحوا الطريق وتحثُّوا السير ثابتي الخُطا متبصرين فتتحملوا مسؤوليةَ هذا الكتاب العظيم وتتخلَّقوا بأخلاقهِ أولاً ثم تدعوا إليه على بصيرةٍ ثانياً واهبينَ له كُلَّ أوقاتكم واهتماماتكم. فقد كفى ضياعاً يا شباب الإسلام، كفى ذلاً وهواناً، كفى تعظيماً لأعداء الله واستعلاء على أحباب الله.

أيها الشباب المسلم:

يا مَنْ يعيشُ ريعان الشباب وخصوبةَ العقل والإدراك والقوة والأماني الكبار هل رسمتم لأنفسكم خطةً تقومون على أساسها بحقِّ القرآن عليكم؟

هل عقدتم العزم أنْ تكونوا من أبناء القرآن الكريم عملاً وأخلاقاً وسِيرةً بين الناس؟

هل أدركتم أن الأمة تتطلع إلى الشباب ليعيدوا لها سالفَ مَجْدها الآفل؟

هل علمتم أنكم مَحطُّ أنظارِ الناس شئتم أم أبيتم؟

هل ذكرتم مقامَ أهلِ القرآن الكريم في الجنة عندما يقال لهم: اقرأ وارقَ ورَتِّلْ كما كنت ترتل في الدنيا فإنَّ منزلتكَ عندَ آخرِ آيةٍ تقرؤها؟

ماذا عساكم يا شباب الإسلام أن تكونوا قد أعددتم لهذه التساؤلات؟

هل عرفتموها وقدرتموها قَدْرَها؟ وصَمَّمتم على أنْ تَهَبُوا القرآنَ حياتَكم وتضحوا في سبيله بأنفس ما تملكون من نفس ووقت ومال؟ أستحلفكم بالله يا شباب الإسلام أن تعرفوا قَدْرَكُم والآمالَ المعلَّقةَ عليكم. وأنْ تتقوا الله في أنفسكم وأمتكم.

فإنْ لم تكونوا النذير العريان لها فَمَنْ يكون؟!

يا شباب الإسلام والقرآن:

أسألكم من قلبٍ مشفق عليكم وعلى مستقبلِ الديارِ والمُقدَّسات والأطلال التي تضم ربوعنا الآفلة:

مَن سيحمل مشعل القرآن إنْ لم تكونوا أنتم؟

مَن سيوقظ الغافلينَ الهُجَّع إلا أنتم؟

مَن سينور الطريقَ في درب السائرين غيركم!

مَن سيرد للأمة اعتبارها سواكم؟

مَن سيعيد للمسلمين مجدهم دونكم؟

أيها الشباب:

هل تظنون أنفسكم صغاراً؟ لا بل أنتم كبار، وقد تَرسَّم خُطا المجد والشهادة في سبيل الله قبلكم مصعب وأسامة وعمار وعبدالله بن الزبير أولئك الشباب الذين

أعطوا ضريبتهم للدِّينِ من دَمِهم   والناسُ تَزعمُ نصرَ الدين مجانا

وهل تظنون أنَّ مهمتكم سهلةٌ ومريحة؟ لا إنها شاقةٌ وطويلة تحتاجُ إلى

عَزْمِ الشباب ومَضاء الرجال وشوقِ المُحبِّين.

يا أخوتي الأحبة:

لم يبق لنا خيار وقد شقَقنا الطريقَ لأنفسنا طريق الإيمان والقرآن فاحملوا هذا الكتابَ بحقٍّ، وكونوا به أعزاء، وفاخروا به الدنيا تِيهاً واستعلاءً لتدللوا على ثقتكم بمبدئكم وخطاكم الثابتة عليه لا رياءً ولا استكباراً على عباد الله.

فأنتم أيها الشباب:

أنتم العظماءُ لِعَظَمةِ ما تَحملون ولعظمة ما يُعَلَّقُ عليكم من آمال، فاعرفوا أنفسكم، واتقوا الله في شبابكم، وحافظوا على القرآن الكريم واجعلوه خُلُقاً لكم ليبعثَ اللهُ النصرَ على أيديكم، واصدقوا الله يصدقكم ويحقق آمالكم.

وشَمِّرُوا عن ساعدِ الجد وتطلعوا إلى الآمالِ العِظام وهبوها ما تَستحقُّ من الأعمالِ، وإن ملامح الفجر لقريبةٌ بإذن الله فاستقبلوها بالجد والعزيمة والبصيرة.

دعاء وابتهال:

اللهم مُنْزِلَ الكتاب وهازمَ الأحزاب ومُجْرِيَ السحاب ومُقَلِّبَ القلوب والأبصار ثَبِّتْ قلوبنا على دينك، وألهمنا الرُّشْدَ في الأمر كله، واجعل اللهم أقوالَنا وأعمالنا وأحوالنا لوجهك الكريم.

اللهم اجعلنا من أهلِ القرآن حقاً وصِدْقاً ولا تجعلْ لأنفسنا حظاً فيما نقولُ أو نعلم أو نعمل. اللهم اجعل القرآنَ الكريمَ شاهداً لنا ولا تجعله شاهداً علينا. اللهم واجعله حُجَّةً لنا ولا تجعله حجة علينا. اللهم إنا ضِعافٌ فَقَوِّنا بكَ ولا تؤاخذنا بذنوبنا وتقصيرنا. اللهم نَوِّرْ قلوبنا بالقرآن الكريم ونور أبصارنا بالآيات والذِّكْرِ الحكيم. اللهم أَلِّفْ بين قلوبنا واجعلنا إخواناً متحابين فيك، واجمع اللهم شَمْلنا ووَحِّدْ صفنا ولَمَّ شَعثنا وولِّ علينا خيارَنا وأرحنا يا رَبَّنَا من جميعِ الأشرار. اللهم ألف بين قلوبِ الدعاة إلى دينك وارزقهم الحُبَّ الخالصَ لوجهك وأزل ما بينهم من الشحناء والبغضاء وألهمهم الرُّشْدَ في الأمر كله يا رب العالمين.

اللهم أحينا مسلمين وتوفنا مؤمنين وآمِنَّا يومَ الفَزَعِ الأكبر.

يا أرحم الراحمين:

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وعلى من سار على نهجه واتبع هداه إلى يوم الدين وسلم تسليماً كثيراً.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

مراجع البحث

أولاً: كتب التفسير وعلوم القرآن:

١- القرآن الكريم — كلام رب العالمين

٢- في ظلال القرآن الكريم — للشهيد سيد قطب

٣- تفسير القرآن العظيم — للإمام ابن كثير

٤- الجامع لأحكام القرآن — للإمام القرطبي

٥- فتح القدير — للإمام الشوكاني

٦- صفوة التفاسير — للشيخ محمد علي الصابوني

٧- روائع البيان في تفسير آيات الأحكام — للشيخ محمد علي الصابوني

٨- حجة القراءات — للإمام أبي زرعة تحقيق سعيد الأفغاني

٩- معرفة القرّاء الكبار — للإمام الذهبي

١٠- التعبير الفني في القرآن — للدكتور بكري شيخ أمين

١١- من روائع القرآن الكريم — للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

١٢- مباحث في علوم القرآن — للدكتور صبحي الصالح

١٣- مباحث في علوم القرآن — للشيخ مناع القطان

١٤- التبيان في أقسام القرآن — للإمام ابن القيم

١٥- التبيان في آداب حملة القرآن — للإمام النووي

١٦- مقدمة في أصول التفسير — للإمام ابن تيمية

١٧- البرهان في علوم القرآن — للإمام الزركشي

١٨- الإتقان في علوم القرآن للإمام السيوطي
١٩- مناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ محمد عبدالعظيم الزرقاني
٢٠- التبيان في علوم القرآن للشيخ محمد علي الصابوني
٢١- مناهج الجدل في القرآن للدكتور زاهر عواض الألمعي
٢٢- السفير في أصول التفسير للشيخ عبدالحكيم محمد سرور
٢٣- تلاوة القرآن المجيد للشيخ عبدالله سراج الدين
٢٤- فن الترتيل للأستاذ عبدالله توفيق الصباغ
٢٥- الجديد في أحكام التجويد للشيخين إبراهيم عبدالرزاق أبو علي وعبدالباسط عبدالماجد بشير
٢٦- البرهان في تجويد القرآن للشيخ محمد الصادق قمحاوي
٢٧- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن للشيخ محمد فؤاد عبدالباقي

ثانياً: كتب السنة الشريفة:

٢٨- جامع الأصول لأحاديث الرسول للإمام ابن الأثير الجزري
٢٩- نظم المتناثر في الحديث المتواتر للكتاني
٣٠- رياض الصالحين للإمام النووي
٣١- مسند الإمام أحمد للإمام أحمد بن حنبل
٣٢- المعجم المفهرس لألفاظ الحديث لجنة علمية استشراقية وإشراف محمد فؤاد عبدالباقي

ثالثاً: المعاجم اللغوية:

٣٣- القاموس المحيط الفيروز آبادي
٣٤- الصحاح للجوهري
٣٥- المعجم الوسيط مجمع اللغة العربية القاهرة

٣٦- مختار الصحاح	للإمام الرازي

رابعاً: كتب إسلامية عامة:

٣٧- إحياء علوم الدين	للإمام الغزالي
٣٨- الشفا بتعريف حقوق المصطفى	للقاضي عياض
٣٩- العدة في أصول الفقه	للقاضي أبي يعلى البغدادي
٤٠- أثر الاختلاف في القواعد الأصولية	لشيخنا الدكتور مصطفى سعيد الخن
٤١- أصول الفقه	للشيخ محمد أبو زهرة
٤٢- شبهات حول الإسلام	للأستاذ محمد قطب
٤٣- المدخل إلى أصول الفقه وتاريخ التشريع	موسى إبراهيم الإبراهيم
٤٤- تراث العرب العلمي	قدري حافظ طوقان
٤٥- سير أعلام النبلاء	للإمام الذهبي
٤٦- وفيات الأعيان	لابن خلكان
٤٧- الأعلام	للزركلي

الفهرس

المبحث الأول
تعريف القرآن الكريم وكيفية إنزاله

الموضوع	رقم الصفحة

المبحث الثاني

أسبـــاب النـــزول

المبحث الثالث

المكـي والمدنـي

الموضوع	رقم الصفحة

المبحث الرابع
جمع القرآن الكريم وترتيبه

المبحث الخامس
الأحرف السبعة في القرآن الكريم

الموضوع | رقم الصفحة

المبحث السادس

لمحة عن القراءات والقراء

الموضوع رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

المبحث التاسع

إعجاز القرآن الكريم

المبحث العاشر

الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

المبحث السابع عشر
قصص القرآن الكريم

المبحث الثامن عشر
الأمثال في القرآن الكريم

الموضوع رقم الصفحة

المبحث التاسع عشر
أقسام القرآن الكريم

المبحث العشرون
الجدل في القرآن الكريم

الموضوع	رقم الصفحة

المبحث الحادي والعشرون
فضائل القرآن الكريم

المبحث الثاني والعشرون
الفواتح والخواتم لسور القرآن الكريم

المبحث الثالث والعشرون
المناسبات بين السور والآيات القرآنية

الموضوع رقم الصفحة

المبحث الرابع والعشرون

الوجوه والنظائر في القرآن الكريم

المبحث الخامس والعشرون

غريب القرآن الكريم

الموضوع رقم الصفحة

المبحث السادس والعشرون
إعراب القرآن الكريم

الخاتمة
خواطر قرآنية

تمت والحمد لله رب العالمين أولاً وآخراً وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.